



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

بَحُوثُ لَفْظِيَّةِ قُرْآنِيَّةٍ

مَتَّاعٌ جَدِيدَةٌ لِغَايَةِ بَعْضِ الْفَاعِلِ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَقِرَائَتِهِ

تأليف

عبد الرحمن العتيق

إصدار
مكتبة دار الفکر
والمطبعة والنشر والتوزيع
بمكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بحوث لفظية قرآنية (نتائج جديدة لمعاني بعض الفاظ و تراكيب القرآن الكريم)

كاتب:

عبدالرحمن العقيلي

نشرت في الطباعة:

العتبة الحسينية المقدسة

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
7	بحوث لفظية قرآنية (نتائج جديدة لمعاني بعض ألفاظ و تراكيب القرآن الكريم)
7	اشارة
7	هوية الكتاب
12	المقدمة
19	موسى عليه السلام بين القصص وطه والنمل
29	بنو إسرائيل وموسى عليه السلام
35	هل كان موسى عليه السلام أرتأ أو الثعأ؟!
48	(اليوم الآخر) و (الآخرة) و (القيامة) فى القرآن
55	(الذين كفروا) و (الكافرون) و (الكافرون حقا) فى القرآن
62	مفهوم (الكتاب) فى القرآن
83	مثلث (الذين آمنوا) و (المؤمنون) و (المؤمنون حقا) فى القرآن
94	(المتقون) فى القرآن
98	المتنازعون فى سورة الكهف والبعد العقائدى
118	(المجرمون) فى القرآن الكريم
123	أَلْقِيَا فى جَهَنَّمَ
140	المحراب فى القرآن
153	معانى استعمال (نظر وبصر) ومشتقاتهما فى القرآن
161	(الإنسان والبشر) فى القرآن الكريم
170	متى يُنْفَخ فى الصور؟!
179	الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فى القرآن
189	(الوفاة) و (الموت) و (القتل) فى القرآن
193	جنت الدنيا فى عصر الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

215	مؤمن آل فرعون
227	(مرج البحرين يلتقيان)!
232	نوح وقومه فى القرآن
237	(الذين لا يعلمون) فى القرآن
241	ما كان سؤال المنافقين؟!
253	(التُّزَع) فى القرآن
259	تقدير الكلام فى آيات القرآن... بين الوهم والحقيقة
281	كلاً.. فى القرآن
287	النفاق ومرض القلب
305	وانشَقَّ القمر!
319	زوال الدولة الصهيونية
319	على يد الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف
338	على من تنزَّل السكينة ؟
353	فواتيح سورة الكهف
371	المحتويات
374	تعريف مركز

بحوث لفظية قرآنية (نتائج جديدة لمعاني بعض ألفاظ و تراكيب القرآن الكريم)

إشارة

سرشناسه: عبد الرحمن العقيلي

عنوان و نام پديدآور: بحوث لفظية قرآنية: نتائج جديدة لمعاني بعض ألفاظ و تراكيب القرآن الكريم / تأليف عبد الرحمن العقيلي

مشخصات نشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والبحوث الاسلامية

محل نشر: كربلاى معلی - عراق

سال نشر: 1436 ه ق

مشخصات ظاهري: 367ص

يادداشت:عربي

يادداشت:کتابنامه

موضوع: القرآن - مسائل لغوية

موضوع: بلاغة القرآن

موضوع: القرآن - اعجاز

ص: 1

هوية الكتاب

العقيلي، عبدالرحمن

بحوث لفظية قرآنية: نتائج جديدة لمعاني بعض ألفاظ وتراكيب القرآن الكريم / تأليف عبد الرحمن العقيلي. - الطبعة الأولى. - كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية، 1436 ق. = 2015 م.

ص 494. (قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة؛).

المصادر في كذلك في الحاشية

1. القرآن - مسائل لغوية. 2. القرآن - ألفاظ. 3. القرآن - اعجاز. 4. القرآن - قصص. 5. بلاغة القرآن. 6. محمد بن الحسن (عج)، الامام الثاني عشر، - 255 هـ. - من الناحية القرآنية. 7. الفاظ القرآن - احاديث. ألف. السلسلة. ب. العنوان.

تمت الفهرسة في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر

بحوث لفظية قرآنية

نتائج جديدة لمعاني بعض ألفاظ وتراكيب القرآن الكريم

ص: 2

جميع الحقوق محفوظة

للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

1436 هـ --- 2015 م

العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: 326499

www.imamhussain-lib.com

E-mail: info@imamhussain-lib.com

ص:4

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً

الإسراء: 88

ص: 5

المقدمة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام (1) (وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضى غرائبه ولا تُكشف الظلمات إلا به) وهذا بحسب ما أفهم إخبار عن الاختلاف الذى سيحصل فى القرآن، جزاء وصف أمير المؤمنين بأن القرآن (حمّال أوجه)، فهذه الصفة ليست للقرآن بالنسبة للمعصومين الذين اصطفاهم الله، بل إن الناس يرون فيه احتمال الأوجه، وبالتالي فهى صفة تقص بنظرهم من حيث لا يعلمون! ولو كان القرآن حمّال أوجه بالإيجاد لكان كتاب ضلالة وليس كتاب هدى وهذا باطل قطعاً وكذلك قوله عليه السلام عن عدم فناء عجائبه ولا انقضاء غرائبه (فالقرآن واحد نزل من عند واحد) كما يقول الإمام الصادق عليه السلام، والواحد لو كان يُفهم منه أكثر من معنى فما الحجّة فيه؟ وأين الإعجاز؟ بل إنما هو واحد لكن الذى يعلمه على كماله الخواص، وإنما الناس عيال عليهم، كلُّ

ص:6

على مستواه، يقول تعالى:

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا (الرعد: من الآية 17)

فكل وادٍ يسيل على قدره وطاقته وكذلك فهم البشر.

من هنا فما يختلف فيه الناس من آى القرآن ومعانيه قد يحار فيه المرء، إذ يجد أنهم قد يختلفون فى الآية الواحدة ولكل قول ما يسنده ويساوى الآخر بالدليل! والغريب أن يعتمد الناس على عقولهم فى استنباط معانيه ومعرفة مبانيه وتوجيهه بالتالى حسب الرغبات الأنانية، مذهبياً وسياسياً، عنصرياً واجتماعياً، عرقياً وطبقياً، وللأسف هكذا استعمل القرآن عند الفئات المذهبية طوال القرون السابقة وقد استشرف ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فقال: (وإنه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شىء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله. وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حُرّف عن مواضعه. ولا فى البلاد شىء أنكر من المعروف، ولا- أعرف من المنكر. فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته. فالكتاب يومئذ وأهله منفيان طريدان، وصاحبان مصطحبان فى طريق واحد لا- يؤويهما مؤر. فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتماعا. فاجتمع القوم على الفرقة. وافترقوا عن الجماعة. كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم. فلم يبق عندهم منه

ص:7

إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطّه وزبره(1).

وكذلك الأمر إلى اليوم، فالكتاب وصاحبه في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وليس أدل على ذلك من ابتناء الدروس الشرعية عند المسلمين على مصادر شتى من بينها القرآن! بينما المفروض أن معجزة الإسلام الأولى يجب أن يكون قطب الرحي في العلوم الشرعية، لا أن يتساوى في الأهمية مع كلام أرسطو وأفلاطون! يقول السيد الطباطبائي (قدس سره) في نقده للمنهج الدراسي المتداول:

(وذلك أنك إن تبصرت في أمر هذه العلوم وجدت أنها نظمت تنظيماً لا حاجة لها إلى القرآن أصلاً حتى أنه يمكن لمتعلم أن يتعلمها جميعاً: الصرف والنحو والبيان واللغة والحديث والرجال والدراية والفقه والأصول فيأتي آخرها، ثم يتصلّح بها ثم يجتهد ويتمهّر فيها وهو لم يقرأ القرآن، ولم يمَسّ مصحفاً قط، فلم يبق للقرآن بحسب الحقيقة إلا التلاوة لكسب الثواب أو اتخاذه تميمة للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدّثان! فاعتبر إن كنت من أهله(2)!! وهو كلام يُكتب بالذهب لو أنصف القارئ).

وما اعتماد الناس على (الرأى) في تفسير القرآن ألا مصيبة أخرى أصيب بها الإسلام، فاستعملت كل الأساليب لإفراغ القرآن من مضمونه

ص: 8

1- (1) نهج البلاغة - خطب الإمام على عليه السلام - ج 2 - ص 30-31

2- (2) تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج 5 - ص 276

وصبّ ألفاظه في قوالب اخرى، هذا مع طول فترة بعثة النبي صلى الله عليه وآله وبالتالي وجود عشرات آلاف الأحاديث التي تركها النبي صلى الله عليه وآله، وفي جزء كبير منها أحاديث تفسيرية للقرآن لم يصلنا منها شيء، أو أنه وصل على لسان النواصب واليهود والمستسلمين والطلاقاء وبعض مدعى العلم ممن يشملهم الحديث (ممن يعطفون القرآن على الرأي)(1) فأسقطوا على القرآن آراءً نحوية وفقهية وعقيدية تخالف ظاهره، وأولوه بحسب ما أدت إليه تلك الآراء، أو أنهم عطفوه على معانٍ لا يستقيم معها مؤداه وقدروا له تقديرات تناسب ذلك! وكل هذا بدأ مع مؤامرة (منع كتابة السنة) التي أسسها الأولون، لكونهم رأوا الكم الهائل من الأحاديث التي تكبل سعيهم وتمنعهم من تثبيت قدمهم بعد الانقلاب الدموي على السلطة بعد شهادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم! فأنت لو أجريت عملية حسابية بسيطة لمعرفة الحد الأدنى من الأحاديث التي تركها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكانت النتيجة المحتملة:

فترة البعثة = 23 سنة (على الراى الأشهر)

فلو قلنا إن معدل اختلاط الإنسان العادى بالناس = عشر ساعات فى اليوم.

ومع كون منصب النبى (أى نبى) يحتم الاختلاط أكثر من المعدل للضرورة بذلك.

ص:9

فلو افترضنا أن الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الساعات العشر عشرين سؤالاً (على الأقل) لكان لدينا:

365 * 20 يوم في السنة = 7300 سؤالاً في العام

23 سنة * 167,900 = 7300 حديثاً ومعلومة دينية (على أقل الاحتمالات) في مختلف المجالات الفقهية والتفسيرية والإيمانية خلال عمر البعثة المبارك، وهذا لا يتقاطع مع كون السنة فعلية وقوليه لقول الله سبحانه: **وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ (الحشر: من الآية 7)** فكون النبي صلى الله عليه وآله كان متواجداً في وسط الأمة يجعل كل كلام له ووكل تصرف وتحرك في أى مجال كان عبارة عن حديث منقول مورث للأجيال، لذا فالذى فرضناه في اليوم الواحد هو أقل ما يمكن بلا تقاطع مع سنة فعلية تصدر منه صلى الله عليه وآله وسلم في تلكم الساعات.

فأين ذهب ذلك؟! ولم لا تضم كتب المسلمين اليوم إلا نزرا يسيرا من ذلك؟! فأنت تجد أن صحيح البخارى مثلاً يضم ألفى حديث وهى نسبة تقترب من 3,5% من العدد المفترض للأحاديث!! أما كتاب الكافى للكلينى فيضم ستة عشر ألف حديث تقريباً وهو أقل من 10% من العدد المفترض!

منهجنا فى الكتاب

يقول تعالى: **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (النساء: 82).**

ص: 10

ويقول تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (محمد: 24) ويقول أمير المؤمنين عليه السلام (1) (تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور. وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم).

وقوله عليه السلام (2) (ولا تعدوا القرآن فتضلوا بعد البيان).

وروى الصدوق عن الريان بن الصلت قال (3) (قلت للرضا عليه السلام: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا).

لذا فسنقوم بمحاولة السير دبر الآيات الكريمات (وهذا هو التدبر المحمود) في مواضع منتقاة من القرآن، محاولين سبر أغوار معانيها واستجلاء مراميها، راجعين في القرآن للقرآن، عملاً بأمر ربنا وأوليائه الكرام، لذا فلا غرو أن يجد القارئ موارد عديدة تخالف ما تعود على قراءته في المعاجم اللغوية، والسبب واضح فكون القرآن مرجعاً حاكماً على غيره، خلاف السائد من الرجوع لمعرفة معانيه الى معاجم جاءت بعده ولكنها تستلهم آراء

ص: 11

1- (1) نهج البلاغة - خطب الإمام على عليه السلام - ج 1 - ص 216

2- (2) الكافي - الشيخ الكليني - ج 1 - ص 100

3- (3) التوحيد - الشيخ الصدوق - ص 223-224

الأعراب من شعراء وأدباء في معانيه، فالدلالة على اللفظة القرآنية بأختها هو السير الدلالي السليم، فنحن لن نطلب الهدى في غيره، ولو اضطررنا للرجوع الى بعض المعاجم لكان ذلك للتوصل الى المعنى القرآني عن طريق الآيات وليس المعاجم نفسها، ومن يقرأ بتأمل سيعرف الفرق. وكذلك باستجلاء العناصر المتحركة في الآية من الثابتة ومحاولة ربط المتحركة بأمثالها من الالفاظ في باقى الآيات للتوصل الى اللفظ المراد بيانه.

والهدف من هذا المؤلف هو استجلاء معانٍ ظلت أسيرة بين آراء متراكمة طوال قرون، لعدم اتباع المنهج السليم فى بيانها.

وبعد، فهذا الكتاب يضم أبحاثاً عدة تعتمد القرآن فى فهم القرآن وتستأنس بالسنة، وقد كنت قد كتبتها خلال قراءتى القرآن فى شهر رمضان الكريم فى العام الهجرى 1428، أرجو أن أكون قد وفقت لبيان بعض ما أغفله المفسرون ولم ينتبهوا له، آملاً أن يكتبنى الله فى من تدبر كتابه.

عبد الرحمن العقيلي / بغداد

ص:12

موسى عليه السلام بين القصص وطه والنمل

الذى يقرأ قصة اصطفاء الله سبحانه لموسى عليه السلام وتكليمه وإرساله الى فرعون وملئه يجد أن عماد القصة موجود فى ثلاث سور هى القصص، طه، والنمل ووان تفاصيل القصة وجدت بتفاوت واختلاف بالألفاظ مما جعل بعض القساوسة يطعن بالقرآن عن طريق القول بان الحادثة لو كانت واحدة فكيف اختلفت الألفاظ فى نقلها مما يكشف - حسب زعمه - ان النبى محمد صلى الله عليه وآله هو من أَلَّف القرآن لذا فقد كان ينسى ما ذكره آنفاً يأتى بالقصة كل مرة بألفاظ وتفاصيل تخالف ما ذكر سابقاً كما زعم المفتري!

وعند مراجعة كتب التفسير لم أجد من يتطرق لهذا الإشكال - الذى يتراءى لى انه حديث لم يسبق التطرق إليه فى الأزمان الماضية إلا نادرا وبشكل سطحي - وفى مخاطبات لبعض المعاصرين من المفسرين اجمعوا على كون اختلاف القصة بتفاصيلها هو من بلاغة القرآن وأساليبه الشائعة! ولكنى لم اجد ولا هم استطاعوا ان يبينوا ما هى الحكمة هنا وما البلاغة المراد ايصالها من خلال هذا المورد، ومن هذا ما قاله الباقلانى فى (إعجاز القرآن) فى كلامه حول الإعجاز فى سورة النمل: (ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام، وأنه رأى نارا، (فقال لأهله: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (القصص: 29) وقال فى سورة طه فى هذه القصة: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (ط - ه: من الآية 10)... قد تصرّف فى وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك. ولهذا قال: (فليأتوا بحديث مثله). ليكون أبلغ فى تعجيزهم، وأظهر للحجة عليهم(1)!!

وقام بعض المفسرين هرويا من الاشكال هنا بتجاوز كل ما قرره من القواعد النحوية واللغوية لتسوية الوضع، كما فعل الطبرسى الذى قال فى تفسيره سَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ (النمل: من الآية 7) معناه: فالزموا مكانكم،

ص:14

لعلی آتیکم من هذه النار بخير الطريق(1).

فأین سین التسویف التی یؤتی بها للیقین، من لعل التی یؤتی بها للترجی؟!

بل وحتى اللفظ (ساتیکم) فهو بقوة سین التسویف مشعر بالجزم والیقین بعد القرب والتیقن مما شاهد. بینما قوله (لعلی آتیکم منها بقبس) مشعر بالبعد عن المكان وعدم التیقن مما شاهد.

لهذا لم یقنع الرازی بهذا الجواب الذی نقله جهبذ اللغویین (الطبرسی) فقال (ثم ههنا أسئلة: السؤال الأول: (ساتیکم منها بخیر) و (لعلی آتیکم منها بخیر) کالمتدافعین لأن أحدهما ترج والأخر تیقن؟ نقول جوابه: قد یقول الراجی إذا قوی رجأؤه سأفعل کذا وسیکون کذا مع تجویزه الخیبة(2)!.)

وهو یدهب الی کون الحادثة واحدة، وقول موسی واحد وإنما جاء القرآن بنقله بنحوین مرة للیقین ومرة للترجی فهل لنا أن نسأل الرازی: هل کان موسی فی تلك اللحظة راجیا أم متیقنا؟!

ولا جواب هنا!

إن الإكثار من الكلام حول الإعجاز فی الوجه التی لا- یعرف جوابها جعل البعض یشکک فی أصل الإعجاز أو فی ما هیته حتی قالوا بالصرفة حلا للإشکال وهروبا من الإسفاف بتکثیر الوجوه المختلفة حول إعجاز القرآن

ص: 15

1- (1) تفسیر مجمع البیان - الشیخ الطبرسی - ج 7 - ص 364

2- (2) تفسیر الرازی - الرازی - ج 24 - ص 181

والتي قد يكون بعضها صحيحا وبعضها غير صحيح!

نعم من خلال التدبر في هذه الآيات اظن انها لم تنزل لنقل الحادثة كما هي وبالتفصيل في كل مرة، وإنما الآيات تسرد في كل مورد من السور مقاطع من مشهد الاصطفاء لموسى والتكليم والارسال، نعم تبقى بعض الألفاظ بحاجة لتوجيه وللدلالة على ذلك سأقوم بوضع الآيات القرآنية على شكل مقاطع يوازيها ما ذكر في السور الأخرى من نفس القصة وسأترك ما ترك الله ذكره في مورد وذكره في مورد فارغا الا من التنقيط (.....): -

مقارنة في موارد ذكر قصة إرسال موسى عليه السلام إلى آل فرعون وبنى إسرائيل في سور القصص وطه والنمل: -

ص:16

وبالتالى فممکن ان القصة كانت كالتالى :-

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ (القصص 29)

آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً (القصص 29) (أى أحس بها) وفيها قرينة على عدم رؤيته للنار لكنه علم بها من خلال نورها من وراء الجبل ربما أو بعض آثارها.

قال لأهله: أَمْكُثُوا (القصص 29)

إِنِّي آنَسْتُ نَاراً (القصص 29)

لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَيَّ النَّارِ هُدًى (طه 10)

لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (القصص 29).

فلما رأى موسى النار قال: وقد يكون قد قال كلامه هذا بعد ما مشى خطوات عن اهله فتيقن ورأى النار: سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (النمل 7).

فَلَمَّا جَاءَهَا (النمل 8) (والمجىء قد يكون بلا تعلق بشيء، أى قد يكون المراد: لم يكن معه خوف أو تساؤل نفسانى) وهذا ابتداءً.

فلما رأى موسى ما يوجس من أمر النار استجد عنده إحساس داخلى فقال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهَا (القصص 30 وطه 11) (والإتيان يكون مجيئاً بمتعلق: أى أتى بصحبة الخوف والتوجس والسؤال المحيّر عن تلكم النار ربما)

ص:20

نُودَى مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ (القصص 30).

أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (النمل 8).

يَا مُوسَى (النمل 9).

إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (النمل 9).

فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَّعَى (15) فَلَا يَصُدُّدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (طه من 12-20).

فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ (من طه 30) (تهتز في يده قبل ان تتحول الى حية تسعى).

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (طه 21) يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (القصص 31) يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ (النمل 10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (النمل 11).

أَسْلُكُ (القصص 32) السلوك هو الدخول في الأمر المهيم لذلك

مثل دخول الطريق المعبد سلوكه وادخال الخيط بالإبرة عن طريق الثقب المهيأ لها وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (النمل 12) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ (طه 22) (اي ادخلها في الجيب وضمها تحت ابط اليد الاخرى) ثم وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ (القصص 32) (بعد اخرج يدك (جناحك) من جيبك ضمها اليك لترجع لشكلها الطبيعي، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ (هو وقومه) إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (القصص 32) إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (طه 24)

قال: رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) (القصص من 33-35)

(فلما رأى موسى الاجابة السريعة من الله لمطلبه يارسال هارون رداء يصدقه اراد اكثر من ذلك وهو اشراكه في الرسالة فقال:

رَبِّ اسِّرْ لِي صَدْرِي (25) وَيسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونُ أَخِي (30) أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي (31) وَاشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) (طه من 25-36).

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (النمل 13)

قال تعالى:

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (يونس: 83).

اختلف المفسرون في ألفاظ هذه الآية، إذ أنهم اختلفوا على عدة أقوال في قوله تعالى قَوْمِهِ ولمن ترجع هذه الهاء، واختلفوا على عدة أقوال في قوله تعالى: فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ وملاً مَنْ هم!! قال القرطبي (1) (قوله تعالى: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ الهاء عائدة على موسى. قال مجاهد: أى لم يؤمن منهم أحد، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى إسرائيل، لطول الزمان هلك الآباء وبقي الأبناء فأمنوا، وهذا اختيار الطبرى. والذرية أعقاب الإنسان وقد تكثر. وقيل: أراد بالذرية مؤمنى بنى إسرائيل.... وقال ابن عباس أيضا: "من قومه" يعنى من قوم

ص: 23

فرعون، منهم مؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأته ومامشطة ابنته وامرأة خازنه. وقيل: هم أقوام أبأؤهم من القبط، وأمهااتهم من بنى إسرائيل فسموا ذرية كما يسمى أولاد الفرس الذين توالدوا باليمن وبلاد العرب الأبناء، لأن أمهااتهم من غير جنس آبائهم، قاله الفراء. وعلى هذا فالكنية فى "قومه" ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط. قوله تعالى: عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ لِأَنَّهُ كَانَ مُسَلِّطًا عَلَيْهِمْ عَاتِبًا. وَ مَلَأْتَهُمْ وَلَمْ يُقَلِّ: وملئه، وعنه ستة أجوبة:

أحدها: أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه بفعل الجميع.

الثانى: أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره، فعاد الضمير عليه وعليهم، وهذا أحد قولى الفراء.

الثالث: أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود.

الرابع: أن يكون التقدير: على خوف من آل فرعون، فيكون من باب حذف المضاف مثل: وَ سَأَلَ الْقُرْيَةَ يُوسُفَ: 82، وهو القول الثانى للفراء. وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما قامت هند، وأنت تريد غلامها.

الخامس: مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية، أى ملاء الذرية، وهو اختيار الطبرى.

السادس: أن يكون الضمير يعود على قومه. قال النحاس: وهذا الجواب كأنه أبلغها).

وقال الطباطبائي(1) (ذكر بعض المفسرين أن الضمير فى (قومه) راجع إلى فرعون، والذرية الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بنى إسرائيل وأباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم فى الإيمان بموسى، وقيل: الذرية بعض أولاد القبط، وقيل: أريد بها امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، وقد ذُكر فى القرآن وجارية وامرأة هى ماشطة امرأة فرعون. وذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السلام والمراد بالذرية جماعة من بنى إسرائيل تعلموا السحر وكانوا من أصحاب فرعون، وقيل: هم جميع بنى إسرائيل وكانوا ستمائة الف نسمة سماهم ذرية لضعفهم، وقيل: ذرية آل إسرائيل ممن بعث إليهم موسى وقد هلكوا بطول العهد، وهذه الوجوه - كما ترى - لا دليل على شىء منها فى الآيات من جهة اللفظ. والذى يفيد السياق وهو الظاهر من الآية أن يكون الضمير راجعا إلى موسى والمراد بالذرية من قوم موسى بعض الضعفاء من بنى إسرائيل دون ملأهم الأقوياء والشرفاء، والاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعا كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، والعادة الجارية فى أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء والأقوياء بأى وسيلة أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعية وجاههم القومى، ويتقربوا إلى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال والتظاهر بالخدمة ومراعاة النصيح والتجنب عما لا يرتضيه فلم يكن فى وسع الملأ من بنى إسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى على بغيته، ويتظاهروا بالإيمان به).

ص:25

ومع متانة الاستدلال بالفتاوى الاجتماعية عند السيد الطباطبائي، إلا أن الملفت للنظر إن أحدا لم يعتمد على القرآن في التوصل للنتيجة التي توصل إليها الطباطبائي، وهذه النتيجة موجودة من خلال التأمل في الآيات التي تخص بعثة بنى إسرائيل في القرآن، إذ يقول تعالى:

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (القصص: 48).

وهذه الآية جاءت في سياق الحوار مع بنى إسرائيل إذ يقول تعالى:

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (القصص: 47).

فبنو إسرائيل كانوا يضمنون هذا الجواب عند الحساب، فرد الله عليهم: إنه أرسل إليهم الحق فقالوا:

لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .

إذ كانوا يتحججون هنا بأن النبي محمد صلى الله عليه وآله لم يأت بما أتى به موسى من الآيات فرد الله عليهم بقوله:

أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (القصص: 48).

وهنا يقول سبحانه إنكم يا بنى إسرائيل تتحججون بذلك والدليل إننا

عندما أرسلنا موسى وهارون بآياتنا فإنكم قلتم بأنهما (سحران) وكفرتهم بدعوتهما وكذبتموهما.

وهذا يكشف عن إن موسى وهارون ذاقا الأمرين من بنى إسرائيل قبل الأذى الذى لاقوه من فرعون وملأه، ويكشف أيضا عن تواطىء ما، بين ملأ بنى إسرائيل من جهة، وملأ فرعون من جهة أخرى على تسمية (ساحر) لموسى وهارون، وقد كان لموسى معهم حوار نقل بعضه سبحانه إذ يقول:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (الصف: 5).

وهذا الكلام لا لبس فيه وهو يكشف أن بنى إسرائيل كانوا يؤذون موسى ومن قبله كانوا يقولون عليه وأخوه بأنهما (سحران)، والأكثر على قراءتها (ساحران).

وقوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (البقرة: 246).

يثبت وجود ملأ وأبناء، وهما مجموعتان متميزتان فى بنى إسرائيل. وهذه الآية وإن كانت نازلة (من بعد موسى) لكن الصفات العامة للمجمعات لا تتغير فالملا موجود فى جميع المجتمعات بلا استثناء.

ص: 27

لذا فقله تعالى:

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَن يُقْتَتِلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (يونس: 83).

لذا يحتمل كثيرا في انه تعالى يقول: ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه (أى قوم موسى) على خوف من فرعون وملائهم (ملائ قوم موسى) أى أنهم خافوا من فرعون من جهة وخافوا من ملائ بنى إسرائيل من جهة ثانية، ولكن خوف الفتنة كان من فرعون لذا أفرد فرعون بقوله تعالى (أن يقتلهم)، وهذا الذى حصل معهم حصل مع كل أتباع الأنبياء، وله دواعٍ اجتماعية وتجارية ومصالحية وأنايية، فأنت تجد كبار السن بشكل عام يميلون للهدوء والدعة بينما تجد الشباب يميلون للثورة والتجديد، ومن جهة أخرى، فكبار المجتمع وشخصياته المعروفة تكون غالبا من أصحاب المصالح الاقتصادية والذين لهم الكلمة الأعلى على الأرض ماديا، وهؤلاء تجدهم على طول الخط يميلون لعدم زعزعة الأنظمة التى يستفيدون فى ظلها حتى لو كانت هذه الأنظمة تحارب الأنبياء! وهذا ما تكرر بالضبط مع النبى عيسى عليه السلام بعد موسى بحوالى ألف عام، إذ وقف فى وجهه علماء بنى إسرائيل وتجارهم من جهة والسلطة الرومانية من جهة أخرى!.

والأمر لا يحتاج لستة أقوال أو سبعة، فهذه كلها أقوال لم يستدل احد من القرآن عليها!!

ص: 28

هل كان موسى عليه السلام أرتاً أو النعاً؟!

قال تعالى فى كتابه ناقلا قول موسى عليه السلام:

قال ربّ إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون (33) وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى رداءً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون (القصص 33-34).

وقال تعالى:

قال ربّ أشرح لى صدرى (طه: 25) ويسر لى أمرى (طه: 26) وأحلل عقدة من لسانى (طه: 27) يققها قولى (طه: 28) وأجعل لى وزيراً من أهلى (طه: 29) هارون أخى (طه: 30) أشد به أزرى (طه: 31) وأشركه فى أمرى (طه: 32).

والآيتان حار فى توجيهها المفسرون، فبعضهم جمع بين الآيتين وقال انهما فى مورد واحد وموقف واحد وهما تبيان الرتة او العقدة فى لسان موسى عليه السلام وهو يطلب امداده بهارون حتى يفهم منه فرعون وملئه الكلام، قال الطبرسى فى قوله تعالى: وَأَحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يققها قولى

ص: 29

(أى: وأطلق عن لساني العقدة التي فيه حتى يفقهوا كلامي. وكان في لساني موسى عليه السلام رثة لا- يفصح معها بالحروف شبه التتممة)(1).

وقال الطوسي (وقال أيضا "وأخي هارون هو أفصح مني لسانا" لان موسى كان في لسانه عقدة ولم يكن كذلك هارون)(2).

وقال شبر (واحلل عقدة من لساني) حصلت من جمرة أدخلها فاه وهو طفل لما أمر فرعون بقتله لأنه حمله فأخذ لحيته فشقها فقالت آسية إنه صبي لا يميز بين الدرة والجمرة فأحضرتا لديه فأخذ الجمرة ووضعها في فمه)(3).

وقس على ذلك باقي المفسرين.

ولكن بعض العلماء يذهبون إلى وجوب سلامة النبي والإمام من العيوب النفسية والخلقية والخلقية حتى يؤدي الغرض لذا نفوا أي نقص عن النبي والإمام لذا حاول في تفسير (الأمثل) عدم الدخول في إشكال وجوب كون النبي كامل الأوصاف حتى يؤدي المهمة فقال (ثم طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلى المراتب فقال: واحلل عقدة من لساني فصحيح أن امتلاك الصدر الرحب أهم الأمور والأسس، إلا أن بلورة هذا الأساس تتم إذا وجدت القدرة على إراءته وإظهاره بصورة كاملة، ولذلك فإن موسى بعد طلب انشرح الصدر، ورفع الموانع والعقبات، طلب من الله حل العقدة من

ص:30

1- (1) تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج 7 - ص 18

2- (2) لتبيان - الشيخ الطوسي - ج 8 - ص 150

3- (3) تفسير شبر - السيد عبد الله شبر - شرح ص 307

لسانه. خاصة وأنه بين علة هذا الطلب فقال: يفقهوا قولي فهذه الجملة فى الحقيقة تفسير للآية التى قبلها، ومنها يتضح أن المراد من حل عقدة اللسان لم يكن هو التلكؤ وبعض العسر فى النطق الذى أصاب لسان موسى (عليه السلام) نتيجة احتراقه فى مرحلة الطفولة - كما نقل ذلك بعض المفسرين عن ابن عباس - بل المراد عقد اللسان المانعة من إدراك وفهم السامع، أى أريد أتكلم بدرجة من الفصاحة والبلاغة والتعبير بحيث يدرك أى سامع مرادى من الكلام جيداً). (1)

وقد يواجه بإشكال: وهو أن موسى تربى فى بيئة قبطية فى قصر الحكم وهارون تربى فى بيئة إسرائيلية عند أمه فى وسط بنى إسرائيل فموسى أولى بالفصاحة بلغة القبط وهارون أولى باللحن لكونه نشأ عبرياً بخلاف موسى الذى لم يعرف انه عبرى حتى جاهر بالنبوة فثقافته مصرية فرعونية فكيف يطلب المدد بهارون العبرى لمواجهة القبط؟!

فإن قيل: إن موسى تغرب عشر سنين فى مدين ورجع فقد تكون لهجته تغيرت بسبب ذلك؟

قلت: هذا خلاف الملموس عند البشر فموسى عليه السلام لجأ الى مدين وهو شاب مكتمل القوى تربى منذ نعومة أظفاره على لغة القبط فمن المستبعد جدا ان ينسى لغته الأم بسبب عشر سنين.

ولا يبعد ان الخطأ فى إرجاع الضمائر خلط عند المفسرين بين المقصودين

ص: 31

بها فكما فهم الناس من قول موسى:

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (الشعراء: 10-12).

ان الخوف هنا من فرعون وملاه وهو الخوف على النفس بينما يقول الامام على عليه السلام: (لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال)(1).

فبدل الخوف من الجانب السلبي الشخصى الى الجانب الايجابى الذى يحس بمعاونة ضعاف القلوب اذا تغلب الجهال بشبههم.

وبالتالى فقد يكون فصاحة هارون التى ذكرها موسى موجهة لبنى اسرائيل الذين عانى منهم الامرين فيما بعد فهارون نشأ عبريا بينما نشأ موسى قبطيا يتحدث لغة البلاط فلسان هارون افصح بالعبرى بالطبع فموسى قد يكون ناظرا بهذا الجانب الى الفائدة التى سيجنيها من هارون من خلال مساعدته له على بنى جنسه ليتبعوه.

وحتى انطلاق اللسان بالإمكان القول بانه الانطلاق فى جانب الهداية فاذا ضاق صدرى تقل القوة البيانية فلا استطيع من مواصلة القوة الإقناعية.

وقد حاول آخرون ابعاد شبهة بعدم استجابة الله لدعاء موسى بطلب حل العقدة ونتيجة ذلك طلب الاستعانة بهارون فقالوا عن مقال فرعون (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) (وبهذا يكون قد خص نفسه

ص:32

بافتخارين عظيمين - حكومة مصر، وملك النيل -، وذكر لموسى تقطى ضعف: الفقر ولكنة اللسان. هذا في الوقت الذي لم يكن بموسى أية لكنة في اللسان، لأن الله تعالى قد استجاب دعاءه، ورفع عنه عقدة لسانه، لأنه سأل ربه عند البعثة أن: واحلل عقدة من لساني، ومن المسلم أن دعاءه قد والقرآن شاهد على ذلك أيضا.(1)

ومن المعلوم والملموس ان النقص في اللسان يكون ظاهرا بينا خصوصا ما قيل في موسى من وجود اللثغة والتعتة والههشة او الرتة وقد عرّف الأعراب هذه العيوب اللسانية بتعريفات قبيحة!

فالثغة عيب باللسان يبدل المرء جراه الحروف بأخرى، قال الطريحي (الثغة كُغرفة: حبسة في اللسان حتى يصير الراء غينا أو لاما والسين ثاء، ومنها الأثغ. وفي المغرب نقلا عنه الأثغ الذي يجوز لسانه من السين إلى الثاء، وقيل من الراء إلى الغين أو الياء).

والأثغ هو المتعتع(2) وكذلك المههث(3).

والتعتة (أن يعيا الرجل بكلامه ويتردد من عى أو حصر. ويقال: ما الذى تعتعه؟ فتقول: العى. وبه شبه ارتطام الدابة فى الرمل، قال الشاعر:

ص:33

1- (1) لأمثل فى تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازى - ج 16 - ص 72

2- (2) اج العروس - الزبيدى - ج 11 - ص 46

3- (3) تاج العروس - الزبيدى - ج 3 - ص 281

يتعنع فى الخبر إذا علاه وبعثر فى الطرىق المسطفىم)

(1)

وعرفوا الهشهة بأنها التطفىط (2)!!

وقال ابن منظور عن الرته (رتت: الرته، بالضم: عجلة فى الكلام، وقلة أناة، وقيل: هو أن يقلب اللام ياء، وقد رت رته، وهو أرت. أبو عمرو: الرته ردة قبيحة فى اللسان من العيب، وقيل: هى العجمة فى الكلام، والحكلة فىه. ورجل أرت: بىن الرتت. وفى لسان رته. وأرته الله، فرت. وفى حدىث المسور: أنه رأى رجلاً أرت يؤم الناس، فأخره. الأرت: الذى فى لسان عقدة وحبسة، وبعجل فى كلامه، فلا يطاوعه لسانه(3).

فعلى ما قالوه فموسى كان يتحدى بسرعة لا بىبن معها الكلام فلا يطاوعه لسانه معها (أى يتفلى!) وهى ردة قبيحة فى لسانه! وهو يتعنع أى أن يعىا بكلامه وىتردد من عى أو حصر. حتى شَبَّهوا صعوبة إخراج الكلام للمتتع بقولهم (وبه شبه ارتظام الدابة فى الرمل)!! مع إبدال بعض الحروف فى نطقه فتارة ينطق الرء غىنا أو لا ماً! والسىن ثاء! وقيل من الرء الى الياء!

وهذا عند الناس نقص ينظرون معه الى صاحب هذه اللثغة بشىء من السخرىة فى بعض الأحيان، خصوصاً مع القبح فى الرته واللثغة وهو الذى ادعوا وجوده فى موسى عليه السلام!!

ص:34

1- (1) كتاب العىن - الخلىل الفراهىدى - ج 1 - ص 82

2- (2) لسان العرب ج 2 - ص 198

3- (3) لسان العرب - ابن منظور - ج 2 - ص 33-34

ولو قال قائل ان موسى فى النتيجة لم يذهب الثغاً الى فرعون إذ ان الله أجاب سؤاله بحل العقدة، وبالتالي تحققت الحكمة من إرسال رجل مكتمل الخلق لا عيب خلقى فيه؟

قلت:

ان الله اجتبه وأرسله الى فرعون ثم طلب موسى شد الأزر بهارون وحل العقدة وليس العكس.

فهل يكلف الله الرجل برسالة سماوية وهو لا يستطيع تبليغها ام انه سبحانه يختار الأكفأ من جميع الجوانب حتى من ناحية النطق - وهى الوسيلة المعروفة والأسهل للتواصل وإيصال المراد!

والغريب من بعض المفسرين كلما وجدوا حديثاً مروياً فى قصص الأنبياء وجدوا له مكاناً فى الاحتمالات فهذا الزمخشري وبعد ان يبين أن شعيباً عليه السلام هو خطيب الأنبياء يحتمل فى قول المجرمين من الكفرة كونه الثغاً! فقال ناقلاً قول الكفار لشعيب (ما نفقه كثيراً مما تقول) بعد أن جاء بجملته احتمالات ووجه لكلامهم (وقيل كان الثغاً)⁽¹⁾

وقد سأل نبينا عليه الصلاة والسلام، الله ما سأل موسى من حل عقدة اللسان ولم يكن النبي ارتاً ولا الثغاً! روى عن أسماء بنت عميس (رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإزاء بيتى وهو يقول: أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم إني أسألك بما سألك أخى موسى أن تشرح لى صدرى وأن تيسر لى

ص:35

وقد يؤيد الفهم المعنوي لهذا المورد - وإن كان في اتجاه آخر - ما نقله الشيخ الصدوق في علل الشرائع عن الواعظ أبا جعفر الدامغانى فى قوله تعالى وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي أَن موسى كان يعنى (إنى أستحيى ان أكلم بلسانى الذى كلمتك به غيرك، فيمنعنى حيائى منك عن محاوره غيرك، فصارت هذه الحال عقده على لسانى، فاحللها بفضلك، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى معناه: انه سأل الله عز وجل ان يأذن له فى أن يعبر عنه هارون، فلا يحتاج ان يكلم فرعون بلسان كلم الله عز وجل به). (1)

وقد تكون القصة التى تتكلم عن الجمرة والتمرة! من مدسوسات اليهود (الاسرائيليات) وكم لها نظير خصوصاً مع ورودها فى التوراة المحرفة إذ أوردوا ان موسى قال للرب عند الجبل حين اصطفاه الله للرسالة (10) فقال موسى للرب استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا- أول من أمس ولا- من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان. 11 فقال له الرب من صنع للإنسان فما أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب. 12 فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به. 13 فقال استمع أيها السيد. أرسل بيد من ترسل. 14 فحمى غضب الرب على موسى وقال أليس هارون اللاوى أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم. وأيضا ها هو خارج لاستقبالك. فحينما يراك يفرح بقلبه. 15 فتكلمه وتضع الكلمات فى فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان. 16 وهو يكلم

ص:37

فقد يكون هذا النص مصدر ما هو موجود في كتب المسلمين من اللثغة والرثة والههثة... الخ!

والغريب من المفسرين - إلا من شذ - فإنهم لم يولوا لقوله تعالى: قَدْ أُوتِيَ سُلُوكَ يَا مُوسَىٰ بَعْدَ سَأْلِ مُوسَىٰ وَاحْتُلُّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي اى اهتمام فتراهم لما نقل الله قول فرعون عن موسى هذا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ قَالُوا: جِراء اللثغة! وممن قال ذلك:

النحاس: روى سعيد عن قتادة: وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ قَالَ: عبي. وقيل: إنما هذا للثغة التي كانت به. (2)

الثعلبي: لعيته ولعقدته والرثة التي في لسانه (3).

السمعاني: قال أهل التفسير: إنما قال هذا للثغة التي كانت في لسانه، وذلك بما كان بقي في لسانه من العقدة بإلقائه الجمرة في فيه. وقال بعضهم: إنه كان بلسانه لا يمكنه تبين الكلام غاية البيان (4).

قال الطوسي: لا يكاد يبين - وقال الزجاج للثة كانت في لسانه. وقال قتادة: كانت في لسانه آفة - وبه قال السدي. وقيل: إنه كان احترق لسانه

ص: 38

1- (1) كتاب المقدس (العهد القديم) - الكنيسة - ص 92

2- (2) معاني القرآن - النحاس - ج 6 - ص 371

3- (3) تفسير الثعلبي - الثعلبي - ج 8 - ص 339

4- (4) تفسير السمعي - السمعي - ج 5 - ص 109

بالجمر الذى وضعه فى فيه حين أراد أن يعتبر فرعون عقله لما لطم وجهه، وأراد أن يأخذ غير النار فضرب جبرائيل يده إلى النار، فدفح عنه القتل،(1)

الطبرى ينقل معنى كلام فرعون وهو يؤيد كون فرعون يقول بوجود آفة بلسان موسى فيقول الطبرى ناقلا قول فرعون (أنا خير أيها القوم، وصفتى هذه الصفة التى وصفت لكم، أم هذا الذى هو مهين لا شئ له من الملك والأموال مع العلة التى فى جسده، والآفة التى بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟)(2)

وهنا مبحث آخر وهو أن الآيات فى سورة القصص قد تكون قد نقلت جانبا من الحوار الذى دار بين المولى جل وعلا وبين كلمه عليه السلام فموسى عليه السلام دعى ربه فى مورد سورة طه بأمر لم ترد فى مورد سورة القصص، وبقرينة ان موسى لو كان يريد من سؤاله لله مؤازرة هارون ان يكمل به ما يقال من خلل النطق لما كان لقوله عليه السلام (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) مبرر فالمفترض ان هذه الحاجة انتفت بقبول الله سبحانه بمؤازرة هارون لموسى واشراكه فى الرسالة! لكن الاحتمال قائم بان قول موسى عليه السلام بعد طلب الله منه الذهاب الى فرعون:

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) القصص.

وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ

ص:39

1- (1) تبيان - الشيخ الطوسى - ج 9 - ص 207-208

2- (2) جامع البيان - ابن جرير الطبرى - ج 25 - ص 104

أَنْ يُكَذِّبُونَ (34) القصص

قال: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) القصص

فبعد الإجابة السريعة الى ما اراد موسى زاد موسى بالطلب منه سبحانه فقال:

قال رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) طه

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) طه

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) طه

يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) طه

وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) طه

هَارُونَ أَخِي (30) طه

أَشُدُّ بِهِ أَزْرِي (31) طه

وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) طه

كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا (33) طه

وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) طه

إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) طه

فلم يكتف موسى بشد العضد بهارون بل طلب اشراكه فى الرسالة وتوزيعه ولم يكتف بوجود هارون الافصح لسانا معه ليسد الخلل بل طلب

ص:40

حل العقدة اصلا حتى يتولى المهمة كلها بشراكة هارون فقال تعالى:

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) طه.

فليس في آيات سورة القصص اجابة السؤال لكون النص في سورة القصص لم ينقل طلب موسى:

شرح الصدر

ولا تيسير الامر

ولا حل العقدة من اللسان

ولا جعل الوزير من الاهل وهو هارون بالتخصيص

وطلب به شد الازر واشراكه في الامر

فكل هذه الطلبات جاءت في نص سورة طه وليس في نص القصص لذا فالآيات مكملة بعضها لبعض وليس كلها تعيد ذكر الواقعة كما ظن
الم.

ص: 41

(اليوم الآخر) و (الآخرة) و (القيامة) في القرآن

ورد مصطلح (اليوم الآخر) في ثمانية وعشرين مورداً في القرآن، وورد مصطلح (الآخرة) في مئة وخمسة عشر مورداً في القرآن، والمعروف من المفسرين إما عدم تطرقهم للفرق بين هذين المصطلحين لكونهم يظنون أن هذين المصطلحين واضحان بما يكفي، أو قولهم بأن المصطلحين يشيران إلى يوم القيامة ولكن بدون دليل سوى التبادر من المصطلح وما يفهم من السياق، والسياق مفهوم ابتداء! ولكننا سنقوم بدراسة هذين المصطلحين للبرهنة على ذلك أو خلافه.

بعض موارد (اليوم الآخر):

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: 62)

وقوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ

ص: 42

الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأَمَّتْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اُضْطُرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بِنَسِ الْمَصِيرِ (البقرة: 126).

وقوله تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة: 177)

وقوله تعالى: يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّادِقِينَ (آل عمران: 114)

وقوله تعالى: إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (التوبة: 45)

وقوله تعالى: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (الطلاق: 2)

والموارد جميعها تميزت بارتباط اليوم الآخر بالإيمان بالله، وجعل ذلك ميزانا لكثير من الأمور منها:

من آمن بالله واليوم الآخر لن يضيع أجره

من آمن بالله واليوم الآخر يستحق الموعظة لكونه سيعمل بها وذلك لتكامله أخروياً

من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ليس في قلبه احترام للنبي وهو متردد في شكه

الإيمان بالله واليوم الآخر من شعار الصالحين

الإيمان بالله واليوم الآخر من صفات أهل البر

الإيمان بالله واليوم الآخر يجع صاحبه مستحقاً لدعاء الأنبياء

وبالتالي فلا انفكاك بين الإيمان بالله واليوم الآخر فكل من يؤمن بالله يجب أن يؤمن باليوم الآخر والظاهر أن الارتباط تكويني. فمن يؤمن بالرب الخالق يؤمن بالرب العادل الذي يحاسب عباده الذين خلقهم على أعمالهم الحسنة والقييحة.

موارد (الآخرة):

كقوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (البقرة: 114)

وقوله تعالى:

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ

ص:44

كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت: 64)

وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (آل عمران: 77)

وقوله تعالى:

وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (البقرة: 130)

وقوله تعالى:

فَإِذَا قُضِيَ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (البقرة: 200)

وقوله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (البقرة: 201)

وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا لَهُمْ عَذَابٌ

ص: 45

أَلِيمٌ (آل عمران: 77)

وقوله تعالى:

وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران: 85)

وقوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَاءَ نَجْزِي الشَّاكِرِينَ (آل عمران: 145)

وقوله تعالى:

فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران: 148)

وقوله تعالى:

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران: 152)

وقوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا

ص:

كَانُوا يَعْمَلُونَ (لأعراف: 147)

وقوله تعالى:

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (القلم: 33).

والملاحظ هنا:

كون الدنيا في قبال الآخرة

إن الآخرة ارتبطت بالعذاب فقط وأما عذاب الدنيا فمن نوع آخر

الآخرة ارتبطت بلقاء الله

إن الآخرة فيها جزاء حسن وجزاء غير حسن

إن الآخرة حياة كحياة الدنيا ولكنها بخصائص أخرى

من خلال خصائص اللفظين (اليوم الآخر - الآخرة) واستقراء الآيات الشريفة يظهر أن اليوم الآخر هو الفترة الممتدة من مشاهدة العالم الآخر، وذلك بعد الموت، والى ما لا نهاية، وفي جزء منه ستكون الآخرة، وهي إما النار وإما الجنة، قال تعالى:

وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (الأنعام: 93)

فاليوم أى فى (يوم الموت) يحل العذاب عليهم وهو عذاب البرزخ

ص: 47

وسيمتد إلى الآخرة في جهنم، وهذا ما يفسره قوله تعالى:

وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌّ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت: 64)

فالخلود (وهو الحيوان هنا) إما في الجنة وإما في النار وكلاهما في الآخرة

لذا فقد ورد مصطلح (الآخرة) ومصطلح (يوم القيامة) كمصطلحين متغايرين وفي نصوص متقاربة كقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (آل عمران: 77)

فيوم القيامة والآخرة هما فترتان زمنيتان متغايرتان.

لذلك ارتبط (اليوم الآخر) بالإيمان بالله لكونه يمثل الإيمان بالغيب والحياة بعد الموت، وهو أقوى موازين الإيمان إلا دليل حسى عليه، وإنما يؤمن به ملازم للإيمان بالنبوت.

(الذين كفروا) و (الكافرون) و (الكافرون حقا) فى القرآن

ورد مركب (الذين كفروا) فى مئة وأربعة وتسعين موردا فى القرآن، وورد مصطلح (الكافرون) فى مئة وتسعة وعشرين موردا، وورد مركب (الكافرون حقا) فى مورد واحد فقط.

من موارد ذكر الذين كفروا قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقرة: 6).

وقوله تعالى:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (البقرة: 89).

وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاتُّوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ

وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (البقرة: 161).

وقوله تعالى:

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَخَرْتُكِ وَإِلَىٰ مَطَهَّرَكِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (آل عمران: 55).

وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (آل عمران: 90).

من هنا يتضح إن الذين كفروا هم أناس من المشركين ومن النصارى واليهود كانوا يناصبون الإسلام العدا، وهم مجموعة متميزة بصفات تفوق غيرهم من غير المؤمنين فهم قد يكونوا مجموعة من غير المؤمنين وهم الملائكة فيهم، وكذلك هم مجموعة من اليهود وهم الملائكة فيهم، وهم مجموعة من النصارى وهم الملائكة فيهم، فقوله تعالى:

مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (البقرة: 105).

واضح في نسبة هذه الصفة إلى مجموعة من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين وهم أهل مكة في الأساس.

ص:

وقوله تعالى:

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (الحشر: 2).

واضح فى كون (الذين كفروا) طائفة من اليهود فى المدينة وليس كلهم.

وقوله تعالى:

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَخَرْتُكِ وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى قَوْمِكَ كَلِّمِي فِي قَوْلِي لَهُمْ وَقُلْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبِّي أَسْفَلُ الْمَوَازِينِ فَاسْتَجَبَ لَهُمْ وَرَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِينَ فِيهَا رَبَّنَا لِئَلَّا يَتَذَكَّرَ فِيهَا مَن يَتَذَكَّرُ رَبَّنَا إِنَّ فِيهَا لَأَكْثَرَ الْفَاسِقِينَ (آل عمران: 55).

تخص الملام المعادين لعيسى عليه السلام فى زمانه من اليهود.

و (الذين كفروا) نفر معروف بالوجهة والمال والسلطة فى زمانهم، قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (آل عمران: 10).

و لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُضِلُّهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُضِلُّهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (آل عمران: 178).

وهؤلاء (الذين كفروا) كانوا يتصدون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

ص: 51

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (الأنعام: 7).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (الأنعام: 25).

وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (الكهف: من الآية 56).

وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (مريم: 73).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نُنْطَعِمَ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (ي - س: 47).

وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (الاحقاف: 7).

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (الانبيا: 30).

وأنت تجد في القرآن ان سبحانه وتعالى استعمل مركب (الذين كفروا) دائما مع المجادلين والمستهزئين والمكذبين أولى الشأن في مجابهة الأنبياء.

و (الذين كفروا) كانوا يترصدون المسلمين ويعدون لهم العدة ويمكرون طوال فترة البعثة قبل انتصار الإسلام حتى تم تنصيب أمير المؤمنين عليه السلام فقال الله فيهم:

الْيَوْمَ يَنسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة: من الآية 3).

لذا ولما كان ملاً قريش يتشاورون في ما يجابهون النبي صلى الله عليه وآله وسلم به من الأسر أو القتل أو النفي انزل الله على رسوله:

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (أنفال: 30)

ولما كان إخراج النبي من مكة بسبب هؤلاء الملاء قال تعالى:

إِلَّا تَنْصَرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَآيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة: 40)

ف - (الذين كفروا) هم شر الخليقة عند الله لكونهم السد الذي يمنع الناس من الهداية عند مبعث كل نبي:

إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنفال: 55).

لذا فسيكون توفيقهم مختلفاً عن باقى الخلق:

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (الأنفال: 50).

أما (الكافرون) فى القرآن فكما فى:

قوله تعالى:

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوُا اللَّهَ وَاحْشَوْنَ وَلَا تَسْتُرُوا بِآيَاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة: 44).

وقوله تعالى:

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (يونس: 2).

وقوله تعالى:

يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (يوسف: 87).

وقوله تعالى:

ص: 54

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (العنكبوت: 47).

فالكافرون هم طبقة ومجموعة من الناس قد أوغلوا في صفات الجحود أو الإنكار والمحاربة للإسلام وان كانت صفاتهم موجودة في جاحدى أديان ما قبل الإسلام، وهم قد وصلوا درجة التكامل في التسافل فهم لا يزدادون كفراً مثل (الذين كفروا) لكونهم قد بلغوا قمة الكفر في ذلك، وقد يكون كفرهم مستقراً لكونه عن تقليد وليس عن اجتهاد في ذلك فهم يتبعون (الذين كفروا) في ذلك.

وأما (الكافرون حقاً) فكما في قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا
(150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا النساء 150-151

فسبحانه عبر عنهم بأنهم (يكفرون) وهو فعل مضارع يفيد الاستمرارية، فهم مستمرين وعلى الدوام بما يفيد الكفر، بل ويتبعون سبلاً خبيثة في محاولة خداع الناس فيدعون إيمانهم ببعض ما انزل ويدعون بعضاً ويوهمون الناس باتباعهم، فهم (كافرون حقاً) بذلك.

ص: 55

مفهوم (الكتاب) فى القرآن

قد يفاجأ القارئ إذا تساءلنا: هل أن مصطلح (القرآن) يساوى مصطلح (الكتاب) من حيث الدلالة؟! وما الدليل لو كان الجواب بالإيجاب؟! فى الحقيقة ليس هناك دليل على ذلك، بل الدليل قائم على خلافه! والملفت للانتباه أن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ارتبطت ب - (الكتاب) ولم تأت مع (القرآن) إلا مرة واحدة، وهذا من أكثر الأشياء وضوحاً فى القرآن.

ومعنى الكتاب قد يفهم من خلال المصطلح القرآنى وليس من خلال معاجم اللغة ويمكن أن نُجمل الفرق بين القرآن والكتاب من خلال تأملات قرآنية تبين ذلك، منها:

إن الكتاب جاء مرتبطاً بالحروف المقطعة فى بداية السور غالباً وهذا لم يأت مع القرآن إلا نادراً:

ص:56

كقوله تعالى:

الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (البقرة 1-2).

وقوله تعالى:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (يونس - 1).

وقوله تعالى:

الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود 1).

وقوله تعالى:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (يوسف - 1).

وحتى قوله سبحانه:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (الحجر - 1).

فما الدليل على كون تلك الآيات هي الآيات القرآنية؟! خصوصاً مع ذكر (القرآن) بعدها مباشرة، مما قد يشير إلى كون الآيات الكتابية هنا تشير إلى الآيات الآفاقية.

إن لفظة (قرآن) بهيئتها موجودة في القرآن بما يقرب من خمسين مورداً، أمّا لفظ الكتاب بهيئته فموجود في القرآن بما يقرب من ثلاثمائة مورد وليس هناك من قرينة تثبت أن اللفظين لهما معنى واحداً.

إن الكتاب جاء مرتبطاً بموسى ومن الواضح أن موسى لم ينزل عليه القرآن!! كقوله تعالى:

ص: 57

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (البقرة: 53).

وقد وردت هذه الآية مكررة في القرآن لعشر مرات! و (الكتاب) هنا هو نفس (الكتاب) في كل القرآن، ومن يدع غير ذلك فعليه إعطاء الدليل.

إن الكتاب جاء مرتبطاً بייحيى عليه السلام ومن المعروف أن يحيى عليه السلام لم ينزل عليه القرآن:

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (مريم: 12).

إن عيسى لم ينزل عليه القرآن ومع ذلك نزل عليه الكتاب في قوله تعالى:

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ (آل عمران: 48).

وقوله تعالى:

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (مريم: 30).

ولو كان (الكتاب) هو (القرآن) لم يصف الله اليهود والنصارى بقوله:

وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَبَدَّ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (البقرة:

101)

وقوله تعالى:

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (البقرة: 144).

ص: 58

وقوله تعالى عن اليهود: أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (البقرة: 44).

وعن النصارى:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ (البقرة: من الآية 113).

فهل كانت اليهود والنصارى تتلوا القرآن؟!

لو كان الكتاب هو القرآن لم يأت الكتاب والقرآن متعاطفين في القرآن فالأصل أن العطف يقتضى التغاير:

كقوله تعالى:

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (النمل: 1).

وقوله تعالى:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (الحجر: 1).

إنه سبحانه استعمل (الإتيان) غالبا مع الكتاب و (الإنزال) غالبا مع القرآن وهذا وجه للتفريق كما قال تعالى عن الكتاب:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (البقرة: 121).

وقوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة: 146).

ص: 59

وقوله تعالى:

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَا يَقْدَرُ عَلَيْهَا فَكَلَّمْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام: 89).

وقوله تعالى:

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبُ (الرعد: 36).

وقوله تعالى:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (القصص: 52).

أما استعمال الإنزال والتنزيل مع القرآن فكما في قوله تعالى:

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ (البقرة: من الآية 185).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن شَيْءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوِئَةً وَأِنْ لَمْ يَتَبَدَّلْ لَكُمْ تَسْوِئَةً أَلَا خَسَارًا (الاسراء: 82).

وقوله تعالى:

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (الاسراء: 82).

ص: 60

وقوله تعالى:

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (ط - ه: 2).

وقوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (الفرقان: 32).

وقوله تعالى:

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ (الزخرف: 31).

وقوله تعالى:

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر: 21).

وقوله تعالى:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (الإنسان: 23).

وقد يكون استعمال التنزيل أو الإنزال مع (الكتاب) يفيد أن (الكتاب) في ذلك المقطع له نفس معنى (القرآن) في حالة اقترانه بأحد هذين اللفظين كما قال تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (البقرة: 176).

ص: 61

وقوله تعالى:

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (آل عمران: 3).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَ
الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (النساء: 136).

وقوله تعالى:

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدُّوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ (النساء: من الآية
140).

فالكتاب هنا وبقرينة الإنزال أو التنزيل هو القرآن نفسه بقريضة السياق واستعمال الألفاظ التي ترد مع القرآن وكونه متناولاً- بيد غير
المعصومين.

إنه سبحانه ذكر أنه (يسر القرآن للذكر) ولم يذكر ذلك مع (الكتاب) كما في قوله تعالى:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (القمر: 17).

وقوله تعالى:

ص: 62

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (القمر: 22).

وقوله تعالى:

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (القمر: 32).

وقوله تعالى:

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (القمر: 40).

ذكر سبحانه (التبيين) مع (الكتاب) ولم يأت به (مع القرآن) إلا نادراً كما في قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (البقرة: 159).

وقوله تعالى:

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (النحل: 89).

وقوله تعالى:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (المائدة: 15).

وقوله تعالى:

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (النمل: 1).

إن (الكتاب) ارتبط بالحساب في يوم القيامة ولم يرتبط (القرآن)

بذلك، كما فى قوله تعالى:

وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (الكهف: 49).

وقوله تعالى:

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (الاسراء: 14).

وقوله تعالى:

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (الاسراء: 71).

وقوله تعالى:

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ (الحاقة: 19).

وقوله تعالى:

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ (الحاقة: 25).

وقوله تعالى:

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (الانشقاق: 7).

وقوله تعالى:

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (الانشقاق: 10).

ص: 64

ارتبط (الكتاب) ب - (التسطير) ولم يأت ذلك مع القرآن:

كقوله تعالى:

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (الاسراء: 58).

وقوله تعالى:

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَجْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (الأحزاب: 6).

وقوله تعالى:

وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (الطور: 2)

إن الصفات التي جاءت مع القرآن هي:

الحكيم - ذو الذكر - مبين - مجيد - كريم - عربي

والصفات التي جاءت مع الكتاب هي:

هدى للمتقين - تماما - لا ريب فيه - مستبين - حفيظ - مكنون

وهذا فرق واضح في الأعم.

وصفة الاكتنان جاءت مع الكتاب فقط بما يفيد الفرق القويّ بينه وبين القرآن.

جاء (ذلك) و (تلك) مع الكتاب وخصوصا في موارد الأحرف المقطعة

ص: 65

و (هذا) مع القرآن كما فى قوله تعالى:

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (البقرة: 2).

وقوله تعالى:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (يوسف: 1).

وقوله تعالى:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (الرعد: 1).

وقوله تعالى:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (يونس: 1).

وقوله تعالى:

قُلْ أَى شَىءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنَى وَبَيْنِكُمْ وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَن بَلَغَ (الأنعام: من الآية 19).

وقوله تعالى:

وَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللّهِ (يونس: من الآية 37).

وقوله تعالى:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ (يوسف: من الآية 3).

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (الاسراء: من الآية 9).

وقوله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (الاسراء: 41).

وهنا سيكون الجانب الأهم فإذا لم يكن الكتاب هو القرآن فماذا يكون؟!

إن الذي يتأمل لفظ الكتاب والمجموعات البشرية التي ارتبطت به من الممكن أن يقسمها إلى المجموعات التالية:

الأنبياء أو مجموعة (الذين آتاهم الله الكتاب):

مثل النبي يحيى: في قوله تعالى:

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (مريم: 12).

وعيسى: في قوله تعالى:

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (مريم: 30).

وموسى: وقوله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّبُورَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (الجاث - ية: 16).

وقوله تعالى:

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

ص: 67

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّوْبَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ (الأنعام: 85-89).

وقوله تعالى:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (البقرة: 121).

وقوله تعالى:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة: 146).

وقوله تعالى:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام: 20).

وقوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (الأنعام: من الآية 114).

وقوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبٍ

ص: 68

(الرعد: 36).

وقوله تعالى:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (القصص: 52).

وقوله تعالى:

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (العنكبوت: 47).

وهذه المجموعة ممدوحة في القرآن، لكونهم من كَمَل المؤمنين.

ومجموعة (الذين أوتوا الكتاب) بالمبنى للمجهول:

مثل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمُ لَا يَعْلَمُونَ (البقرة: 101).

وقوله تعالى:

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (البقرة: 145-144)

وقوله تعالى:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ

ص: 69

ما جاءهم العلم بغيا بينهم (آل عمران: من الآية 19).

وهذه المجموعة مذمومة في القرآن إلا إذا وردت مع نبيها فهي غير مشمولة بهذا الحكم، والذي يظهر من التأمل في خصوصياتهم وكونهم قد (أوتوا الكتاب) أنهم قد يكونوا علماء اليهود والنصارى دون عامتهم وهذا فرقتهم عن (أهل الكتاب) وهم قد يكونوا عامتهم، ومما يشهد لذلك، قوله تعالى:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (آل عمران: 19).

فهؤلاء الذي (أوتوا الكتاب) قد جاءهم العلم وهم ليسوا كل الناس.

وقوله تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ (آل عمران: 187).

فهؤلاء (الذين أوتوا الكتاب) عندهم علم لم يبينوه للناس بل نبذوه وراء ظهورهم.

ومجموعة (أهل الكتاب): كقوله تعالى:

مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (البقرة: من الآية 105).

وقوله تعالى:

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ (البقرة: من الآية 109).

وقوله تعالى:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (آل عمران: 71).

وقوله تعالى:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (آل عمران: 98).

وقوله تعالى:

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (النساء: من الآية 153).

وقوله تعالى:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (آل عمران: 65).

وهم مذمومون في القرآن بالمجموع إلا ما استثني.

ومجموعة (الذين أوتوا نصيباً من الكتاب) كما في:

قوله تعالى:

ص: 71

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (آل عمران: 23).

وقوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (النساء: 44).

وقوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (النساء: 50).

وهم مذمومون في القرآن.

من كل ذلك نستنتج أن (الكتاب) خلق موجود، وظيفته حفظ كل ما يكون في الكون مما جرى به قلم القدرة، وفيه ما سيكون من علم الله المتصل بالخلق، وفيه مفاتيح ما نحسبها غوامض ومعجزات، ومنه استمد الأنبياء علمهم بالتصرف في الطبيعة ومخالفة المجبول عليه من تصرف الأمور كإحياء الموتى مثلاً وتكليم الجوامد والطيور وعلم بعض الغيب.

والظاهر أن مفتاح البحث يكمن في أربع آيات وهي:

الأولى: قوله تعالى:

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (الإسراء: 4).

ص: 72

الثانية: قوله تعالى:

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (الإسراء: 58).

الثالثة: قوله تعالى:

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (الرعد: 43).

الرابعة: قوله تعالى:

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَعْزِزًا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (النمل: 40).

إذ تكشف الآيتان الأولى والثانية إن كتاب الله هو كتاب التكوين وصفحة القضاء الإلهي الذي يحوى كل العلوم المعروفة وغير المعروفة والمستقبل.

ويثبت ذلك الآية الثالثة والرابعة إذ أنها تقسم الناس إلى من عنده علم من الكتاب والذي عنده علم الكتاب.

فإذا كان (الذي عنده علم من الكتاب) قد قام بما أمره به سليمان تجاه بلقيس وهو ما قصه القرآن بقوله:

ص: 73

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) (النمل 38-40).

فما الذى من الممكن ان يقوم به (الذى عنده علم الكتاب) كله مما قصه علينا تعالى فى قوله:

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (الرعد: 43).

والذى جاء فى الروايات المتواترة أنه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب عليه السلام(1).

فلو حسبنا المسافة من القدس مقر النبى سليمان عليه السلام إلى سبأ (مملكة سبأ ما بين 800 الى 115 ق. م) مقر حكم الملكة بلقيس لكان التالى:

قال تعالى ناقلا قول النبى سليمان:

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ

ص:74

1- (1) تفسير العياشى - ج 2 - ص 220 / تفسير القمى - ج 1 - ص 367 / تفسير الثعلبى - ج 5 - ص 303 شواهد التنزيل - الحاكم الحسكاني - ج 1 - ص 400 / أحكام القرآن - ابن العربى - ج 3 - ص 86 زاد المسير - ابن الجوزى - ج 4 ص 252

عَفْرِيتٌ مِنَ الْجِنَّ أَتَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ النمل 38-40.

فقول (الذي عنده علم من الكتاب) والذي ورد انه وصيه بالنبوة (أصف بن برخيا): أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ.

يفيد ان لديه القدرة الهائلة على اختزال الزمن والمسافة ليقوم بجلب هذا العرش من هذه المسافة البعيدة وبوقت لا يبلغ طرف العين، ولما كانت عملية النظر تتم بسرعة الضوء أى ان الجسم يرى بعد فتح العين بمسافة ارتداد الضوء من الجسم الى العين فيتم رؤيته، فلو كانت المسافة بين عرش سليمان ومكان هذا المتكلم 3 متر فسينتج:

السرعة المطلوب استخراجها (س) = المسافة / الزمن

يتم تحويل الكيلو متر الى متر = $300,000,000 = 1000 * 300,000$ م/ث

س = 3 متر / $100,000,000/300,000,000 = 1$ ثانية!!

أى أن سرعة هذا الرجل أقل من جزء من مئة مليون جزء من الثانية وهي سرعة رهيبه لا يمكن تصورها. فكيف وهو قد قال لسليمان (قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) أى قبل هذا الوقت!!

ص:75

ولكون آصف بن برخيا كان يعلم حرفا واحدا من الاسم الأعظم كما جاء في الحديث (عن أبي عبد الله عليه السلام قال إن اسم الله الأعظم على اثنين وسبعين حرفا وإنما كان عند آصف كاتب سليمان وكان يوحى إليه حرف واحد ألف أو واو فتكلم فانخرقت له الأرض حتى التفت فتناول السرير، وإن عندنا من الاسم أحدا وسبعين حرفا وحرف عند الله في غيبه)(1).

على هذا فلو قلنا:

$$1/1 = 71 * 100,000,000 / 7,100,000,000 \text{ من الثانية!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!}$$

وهنا ممكن أن نفهم قوله تعالى:

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) الواقعة 77-79.

فالقُرآن موجود في الكتاب المكنون عند الله، ولكن يمكن للمطهرين فقط أن يمسه، والمطهرون هم من نزلت فيهم الآية الكريمة:

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (الأحزاب: من الآية 33).

ص:76

مثلث (الذين آمنوا) و (المؤمنون) و (المؤمنون حقاً) في القرآن

جاء لفظ (المؤمنون) و (المؤمنات) مجتمعين أو كل على حدة في مئتي مورد في القرآن، وجاء مركب (المؤمنون حقاً) في موردين، بينما جاء مركب (الذين آمنوا) في مئتين وثمانية وخمسين مورداً، والذي يظهر للمتدبر أن هناك اختلافاً واضحاً في استعمال هذه المركبات والمصطلحات في القرآن، فمثلاً لو أتينا على (المؤمنون) و (المؤمنات) فسنرى:

قوله تعالى:

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (آل عمران: 122).

وقوله تعالى:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْأَلُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

ص: 77

رَحِيمٍ) (النور: 62) وقوله تعالى: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (الأحزاب: 22) وقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات: 15).

وقوله تعالى:

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5)..... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) (المؤمنون 1-9).

إذا ارتبط (المؤمنون) بالتوكل في عدة مواضع من القرآن، يقول الله عن المتوكلين عليه:

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (الطلاق: 3).

فما ظنك بمن يجتبيه الله ويكون هو المدافع عنه!؟

ونحن نرى من صفات المؤمنين في الآيات سابقة الذكر:

إنهم متوكلون على الله

إنهم يرجعون في كل شأنهم للنبي ويستأذنون به بذلك

إنهم يزدادون إيماناً وتصديقاً في المواقف الصعبة

من علامات تصديقهم أنهم يبذلون أموالهم وأنفسهم ولا يرتابون من

ص: 78

بعد ذلك:

خاشعون في صلاتهم

مُعْرِضُونَ عَنِ اللَّغْوِ

لِلزَّكَاةِ فَاعْلُونَ

حافظون لفروجهم

يراعون العهد والأمانة

يحافظون على الصلاة

وجزاء هؤلاء أنهم:

يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (المؤمنون: 11).

فهم يخلدون في جنة الفردوس

أما (الذين آمنوا):

فهم ممدوحون بشروط وقيود معينة، مع كثرة ورود النصيحة والتوجيه دون المدح المطلق في القرآن وهذا ما يميزهم عن (المؤمنين) كما في قوله تعالى:

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أُنزِلَ بِهِ مِثْلَهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: 25).

وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: 62).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البقرة: 104).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة: 153).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (البقرة: 172).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ
وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البقرة: 178).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

ص:

مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة: 183).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (البقرة: 208).

وقوله تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبُاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة: 214).

وقوله تعالى:

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَرِهَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة: 249).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (البقرة: 254).

وقوله تعالى:

ص:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (البقرة: 267).

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ (البقرة: 282).

وقوله تعالى:

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (البلد: 17).

وقوله تعالى:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (العصر: 3).

وأنت تلاحظ في هذه الآيات:

إن الذين آمنوا اشترط عليهم العمل بالصالحات مرة

والتواصى بالصبر والمرحمة مرة أخرى

والتواصى بالحق والصبر مرة ثالثة

الاستعانة بالصبر والصلاة مرة رابعة

والإيمان بالله واليوم الآخر مرة خامسة

ص: 82

اشترط لمدحهم أن يكونوا مع الأنبياء وليس لوحدهم مما يجعلك تعلم بأنهم قد لا يستقيمون بعدهم.

أكثر التوجيهات الأخلاقية والأحكام الشرعية والاستعتاب فهو موجه اليهم دون سواهم

من هنا ف - (الذين آمنوا) قد يكونون أناس لم يبلغوا درجة (المؤمنون) لذا احتاجوا لكل هذه النصائح والتعليمات.

أما المؤمنون حقاً فقد ورد ذكرهم في القرآن لمرتين:

في قوله تعالى:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) (الأنفال 2-4).

وقوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوُوا وَ نَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (لأنفال: 74).

من هنا فصفات هؤلاء المؤمنون حقاً هي:

توجل قلوبهم عند ذكر الله

يزدادون إيماناً عند تلاوة آياته عليهم

متوكلون بشكل مطلق عليه

ص: 83

دخل الإيمان في قلوبهم في سبيل الله

هاجروا في سبيل الله

جاهدوا في سبيل الله

أووا في سبيل الله نصرنا النبي والمهاجرين في سبيل الله

وهذه صفات يجمعها قولنا أنهم مخلصون ومؤمنون وهو أرقى درجات الإيمان.

لذا فما قيل من كون (المراد بالذين كفروا مشركوا مكة الذين أبدوا الكفر أول مرة بالدعوة الحقة، وبالذين آمنوا المؤمنون بها أول مرة) (1) لا يستقيم وفق المنهج القرآني، لكون الذين آمنوا أول مرة فيهم كبار المؤمنين كأبي ذر وسلمان وحذيفة وسيدهم علي بن أبي طالب عليه السلام وخديجة وأبو طالب وغيرهم فكيف يكون كل هذا العتاب موجه إليهم؟! خصوصاً مع كون (الذين كفروا) ليسوا مشركين فقط، أو من الذين كفروا في بداية الدعوة فقط، إذ أن فيهم اليهود والنصارى ممن كانوا قبل الإسلام، كما قال تعالى:

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَوَيْتُكَ وَرَافَعَكَ إِلَيَّ وَ مَطَّهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (آل عمران: 55).

ص: 84

على أن هناك تقريبا بين (الذين آمنوا) من جهة و (الذين آمنوا معه) من جهة أخرى، إذ أن المجموعة الثانية مع النبي صلى الله عليه وآله، وبالتالي تكون قريبة من مجموعة (المؤمنون) كما قال تعالى:

وقوله تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة: 214).

وقوله تعالى:

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة: 249).

وقوله تعالى:

لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (التوبة: 88).

وقوله تعالى:

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ

عَلِيْظٍ (هود: 58).

وقوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيْزُ (هود: 66).

وقوله تعالى:

وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (هود: 94).

وقوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (غافر: 25).

وهذا تجده جلياً في قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ائْتِمْنَا لَنَا نُورًا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التحریم: 8).

ففرق سبحانه بين ابتداء الكلام فقال (الذين آمنوا) وبين المجموعة التي وردت بعد ذلك فقال (الذين آمنوا معه)، والمجموعة الأخيرة قد تكون مستثناة من (الذين آمنوا) وقريب من منزلة (المؤمنين).

ص: 86

لذا فنقرأ قوله تعالى:

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ .

ففرق تعالى بين المصطلحين فالنبي عليه الصلاة والسلام يؤمن للمؤمنين لكنه رحمة للذين آمنوا!

وما هذا الاختلاف الا لاختلاف مستوياتهم وبالتالي درجة استفادتهم من وجود النبي عليه وآله الصلاة والسلام بينهم.

ص:87

(المتقون) فى القرآن

(المتقون) هو مجموعة مؤمنة لها صفات محددة تشترك ببعضها مع غيرها وتفترق بأخرى، ومن صفاتهم فى القرآن:

فى قوله تعالى:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة: 177).

وقوله تعالى:

وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (الزمر: 33).

وقوله تعالى:

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ

ص: 88

لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (البقرة: 180).

وقوله تعالى:

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (البقرة: 241).

وقوله تعالى:

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (آل عمران: 76).

وهذه الصفات القرآنية هي:

الإيمان بالله

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالكتاب

الإيمان بالأنبياء

الصدقة على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين

تحرير العبيد

إقامة الصلاة

إيتاء الزكاة

الوفاء بالعهد

الصبر فى البأساء والضراء

ص:

الصبر فى الحرب

قول الصدق

الوصية حين الموت

دفع حقوق الناس

وجزاء من يفعل هذه الأمور هو:

تقبل أعمالهم: كما قال تعالى:

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَفْتُنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (المائدة: 27).

أن يحبهم الله: كما قال تعالى:

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسِّدِ الْحَرَامِ فَمَا اسَّ تَقَامُوا لَكُمْ فَاسَّ تَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (التوبة: 7).

ومن مميزاتهم: أنهم يحشرون الى الله فى موكب مهيب يوم القيامة:

كما قال تعالى:

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (مريم: 85).

وأنهم: لا يصيبهم ما يصيب الناس فى يوم القيامة من رعب يجعلهم لا يعرفون أحبائهم: كما قال تعالى:

الْأَحْيَاءُ يَوْمَئِذٍ بِعَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (الزخرف: 67).

ص: 90

ويكونون في مرتبة ومكان رفيع المقام:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (الدخان: 51).

وَأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُمْ وَمُجْتَبِيهِمْ: كما قال تعالى:

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (الجمعة: 19).

وسيمتعهم الله في جنات ظليلة وفيها عيون كثيرة وأنهار ونعيم دائم:

كما قال تعالى:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (المرسلات: 41).

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (القمر: 54).

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (الطور: 17).

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (الذريات: 15).

لذا كان حقا على الله أن يرغب العاملين بمقام هؤلاء الرفيع في الجنة بقوله:

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (محمد: 15).

المتنازعون في سورة الكهف والبعد العقائدي

قال تعالى في قصة أصحاب الكهف:

إِذِ يْتَنَزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (الكهف: من الآية 21).

ذهب أغلب المفسرين الى كون الطرفين المتنازعين في هذه الآية طرف مؤمن وهو الأول، وطرف كافر وهو الثاني، وخالف الطبرى فقال إن الأمر يحتمل الخيارين، أى أنه من الممكن أن يكون أصحاب الرأى ببناء البنيان مؤمنين أو كافرين، وأصحاب الرأى ببناء المسجد كذلك، والحقيقة أنى لم أجد عند المفسرين من تكلم عن قرينة قرآنية واضحة فى المقام تؤدى الى ترجيح القول ب - إيمان أو كفر أحد الطرفين، مما يوحى بأنهم اعتمدوا فى ذلك على ما ورد من روايات وأغلبها عن اليهود الذين (أسلموا)! نعم للسيد الطباطبائى رأى سنورده فى نهاية البحث، والجدير بالملاحظة إن الطرفين المذكورين فى هذه

ص:92

الآية لم يختلفا في أصل البناء على قبور أصحاب الكهف، إنما كان الرأي: أنبنى بنياناً أم مسجداً؟ نعم ناقش البعض بكون الآية تخص ديناً منسوخاً وشريعةً غابرة، وليس من دليل على أنها تشملنا، خصوصاً مع وجود روايات دالة على عدم جواز بناء المساجد في شريعتنا، منها ما رواه الشيخ الحر العاملي في كتابه الجليل وسائل الشيعة وقد أورد العاملي الروايتين تحت عنوان (باب كراهة بناء المساجد عند القبور) فقال: (محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن سماعة بن مهران أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن زيارة القبور وبناء المساجد فيها، فقال: أما زيارة القبور فلا بأس بها، ولا يبنى عندها مساجد.

ورواه الكليني عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن عثمان بن عيسى، عن سماعة قال: سألته، وذكر مثله. قال: وقال النبي صلى الله عليه وآله: لا تتخذوا قبور قبلى ولا مسجداً، فإن الله لعن اليهود حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(1).

وقد ورد عند أهل السنة مثل ذلك إذ أورد البخارى في صحيحه تحت عنوان (باب: هل تنبش قبور مشركى الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد لقول النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وما يكره من الصلاة فى القبور ورأى عمر أنس بن مالك يصلى عند قبر فقال القبر القبر ولم يأمره بالإعادة) فقال (حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا

ص:93

يحيى عن هشام قال أخبرني أبي عن عائشة إن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا ذلك للنبي صلى الله عليه - وآله - وسلم فقال إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تيك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة(1).

وأورد في باب الجنائز عن عائشة إن النبي قال في مرضه الذي مات فيه (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدا)(2).

وفي الحقيقة فهناك موضوعان في هذه الأحاديث:

الموضوع الأول: وهو دلالة الأحاديث:

فأما الحديثين اللذين أوردهما العاملي فالذى قد يظهر منهما أن الكراهة التي قصدتها كراهة التحريم لا كراهة التنزيه، لكون موضوع الحديثين واحد ولكون اللعن متجه إلى من يفعل ذلك، واللعن هو الطرد من رحمة الله ومن الواضح إنه لا يمكن أن نقول على من يخالف الأولى بأنه ملعون مع عدم وجود القرينة الصارفة عن الحرمة! ولكن بعض الفقهاء لما رأوا أن التحريم لا يتلائم مع إجماع الطائفة على البناء على القبور بلا- اختلاف عندهم ذهبوا على القول بالكراهة، كما قال النراقي(3) (والنهي فيهما وإن كان حقيقة في التحريم إلا أنه يحمل فيهما على الكراهة لئلا يلزم استعمال اللفظ في

ص:94

1- (1) صحيح البخارى - البخارى - ج 1 - ص 110-111

2- (2) صحيح البخارى - البخارى - ج 2 - ص 90-91

3- (3) مستند الشيعة - المحقق النراقي - ج 4 - ص 436

معنييه... مضافاً إلى عدم قول بالحرمة هنا قطعاً. وبه يُدفع دلالة النهي عن جعل القبر مسجداً عليها أيضاً مع إمكان حمله على جعله محل السجدة للقبور).

وقول الشيخ الحائري (1) (وعن البعض تقوية الحرمة... وتقييد بعض الصحاح النافية للباس عن الصلاة بين القبور بما إذا لم يكن إليها، وفيه إنه إخراج للفرد الغالب كما لا يخفى، فالأولى الحمل على الكراهة لمكان بعض الصحاح النافية للباس عن الصلاة بين القبور مطلقاً، بقى هنا إشكال وهو أن النهي عن الصلاة إلى القبور سواء حملناه على التحريم أم على الكراهة ينافي الأخبار المستفيضة الآمرة بالصلاة خلف قبور الأئمة عليهم السلام...) الخ وهو واضح في كون الأخبار تحتمل الحرمة لولا وجود الأخبار المعارضة لها لذا حملت على الكراهة لهذا السبب فقط!.

وقال الشهيد الأول (روى الصدوق عن سماعة، إنه سأله (عليه السلام) عن زيارة القبور وبناء المساجد فيها، قال: (زيارة القبور لا بأس بها، ولا يبنى عندها مساجد). قال الصدوق: وقال النبي (صلى الله عليه وآله): (لا تتخذوا قبري قبلة، ولا مسجداً، فإن الله تعالى لعن اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). قلت: هذه الأخبار رواها الصدوق والشيخان وجماعة المتأخرين في كتبهم، ولم يستثنوا قبراً، ولا ريب أن الإمامية مطبقة على مخالفة قضيتين من هذه: إحداهما البناء، والأخرى الصلاة، وتأنك ما في المشاهد

ص: 95

المقدسة. فيمكن القدح في هذه الأخبار لأنها آحاد، وبعضها ضعيف الإسناد، وقد عارضها أخبار أشهر منها، وقال ابن الجنيد: لا بأس بالبناء عليه، وضرب الفسطاط يصونه ومن يزوره. أو تخصص هذه العمومات بإجماعهم في عهد كانت الأئمة ظاهرة فيهم وبعدهم من غير نكير، وبالأخبار الدالة على تعظيم قبورهم وعمارتها وأفضلية الصلاة عندها، وهي كثيرة منها.... الخ(1)

فالشهيد الأول هنا يتكلم عن مخالفة الأحاديث ثم يقول (أحدهما البناء) والحديثان لا يتكلمان عن مطلق البناء بل يتكلمان عن اتخاذ المساجد وهذا أخص من المدعى! ثم إنه على هذا البناء الخاطيء تصور أنها معارضة لأحاديث أخرى، بينما الذى يتمعن فى الروايات التى قيل بمخالفتها لا يجد فيها شيئاً من ذلك، فالأحاديث التى ساقها تتكلم عن البناء أو الصلاة عند القبور وقد أورد جملة منها فقال (منها: ما رواه الشيخ فى التهذيب عن عامر البنانى، عن الصادق (عليه السلام)، عن أبائه، عن النبى (صلى الله عليه وآله)، انه قال لعلى (عليه السلام): (يا أبا الحسن ان الله جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من بقاع الجنة، وعروسة من عرصاتهما. وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده تحن إليكم، وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم ويكثرون زيارتها، تقرباً منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك يا على المنصوصون بشفاعتى، والواردون حوضى، وهم زوارىغدا فى

ص: 96

الجنة. يا على، من عمر قبوركم وتعاهدها فكأنها أعان سليمان على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ثواب سبعين حجة بعد حجة الإسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمه، فأبشر وبشر أوليائكم ومحبيكم من النعيم وقرّة العين بما لا عين رأت، ولا إذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم بزيارتكم كما تعير الزانية بزناها، أولئك شرار أمتي لا تنالهم شفاعتي ولا يردون حوضي). وقد روى كثير من أهل الحديث، وذكر تعبير الحثالة الحافظ ابن عساكر من علماء العامة. قال المفيد رحمه الله: وقد روى أنه لا بأس بالصلاة إلى قبله فيها قبر إمام، ويصلى الزائر مما يلي رأس الامام، وهو أفضل. وقال الشيخ: وقد روى جواز الصلاة إلى قبور الأئمة (عليهم السلام)، خاصة في النوافل. قلت: الذي رواه في التهذيب باسناده إلى محمد بن عبد الله الحميري، قال: كتبت إلى الفقيه أسأله عن الرجل يزور قبور الأئمة، هل يجوز أن يسجد على القبر أم لا؟ وهل يجوز للمصلي أن يقوم وراء القبر ويجعله قبلة؟ فأجاب: (أما السجود على القبر فلا يجوز في نافلة، ولا فريضة، ولا زيارة، ولكن يضع خده الأيمن على القبر. وأما الصلاة فإنها خلفه، ولا يجوز أن يصلى بين يديه، لأن الامام لا يتقدم، ويصلى عن يمينه وشماله). وقد روى المفيد عن ابن قولويه، بسنده إلى ابن أبي عمير، عن روى عن الباقر (عليه السلام): (ان الصلاة الفريضة عند قبر الحسين تعدل عمرة). وبسنده إلى أبي على الحراني، عن الصادق (عليه السلام): (من أتاه وزاره، وصلى عنده

ركعتين أو أربع ركعات، كتبت له حجة وعمرة). قال وكذلك لكل من أتى قبر إمام مفترض الطاعة، قال: (نعم). ويسنده إلى شعيب العقرقوفى، عن الصادق (عليه السلام): (ما صلى عنده أحد صلاة إلا قبلها الله منه، ولا دعا عنده أحد دعوة إلا استجيبت له عاجلة وآجلة). والأخبار فى ذلك كثيرة، ومع ذلك فقبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) مبنى عليه فى أكثر الأعصار، ولم ينقل عن أحد من السلف إنكاره بل جعلوه أنسب لتعظيمه. وأما اتخاذ القبور مسجداً، فقد قيل هو لمن يصلى فيه جماعة، أما فردى فلا).

ولا أعلم هذا (القبيل) ما مستنده بعد وضوح كلمة (المسجد)؟!!

وأنت ترى أن هذه عمدة الأخبار التى تصوروا أنها معارضة للحديثين سالفى الذكر، ولا- معارضة هناك فيها، فهى لا تتكلم عن بناء المساجد على قبور أهل البيت لذا لا نجد مسجداً بُنى على قبور أهل البيت عليهم السلام.

وليس بعيداً عن هذا الكلام ما سطره الفاضل الهندى فى كتابه الكبير (كشف اللثام)⁽¹⁾ والشيخ يوسف البحرانى فى (الحدائق الناضرة)⁽²⁾.

ومن لم يجد مجالاً لإسقاط روايات النهى عن بناء المساجد على القبور بدعوى المعارضة - مثل الميرزا القمى - قام بتأويلها تأويلاً بعيداً فقال (أما ما رواه الصدوق فى العلل فى الحسن لإبراهيم بن هاشم، عن زرارة، عن الباقر عليه السلام قال، قلت له: الصلاة بين القبور، قال: "بين خللها، ولا

ص:98

1- (1) كشف اللثام (ط. ج) - الفاضل الهندى - ج 3 - ص 300-303

2- (2) الحدائق الناضرة - المحقق البحرانى - ج 4 - ص 139-141

تتخذوا شيئاً منها قبلة، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن ذلك وقال: لا تتخذوا قبرى قبلة ولا مسجداً، فإن الله لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". وروى فى الفقيه كلامه صلى الله عليه وآله مرسلاً، إلا أنه قال: "لعن اليهود لأنهم اتخذوا" الحديث، فنحملها على المنع من جعلها كالكعبة يصلى إليها من كل جانب.(1)

وهذه التأويلات موجودة عند أهل السنة، قال السيوطى فى تنوير الحوالك (عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم اللهم لا تجعل قبرى وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قال بن عبد البر: قيل معناه النهى عن السجود على قبور الأنبياء وقيل النهى عن اتخاذها قبلة يصلّى إليها)(2).

ولا أعلم كيف يؤول قوله (لا تتخذوا قبرى قبلة ولا مسجداً)؟! فإن كان اتخاذها قبلة تعنى أن يصلى إليها من جميع الجهات فما معنى قوله (ولا مسجداً)!!

نعم يمكن حمل المسجد هنا على كونه يُصلّى عليه، أى فوقه وذلك يلزم أن يكون النبى صلى الله عليه وآله قد لَفَّظَهَا على وزن (مَفْعَل) لا على وزن (مَفْعِل) فالفرق بين (المَسْجِد) الذى يُسجد عليه و (المَسْجِد) الذى يُسجد فيه واضح.

ص: 99

1- (1) غنائم الأيام - الميرزا القمى - ج 2 - ص 221

2- (2) تنوير الحوالك - جلال الدين السيوطى - ص 189

نقل ابن منظور قول سيبويه (وأما المَسْجِدُ فإنهم جعلوه اسماً للبيت ولم يأت على فعل يفعل كما قال في المُدَقِّ إنه اسم للجلمود، يعنى أنه ليس على الفعل، ولو كان على الفعل لقال مدق لأنه آلة، والآلات تجى على مَفْعَلٍ كَمِخْرَزٍ وَمِكْنَسٍ وَمِكَسَحٍ)(1).

ونقل ابن منظور تفريق ابن الاعرابي بين المسجد والمسجد فقال (مَسْجِدٌ، بفتح الجيم، محراب البيوت، ومصلى الجماعات مَسْجِدٌ، بكسر الجيم)(2).

ومع أهمية التفريق بين (المَسْجِدِ) وال (المَسْجِدِ) وعند البحث في مئات المصادر فإنى لم أظفر بمن فرق بين المصطلحين عند مناقشته حديث اتخاذ الارض مسجدا وطهورا الا عند الرازى المفسر إذ انه اكتفى بنقل الأقوال المتضاربة فيها فقال (ختلفوا فى المساجد على وجوه أحدها: وهو قول الأكثرين: أنها المواضع التى بنيت للصلاة وذكر الله ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين، وذلك أن أهل الكتاب يشركون فى صلاتهم فى البيع والكنائس، فأمر الله المسلمين بالإخلاص والتوحيد.

وثانيها: قال الحسن: أراد بالمساجد البقاع كلها قال عليه الصلاة والسلام: "جعلت لى الأرض مسجدا" كأنه تعالى قال: الأرض كلها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها لغير خالقها.

ص:100

1- (1) لسان العرب - ابن منظور - ج 3 - ص 204

2- (2) لسان العرب - ابن منظور - ج 3 - ص 204

وثالثها: روى عن الحسن أيضا أنه قال: المساجد هي الصلوات فالمساجد على هذا القول جمع مَسَّ جَد بفتح الجيم والمَسَّ جَد على هذا القول مصدر بمعنى السجود.

ورابعها: قال سعيد بن جبیر: المساجد الأعضاء التي يسجد العبد عليها وهي سبعة القدمان والركبتان واليدين والوجه، وهذا القول اختيار ابن الأنباري، قال: لأن هذه الأعضاء هي التي يقع السجود عليها وهي مخلوقة لله تعالى، فلا ينبغي أن يسجد العاقل عليها لغير الله تعالى، وعلى هذا القول معنى المساجد مواضع السجود من الجسد واحدا مسجدا بفتح الجيم.

وخامسها: قال عطاء عن ابن عباس رضی الله عنهما: يريد بالمساجد مكة بجميع ما فيها من المساجد، وذلك لأن مكة قبله الدنيا وكل أحد يسجد إليها، قال الواحدى: وواحد المساجد على الأقوال كلها مسجدا بفتح الجيم إلا على قول من يقول: إنها المواضع التي بنيت للصلاة فإن واحدا بكسر الجيم لأن المواضع والمصادر كلها من هذا الباب بفتح العين إلا في أحرف معدودة وهي: المسجد والمطلع والمنسك والمسكن والمنبت والمفرق والمسقط والمجزر والمحشر والمشرق والمغرب، وقد جاء في بعضها الفتح وهو المنسك والمسكن والمفرق والمطلع، وهو جائز في كلها وإن لم يسمع. (1)

لذا قال النبي صلى الله عليه وآله فيما رواه عنه أمير المؤمنين عليه السلام (أعطيت ثلاثا لم يُعْطَهَنَّ نبي قبلي، نُصرت بالرعب، وأُحلت لى

ص: 101

الغنائم، وجُعِلت لى الأرض مَسْجِداً وترابها طهوراً(1) إذ لا يمكن ان يكون قد لفظها (مَسْجِداً) لوضوح كونها لا تصبح كذلك الا بوقف صريح بينما هو يتكلم هنا عن جواز السجود على الأرض، بل كونه أحد موارد الحصر فى ما يجب أن يُسجد عليه. وأنى لأحد اليوم التأكد بضرس قاطع على كون النبى صلى الله عليه وآله قد لفظها (مَسْجِداً) فى قوله الشريف: (لا تتخذوا قبرى قبلة ولا مسجداً)!

لكن الذى لم ينتبه له الجميع ممن راجعت أقوالهم هو انه لا معارضة أصلاً بين احاديث النهى عن بناء المساجد على القبور وبين بناء أبنية على القبور وهو ما استفدناه من قول الطرفين فى سورة الكهف فالآية فرقت بين من يقول:

فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ (الكهف: من الآية 21).

وبين من قال:

قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (الكهف: من الآية 21).

فالعبرة بالفرق بين البناء والمسجد، وبمعونة اللعن الموجه لليهود والنصارى يترجح ان الذين اتخذوا المسجد من المنحرفين وليس من المؤمنين! وهذا خلاف الذى يذهب اليه أغلب المفسرين، والذين أرادوا بناء البنيان هم أهل الاستقامة لكون النبى صلى الله عليه وآله لعن الطرف الثانى صريحاً

ص: 102

وبالتالى لا يتوجه لوم لمن بنى على قبر ولم بين مسجداً عليه. لذا فلا معارضة بين الأحاديث إذا قُومَت بهذا التقويم، وبالتالى لا إسقاط لأحاديث لها دلالة قرآنية تتسق معها بلا اختلاف.

الموضوع الثانى:

إن الذى يحدث الآن من صراع طائفى وتأجيج لحقد تكفيرى ضد الشيعة فى العالم بأنهم قبورىون وأن النبى صلى الله عليه وآله نهى عن بناء المساجد على القبور وهم بينون، وتكفيرهم واجب لهذا العمل وما تلازمه من شركيات، لا يصبح له أى مجال إذ أن الشيعة لا تبنى المساجد على قبور الأئمة أصلاً والأئمة نهوا عن ذلك كما أوردنا أحاديثهم، فهى تبنى أبنية ومشاهد لم يتم احد بتوقيفها مساجد حتى يشملهم اللعن المتوجه لمن فعل هذا الفعل، وبهذا لا تعارض بين ما ذكره علماؤنا وادى بهم الى رفع الحرمة الظاهرة فى معانى الأحاديث، فلما كانت الحرمة متّجهة لمن بنى المساجد وكانت الإباحة بل الاستحباب ببناء البنيان على القبور صار هذا بحكم القولين اللذين لا تناقض بينهما، فأين التعارض! وهذا مما نشترك فيه مع أهل السنة يقول المليبارى فى كتاب الوقف (ومن الصرائح قوله: جعلت هذا المكان مسجداً فيصير به مسجداً، وإن لم يقل لله، ولا أتى بشئ مما مر: لان المسجد لا يكون إلا وقفاً... ولا يثبت حكم المسجد من صحة الاعتكاف وحرمة المكث للجنب لما أضيف من الأرض الموقوفة حوله إذا احتيج إلى توسعته على ما أفتى به شيخنا ابن زياد وغيره. وعلم مما مر أن الوقف لا يصح إلا بلفظ، ولا

ص:103

يأتي فيه خلاف المعاطاة. فلو بنى بناء على هيئة مسجد وأذن في إقامة الصلاة فيه: لم يخرج بذلك عن ملكه(1).

وهذا موضع وفاق بين المسلمين إذ يقول السيد روح الله الخميني رحمه الله (لا بد في وقف المسجد من قصد عنوان المسجدية، فلو وقف مكاناً على صلاة المصلين وعبادة المسلمين صحّ لكن لم يصر به مسجداً ما لم يكن المقصود عنوانه، والظاهر كفاية قوله: جعلته مسجداً وإن لم يذكر ما يدل على وقفه وحبسه، والأحوط أن يقول: وقفته مسجداً أو على أن يكون مسجداً(2).

ويقول السيد الخوئي رحمه الله (إذا لاحظ الواقف منفعة خاصة مثل الصلاة أو الذكر أو الدعاء أو نحوها من أنحاء العبادة فقال: وقفت هذا المكان على المصلين أو الذاكرين أو الداعين أو نحو ذلك لم يصر مسجداً ولم تجر عليه أحكام المسجد وإنما يصير وقفاً على الصلاة أو غيرها مما لاحظ الواقف ويكون من القسم الأول الذي له موقوف عليه وهو الذي لاحظ الواقف فيه المنفعة(3).

ويقول السيد السيستاني حفظه الله (إذا وقف مكاناً على المسلمين ليتنفعوا منه ببعض ما ينتفعون به في المساجد أو بجمعها من الصلاة والذكر والدعاء والتدريس وغير ذلك لم يصر مسجداً ولم تجر عليه أحكام المساجد من حرمة التنجيس ونحوها، وإنما يصير وقفاً على الصلاة وغيرها مما لاحظته

ص: 104

1- (1) فتح المعين - المليباري الهندي - ج 3 - ص 190-191

2- (2) تحرير الوسيلة - السيد الخميني - ج 2 - ص 62-63

3- (3) منهاج الصالحين - السيد الخوئي - ج 2 - ص 231

إذن فالمكان لا يصبح مسجداً الا بوقف لفظي، أما كون البناء له مآذن او قبة فلا عبرة بالشكل، أرأيت ان بنى احدهم بيتا له وجعل له قبة
أيصبح مسجداً لكونه يشبه المسجد؟! اذن فالشيعة لها مرافد واضرحة ومشاهد، وتجد بجانبها مساجد وليس فوقها أصلاً.

وبمراجعة تاريخ بناء المرقد العلوي الشريف على سبيل المثال يتضح أنه لم يُوقَف مسجداً بل عبارة عن هو بناء مشهد يشير الى أهمية
صاحب القبر الشريف، ولانتفاع الزوار من خدمات ذلك البناء إذ أن العمارات التي انشئت على الضريح كانت خمس:

1 - عمارة هارون الرشيد الخليفة العباسي بنى الرشيد على الضريح المقدس سنة 170 هـ - قبة وجعل لها أربعة أبواب وهي من طين أحمر
وطرح على رأسها حبرة خضراء، وأما نفس الضريح الطاهر فإنه بناه بحجارة بيضاء ووضع عليه قنديلا من الفيروز المرصع بالجواهر اليتيمة.

2 - عمارة محمد بن زيد المعروف بالداعي المتوفى عام 287 هـ - 900 م بنى محمد بن زيد الداعي على القبر الشريف قبة وحائطا فيه
سبعون طاقا، وقد ذكر هذه العمارة ابن أبي الحديد في شرحه ج 2 ص 45-46 ولكنه اقتصر على ذكر القبة فقط. وقد طرأت على هذه
العمارة عمارة الرئيس الجليل عمر بن يحيى القائم بالكوفة فإنه عمر مرقد جده من خالص ماله. وكان يحيى هذا

ص:105

من أصحاب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قتل سنة 250 هـ - وحمل رأسه في قوصرة إلى المستعين العباسي وقد ذكر عمارة ابن الداعي الإمام الصادق عليه السلام قبل وقوعها إذ قال "زار الإمام الصادق جده أمير المؤمنين في النجف فقال عليه السلام لا تذهب الليالي والأيام حتى يبعث الله رجلا ممتحنا في نفسه في القتل بيني عليه حصنا فيه سبعون طاقا" اه.

3 - عمارة عضد الدولة البويهى هي العمارة الثالثة وقد بناها السلطان عضد الدولة فناخسرو بن الحسن بن بويه القمي وكانت عمارته تعد من أجل العمارات ومن أحسن ما توصل إليه الفن المعماري في ذلك الوقت وأنها أنشئت سنة 338 هـ - وقد بقيت قائمة إلى سنة 753 هـ - وقد صرف عضد الدولة البويهى على هذه العمارة أموالا كثيرة وستر حيطانها بخشب الساج المنقوش وعين لها أوقافا لإدارتها، وقد وأصل إصلاح هذه العمارة سائر الملوك والوزراء من البويهيين والحمدانيين وبعض العباسيين الذين تشيعوا كالمستنصر العباسي وأولاد وأحفاد جنكيز خان وغيرهم، وجميع هؤلاء قد تبرعوا بسخاء مفرط للعمارة نفسها سواء كان بجلب الأحجار الكريمة أو الآثاث النفيسة أو إجراء إصلاحات فنية في الروضة الحيدرية المطهرة مما جعل العمارة آية في الإبداع ومعجزة ذلك القرن كما أنبأتنا الكتب التاريخية القديمة.

4 - العمارة الرابعة بعد احتراق العمارة الثالثة وما اختلف فيها من الأخبار بعد احتراق العمارة الثالثة سنة 753 هـ - 1352 م أنشئت العمارة الرابعة في عام 760 هـ - 1358 م ولم يذكر مؤرخو القرن الثامن للهجرة اسم صاحبها

ولم ينسبها إلى أحد - إلا - أن بعض المتأخرين يرتأى أنها من آثار السلطان أويس بن الشيخ حسن الجلائرى مستشهداً على ذلك بالخدمات الكثيرة التي أسداها إلى أهل البيت عليهم السلام وما قاله السماوى فى أرجوزته:

فقام فى بناء ذاك الدائر أويس بن حسن الجلائرى

واعتاض من أخشابه الرخاما

هياكلا منحوتة ضخاما

مرصوفة على اعتدال سمت

فى حسن شكل وبديع نحت

رأيت منها قطعاً رواقى

فى جوف سرداب من الرواقوتم فى خمس سنين تهيئه

فى سنة الستين والسبع مئة

وأدخل الشاه عباس الأول إصلاحات كبيرة على هذه العمارة يوم زار النجف سنة 1032-1622 م فإنه عمر الروضة المطهرة والقبة والصحن الحيدرى.

5 - عمارة الشاه صفى حفيد الشاه عباس الأول فى عام 1047 هـ - 1637 م بدأ الشاه صفى حفيد الشاه عباس الأول ببناء العمارة الحاضرة بعد أن شاهد تضعضاً فى القبة المنورة، وضيّق ساحة الصحن الشريف، فأمر الشاه المذكور بهدم بعض جوانب الصحن الشريف وتوسيعه وتوسيع ساحة الحرم العلوى المطهر. والذى تصدّى لهذه الخدمة وزيره ميرزا تقى المازندرانى بأمر من الشاه واستمر العمل ثلاث سنين وصرف لها أموالاً طائلة وجلب أمهر المعمارين والمهندسين مما جعلها بديعة الشكل، مُتقنة الصنع، وأوجد فيها معرفة أوقات الزوال وعدم اختلافه صيفاً وشتاءً وما تقف عنده أساتذة الفن

من تحكيم بزوغ الشمس في الضريح المقدس، وما التزم بها من المقابلة والمجانسات الفنية وسيأتي وصف الروضة المطهرة في فصل خاص(1).

وكل هذه العمارات لم يوقفها أحد مساجد او غير مساجد، بل كانت احتراماً وإجلالاً لهذه البقعة الشريفة ولتوفير المكان المناسب للزوار لتأدية الزيارة ولكي يلجأ لها الزوار من الحر والبرد وغيرها.

والآن نرجع الى الآية القرآنية فقوله تعالى:

إِذِ يْتَنَزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً (الكهف: من الآية 21).

لا- يدل على أكثر من أن هناك طرفان يتنازعان، الطرف الأول يريد بناء بنيان يشير الى أهمية هذا الموقع لكن الموقع على أهميته فهو مجهول التفاصيل ويبدو منه أن هؤلاء لم يتم لديهم فهم ما حصل، ولم يستوعبوه فيظهر منهم الاحتياط في التصرف وأيكال علمه الى الله وهو من صفات الراسخين في العلم كما قال تعالى:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (آل عمران: 7).

فالراسخون في العلم يسلمون لله حتى إن لم يعلموا ما الذي حصل

ص: 108

بالتفصيل اذا آمنوا بأنه من الله. يقول أمير المؤمنين عليه السلام (واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الاقرار بجملته ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما. وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا).⁽¹⁾

وروى الشيخ الصفار عن زرارة بن حمران (كان يجالسنا رجل من أصحابنا فلم يكن يسمع بحديث الا قال: سلّموا حتى لُقّب، فكان كلما جاء قالوا: قد جاء سلّم، فدخل حمران وزرارة على أبي جعفر عليه السلام فقال: إن رجلاً من أصحابنا إذا سمع شيئاً من أحاديثكم قالوا: سلّموا، حتى لُقّب، وكان إذا جاء قالوا: جاء سلّم، فقال أبو جعفر عليه السلام: قد أفلح المسلمون إن المسلمين هم النجباء)⁽²⁾.

أمّا الطرف الثانى فهم الذى يظهر أنهم شملهم لعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) ولنعلم أن اصحاب الكهف كانوا إما قبل ولادة المسيح عليه السلام كما هو مفاد إحدى الروايات، وإما بعده كما هو مفاد غيرها (وهو المرجّح) وبالتالي فالعصر الذى كانوا فيه هو بعد الميلاد أى ابتداءً من القرن الميلادى الأول، ولما كان لبثهم فى الكهف كما ذكر القرآن:

ص: 109

1- (1) نهج البلاغة - خطب الإمام على عليه السلام - ج 1 - ص 162

2- (2) بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص 543

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (الكهف: 25).

فخروجهم من الكهف يكون فى نهاية القرن الثالث أو بداية القرن الرابع على أقل تقدير، إن لم يكن أبعد بما لا يتعدى نسبة خطأ ثلاثة قرون إذ أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بُعث فى العام الميلاى 610 للميلاى ومن هنا فبلاد الروم المشرقية - وهى الأناضول والشام ومصر - تعيش زمن الدولة الرومانية المسيحية وليست الوثنية بعدما أعلن (قسطنطين) إن الدين الرسمى للدولة هو الدين المسيحى، لذا فلا يوجد فى هذه الفترة الا جيوب صغيرة للوثنية، فليس هناك كفار بل هناك نصارى بعضهم على الحق وبعضهم ليس عليه، كما هو حال كل دين بعد وفاة نبيه، لذا فقول المفسرين واختيارهم بين الطرفين بأن هذا الطرف مؤمن والطرف الثانى كافر مما لا دليل عليه إطلاقاً، لكنه اعتقاد خاطيء عند الرعيل الأول من المفسرين جزاء روايات أجمع العلماء على ضعفها، إذ أن المشهور أن عامة روايات قصص الأنبياء لا تثبت بطرق معتبرة، وهذا القول الناتج من روايات ضعيفة ترسخ الى أن وصل الى المتأخرين وصار لا يقبل التأويل!!

وأقوى ما يستدل به المستدل هو رأى الطباطبائى فى تفسيره إذ يقول(1) (وقوله: قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) (الكهف: من الآية 21) "هؤلاء القائلون هم الموحدون ومن الشاهد عليه التعبير عما اتخذوه بالمسجد دون المعبد فإن المسجد فى عرف القرآن هو المحل المتخذ لذكر

ص:110

الله والسجود له قال تعالى: وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ الْحَج: (40).

وهذا المعنى غير راجح، فالطرف الأول لو كان متيقناً من تفسير ما حدث وهو أمر خارج عن العادة فقد يكونوا هم من يطلبون بناء المسجد باعتقاد أنه أمر راجح، فالأمر يدور بين طرفين متشابهين بالعقيدة لا بين كفار ومؤمنين، ثم إن الطرف الأول لم يُرد بناء معبد حتى تكون القرينة بالمقابلة بين المعبد والمسجد، إضافة لكون المسجد في القرآن مصطلح لغوي لا علاقة له بمضمون استعماله وذلك كقوله تعالى:

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِضْطِاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (التوبة: 107).

فهنا أتى ذكر المسجد بكونه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين وإضداداً لمن حارب الله ورسوله، إذن فكلمة مسجد بنفسها لا تدل على كون من يتخذ من المستقيمين. نعم قد يكون في قوله تعالى:

وَ كَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا (الكهف: 21).

هذا القول منه تعالى قد يشير الى ما أفادته بعض الروايات من كون أهل الكهف قد خرجوا في زمان كان فيه النصرارى قد اختلفوا في مسألة البعث والنشور وبالتالي نعلم بهذا إن الطرفين من النصرارى وأحدهم مستقيم والآخر منحرف. والله اعلم.

(المجرمون) فى القرآن الكرىم

جاء لفظ (مجرم) بهيئاته المختلفة فى واحد وخمسين مورداً فى القرآن، منها: فى مورد واحد جاء مفرداً معرّفاً، كما فى قوله تعالى:

يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَتَذَكَّرُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنِيهِ (المعارج: 11).

فى مورد واحد جاء مفرداً نكرة، كما فى قوله تعالى:

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (ط - ه: 74).

فى الموارد الباقية جاء اللفظ مجموعاً جمعاً مذكراً كما فى قوله تعالى:

لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (أنفال: 8).

وقوله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (يونس: 17).

وقوله تعالى:

ص: 112

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُّ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (يونس: 50).

وقوله تعالى:

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (يونس: 82).

وقوله تعالى:

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (الكهف: 53).

وقوله تعالى:

وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (الشعراء: 99).

وقوله تعالى:

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسَدِّلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ (القصص: 78).

ولهذه المجموعة المميزة صفات عامة يشترك أفرادها بها منها:

إنهم يأتون مبلسين يوم القيامة:

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (الروم: 12).

إنهم يطلبون الرجوع ليؤمنوا كما في قوله تعالى:

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

فَازِجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (السجدة: 12).

إنهم يُخَاطَبُونَ من دون الجموع بالامتياز والتجمع لوحدهم:

وَ اَمْتَارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (ي - س: 59).

وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا (مريم: 86).

إنهم معروفون بسيماهم فيميزون عن باقي مجموعات الكفار بعلامات:

كما في قوله تعالى:

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (الرحمن: 41).

وقوله تعالى:

وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (ابراهيم: 49).

وقوله تعالى:

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (ط - ه: 102).

إنهم سيخلدون في جهنم:

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدِينَ فِيهَا (الزخرف: 74).

إنهم مكذبون بالنبوات.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (الأنعام: 147).

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (الأعراف: 40).

ومن هؤلاء المكذبين قوم لوط الذين قال الله فيهم:

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (الأعراف: 84).

وكذلك عاد التي قال الله فيها بعد إنزال العذاب عليهم بالعارض:

تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (الأحقاف: 25).

ولما كان عاد وقوم لوط على طرق القوافل قال تعالى:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (النمل: 69).

لذا فهم يستغربون من كون كتاب الأعمال لا يغادر شيئاً من أعمالهم:

وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (الكهف: 49).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (الفرقان: 31).

وحتى يكون حجة عليهم افهمهم الله الحق فنبذوه وأنكروه:

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (الشعراء: 200).

وأعرضوا عن آياته تعالى:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (السجدة: 22).

وكذبوا بلوازمها:

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (الرحمن: 43).

لذا فالمجرمون على هذا هم كل منكر في الحقيقة غير مؤمن في الداخل أى إن الإجماع لا يشمل الذين قال الله فيهم:

وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (النمل: 14).

فسماهم مفسدين ولم يقل: مجرمين، لكونهم استيقنوا بها في داخلهم وجحدوها باللسان ظلماً وعلوًّا، أما المجرمون فهم منكرون مكذبون مع قيام الحجة وليسوا جاحدين للنبوات.

من هنا فلو كان تعالى يقول:

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا (الفرقان: 31).

فمن هو المجرم الذى كان فى زمان النبى صلى الله عليه وآله؟!

هل هو الذى قالت عنه الآية:

يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ يُغْتَدَى مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَ صَاحِبَتِهِ وَ أُخِيهِ (12) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) المعارج 11-14.

نعم بالتأكيد!! وقد ذكرته الروايات الواردة عن أهل البيت باسمه!!

ص: 116

مَنْ سَيَلْقَى مِنْ... فِي جَهَنَّمَ؟!

قال تعالى: في سورة (ق):

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَاهِدٌ (21) لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَفَبَصَرِكُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (ق: 20-26).

ورد في المأثور عن أهل البيت ان قوله تعالى (ألقيا) وقوله تعالى (فألقياه) إشارة الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام فهما يومئذ موكلان بالنار يلقيان فيها كل كفار عنيد، فهنا مبحثان:

إثبات أن الملقين هما النبي وعلى عليهما الصلاة والسلام

لماذا اختص إلقائهما بالكفار المعاند دون غيره؟!

جاء في مآثور المسلمين أن الملقين هما النبي عليه الصلاة والسلام وعلى عليه السلام كما ذكر ذلك:

القَمِيّ في تفسيره فقال: حدثنا أبو القاسم الحسيني قال حدثنا فرات بن إبراهيم قال حدثنا محمد بن أحمد بن حسان قال حدثنا محمد بن مروان عن عبيد بن يحيى عن محمد بن الحسين ابن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه وعليهم السلام في قوله **الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد كنت انا وأنت يومئذ عن يمين العرش، ثم يقول الله تبارك وتعالى لى ولك قوما فألقيا من أبغضكما وكذبكما في النار(1).

وقال القمّي: حدثني أبي عن عبد الله بن المغيرة الخزاز عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا سألتم الله فاسألوه الوسيلة فسألنا النبي صلى الله عليه وآله عن الوسيلة، فقال هي درجتى فى الجنة وهى الف مرقة جوهرة إلى مرقة زبرجد إلى مرقة لؤلؤ إلى مرقة ذهب إلى مرقة فضة، فيؤتى بها يوم القيامة حتى تنصب مع درجة النبيين وهى فى درجة النبيين كالقمر بين الكواكب، فلا يبقى يومئذ نبي ولا شهيد ولا صديق إلا قال طوبى لمن كانت هذه درجته، فينادى المنادى

ص: 118

ويسمع النداء جميع النبيين والصدّيقين والشهداء والمؤمنين "هذه درجة محمد صلى الله عليه وآله" فقال لرسول الله: فأقبل يومئذ متزرا بريطة من نور على رأسى تاج الملك، مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولى الله المفلحون هم الفائزون بالله، وإذا مررنا بالنبيين قالوا: هذان ملكان مقربان وإذا مررنا بالملائكة قالوا هذان ملكان لم نعرفهما ولم نرهما أو قال هذان نبيان مرسلان حتى أعلو الدرجة وعلى يتبعنى، حتى إذا صرت فى أعلى الدرجة منها وعلى أسفل منى وييده لوائى فلا يبقى يومئذ نبي ولا مؤمن إلا رفعوا رؤوسهم إلى يقولون: طوبى لهذين العبدین ما أكرمهما على الله فينادى المنادى يسمع النبيين وجميع الخلائق: هذا حبيبي محمد وهذا وليي على بن أبى طالب طوبى لمن أحبه وويل لمن أبغضه وكذب عليه. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا على فلا يبقى يومئذ فى مشهد القيامة أحد يحبك إلا استروح إلى هذا الكلام وبيض وجهه وفرح قلبه ولا يبقى أحد ممن عاداك ونصب لك حربا أو جحد لك حقا إلا اسود وجهه واضطربت قدماه، فبينما أنا كذلك إذا بملكين قد أقبلا إلى اما أحدهما فرضوان خازن الجنة، واما الآخر فمالك خازن النار فيدنو إلى رضوان ويسلم على ويقول: السلام عليك يا رسول الله؟ فأرد عليه السلام فأقول: أيها الملك الطيب الريح الحسن الوجه الكريم على ربه من أنت؟ فيقول: أنا رضوان خازن الجنة امرنى ربي ان آتيك بمفاتيح الجنة فخذها يا محمد! فأقول قد قبلت ذلك من ربي فله الحمد على ما أنعم به على، إدفعها إلى أخى على بن أبى طالب، فيدفعها إلى على ويرجع

رضوان. ثم بدنو مالك خازن النار فيسلم على ويقول: السلام عليك يا حبيب الله! فأقول له: عليك السلام أيها الملك ما أنكر رؤيتك وأقبح وجهك من أنت؟ فيقول: أنا مالك خازن النار أمرني ربي أن آتيك بمفاتيح النار، فأقول: قد قبلت ذلك من ربي فله الحمد على ما أنعم به على وفضلني به إذفعها إلى أخي على ابن أبي طالب، فيدفعها إليه، ثم يرجع مالك فيقبل على عليه السلام ومعه مفاتيح الجنة ومقاليد النار حتى يقف على شفير جهنم ويأخذ زمامها بيده وقد علا زفيرها واشتد حرها وكثر شررها، فتنادى جهنم يا علي! جزني قد أطفأ نورك لهبي، فيقول لها على عليه السلام قرى يا جهنم ذرى هذا وليي وخذي هذا عدوى، فلجهنم يومئذ أشد مطاوعة لعلي من غلام أحدكم لصاحبه، فان شاء يذهب به يمنة وإن شاء يذهب به يسرة، ولجهنم يومئذ أشد مطاوعة لعلي فيما يأمرها به من جميع الخلائق، وذلك أن عليا عليه السلام يومئذ قسيم الجنة والنار(1).

وورى فرات الكوفى فى تفسيره: حدثنى الحسن بن على بن بزيح والحسين بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن إسحاق قال: حدثنا يحيى بن سالم الفراء عن فطر عن موسى بن طريف: عن عباية بن ربيعى فى قوله تعالى: (القيافى جهنم كل كفار عنيد) فقال: النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعلى بن أبى طالب عليه السلام(2).

ص:120

1- (1) تفسير القمى - على بن إبراهيم القمى - ج 2 - ص 324-326

2- (2) تفسير فرات الكوفى - فرات بن إبراهيم الكوفى - ص 436

وروى الصفار في بصائره فقال: حدثنا أحمد بن محمد وعبد الله عامر عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر الجعفي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول فضل أمير المؤمنين ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله اخذ به وما نهى عنه انتهى عنه جرى له من الفضل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وآله ولمحمد الفضل على جميع من خلق الله المتعقب عليه في شئ من أحكامه كالمتعقب على الله وعلى رسوله الراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله كان أمير المؤمنين باب الله الذي لا يؤتى الا منه وسبيله الذي من سلك بغيره هلك وكذلك جرى على الأئمة الهدى واحدا بعد واحد جعلهم الله أركان الأرض ان تميد باهلها والحجة البالغة من فوق الأرض ومن تحت الثرى وقال عليه السلام كان أمير المؤمنين كثيرا ما يقول انا قسيم الله بين الجنة والنار... الى آخر الحديث(1)

وروى الصدوق في علل الشرائع: حدثنا محمد بن الحسن رضى الله عنه قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار قال حدثنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن موسى بن سعدان عن عبد الله بن القاسم الحضرمي، عن سماعة بن مهران قال: قال أبو عبد الله عليه السلام إذا كان يوم القيامة وضع منبر يراه جميع الخلائق يقف عليه رجل يقوم ملك عن يمينه وملك عن يساره فينادى الذي عن يمينه يقول: يا معشر الخلائق هذا على بن أبي طالب صاحب الجنة يدخل الجنة من شاء، وينادى الذي عن يساره يا معشر الخلائق

ص:121

هذا على بن أبي طالب صاحب النار يدخلها من شاء. (1)

وفى هذا المعنى روايات عديدة

وروى اهل السنة الحديث بألفاظ منها:

ما رواه الحسكاني في شواهد التنزيل: حدثنا شريك بن عبد الله قال: كنت عند الأعمش وهو عليل، فدخل عليه أبو حنيفة وابن شبرمة وابن أبي ليلى فقالوا له: يا أبا محمد إنك في آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، وقد كنت تحدث في علي بن أبي طالب بأحاديث فتب إلى الله منها!! فقال: أسندوني أسندوني. فأسند، فقال: حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى لى ولعلى. ألقيا فى النار من أبغضكما وأدخلا الجنة من أحبكما، فذلك قوله تعالى: أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ فقال أبو حنيفة للقوم: قوموا بنا لا يجيء بشيء أشد من هذا. (2)

وروى البخارى فى صحيحه عن ابى هريرة عن النبى عليه الصلاة والسلام (فى حديث الحوض) قال:

بيننا انا قائم فإذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال هلم فقلت أين قال إلى النار والله قلت وما شأنهم قال إنهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقري ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم

ص: 122

1- (1) علل الشرائع - الشيخ الصدوق - ج 1 - ص 164

2- (2) شواهد التنزيل - الحاكم الحسكاني - ج 2 - ص 262

فقال هلم قلت أين قال إلى النار والله قلت ما شأنهم قال إنهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقري فلا أراه يخلص منهم الا مثل همل
النعم(1)

والرجل الذى يخرج من بين النبي وبينهم هو على عليه السلام وقد اخفوا اسمه كالعادة وقد جاء بلفظ (رجل) منكراً فى حديث عائشة فى البخارى اذ تقول: لما ثقل النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم واشتد وجعه استأذن أزواجه ان يمرض فى بيتى فأذن له فخرج بين رجلين تخط رجلاه الأرض وكان بين العباس ورجل آخر قال عبيد الله بن عبد الله فذكرت ذلك لابن عباس ما قالت عائشة فقال لى وهل تدرى من (الرجل) الذى لم تسمّ عائشة؟ قلت: لا، قال: هو على بن أبى طالب(2)!

فأبهمت ايم الرجل الآخر ولم تسمّه! وقد كشف عنه شارح الحديث ابن حجر فقال ((قوله قال هو على بن أبى طالب) زاد الإسماعيلي من رواية عبد الرزاق عن معمر ولكن عائشة لا تطيب نفسها له بخير ولا بن إسحاق فى المغازى عن الزهرى ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير ولم يقف الكرمانى على هذه الزيادة فعبر عنها بعبارة شنيعة وفى هذا رد على من تنطع فقال لا يجوز أن يظن ذلك بعائشة ورد على من زعم أنها أبهمت الثانى لكونه لم يتعين فى جميع المسافة إذ كان تارة يتوكأ على الفضل وتارة على أسامة وتارة على على وفى جميع ذلك الرجل الآخر هو العباس واختص بذلك إكرامه له وهذا

ص: 123

1- (1) صحيح البخارى - البخارى - ج 7 - ص 208-209

2- (2) صحيح البخارى - البخارى - ج 1 - ص 161-162

توهم ممن قاله والواقع خلافه لأن بن عباس فى جميع الروايات الصحيحة جازم بأن المبهم علىّ فهو المعتمد والله أعلم(1).

فلما كانت نفوسهم لا تطيب بذكر على ابهموه فى الروايات(2)!

فعلى ييهم حتى لا تذكر كفضيلة ومنقبة له كما زعموا ولم يدروا ان عليا هو من يعطى المنقبة اسمها وليست هى التى تزينه!

وورى المعنى ابن مخلط القرطبي فى كتابه (ما روى فى الحوض والكوتر) فقال:

قال ابن أبى عاصم: حدثنا إسماعيل بن موسى، ثنا سعيد بن خثيم الهلالي، عن الوليد بن مسار الهمداني، عن على بن أبى طلحة مولى بنى أمية، قال: حج معاوية بن أبى سفيان وحج معه معاوية بن خديج، فمر فى مسجد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - والحسن بن على جالس، فدعاه، فقال له الحسن: أنت الساب لعلى رضى الله عنه؟ أما والله لتردن عليه الحوض، وما أراك أن ترده، فتجده مشمر الإزار عن ساق يذود عنه. لا يأتى المنافقون ذود غريبة الإبل. قول الصادق المصدوق، وقد خاب من افترى.(3)

وقد روى الحديث ابن عساكر بلفظ ثان فقال: عن أبى كثير قال كنت

ص:124

1- (1) فتح البارى - ابن حجر - ج 2 - ص 131

2- (2) راجع كتاب فلان وفلانة لتعرف مدى التحريف والإبهام الذى طال الروايات التى تذكر أمير المؤمنين عليه السلام إذ لا يذكرونه باسمه وإنما يقولون عنه (رجل) أو (فلان).

3- (3) ما روى فى الحوض والكوتر - ابن مخلد القرطبي - ص 135

جالسا عند الحسن بن علي فجاءه رجل فقال لقد سب عند معاوية عليا سبًا قبيحا رجل يقال له معاوية بن حديج قال: تعرفه؟ قال: نعم، قال إذا رأيته فانتني به، قال فرآه عند دار عمرو بن حريث فأراه إياه قال: أنت معاوية بن حديج فسكت فلم يجبه ثلاثا، ثم قال: أنت الساب عليا عند ابن أكلة الأكباد؟! أما لئن وردت عليه الحوض وما أراك ترده لتجدنه مشمرا حاسرا ذراعيه يذود الكفار والمنافقين عن حوض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما تُذاد غريبة الإبل عن صاحبها قول الصادق المصدوق أبي القاسم (صلى الله عليه وآله وسلم) (1).

وروى القندوزي في يناعيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة، تقول للنار: هذا لى وهذا لك. (2)

وللدلالات الخطيرة التي ينطوي عليها حديث الحوض نرى أن طواغيت بني أمية منعوا من التحديث به بحجة عدم وروده في القرآن! ولنتذكر أن القرآن الذي يقصدونه هو القرآن الذي تولوا تفسيره هم حسبما يشتهون واتخذوا ائمة الضلالة مطايا في ذلك! إذ يروى الهيثمي (3) (عن أبي حيان التيمي عن عمه قال انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا، قال يزيد ابن

ص: 125

1- (1) تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر - ج 59 - ص 28

2- (2) يناعيع المودة لذوى القربى - القندوزي - ج 1 - ص 254

3- (3) مجمع الزوائد - الهيثمي - ج 1 - ص 144

حيان حدثنا زيد في مجلسه ذلك قال: بعث إلى عبد الله بن زياد فأتيته فقال ما أحاديث تحدث بها وترويها عن رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم لا نجدها في كتاب الله! تحدث أن له حوضاً في الجنة؟ قال: قد حدَّثنا رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم ووعدناه، فقال: كذبت ولكنك شيخ قد خرفت! قال: إلىَّ قد سمعته أذناي ووعاه قلبي من رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم يقول من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار وما كذبت على رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم) قال الهيثمي (رواه أحمد والطبراني في الكبير والبخاري ورجالهم رجال الصحيح).

فابن زياد يعلم كما يعلم كل مسلم استفاضة حديث الحوض وإن الأمة ترد على أبيها نبي الله صلى الله عليه وآله ووصيه عليه السلام فيرون من يريدون ممن أراد الله ويذودون عنه من يريدون ممن أراد الله. وقد روى النسائي المعنى في السنن الكبرى (1) إذ قال (عن كعب بن عجرة قال: خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم ونحن تسعة، خمسة وأربعة أحد العددين من العرب والآخر من العجم، فقال: اسمعوا هل سمعتم أنه سيكون بعدى أمراء من دخل عليهم فصَدَّقَهُمْ بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منِّي ولست منه وليس يرد علىَّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدِّقهم بكذبهم ولم يُعَنِّهم على ظلمهم، فهو منِّي وأنا منه وسيرد علىَّ الحوض).

فتحصل ان عليا عليه السلام يذود المنافقين عن الحوض والنبي عليه

ص: 126

الصلاة والسلام فرط المسلمين على الحوض اذن الحوض عليه اثنان فقط يطردان عنه من لا يستحق شرب الماء منه لكون من شرب منه لا يظماً بعدها كما جاء فى الحديث وهو من اهل الجنة! وهما عليهما الصلاة والسلام بعملهما هذا يدبران امر الحوض للامة فقد جاء فى الحديث النبوى: أنا وعلى أبوا هذه الأمة فعلى عاق والديه لعنة الله(1).

لكن.. هل سيلقيان كل من لا يستحق بأيديهم الشريفة فى النار أم سيختص عملهما المباشر بقوم معينين؟ وفى الجواب نقول يجب أن نعرف المراد من مفردتى (كفار) و (عنيد):

وردت مفردة (كفار) فى سورة (ق) للمفرد المتصف بالكفر وهو هنا على الأرجح ليس الكفر الاصطلاحى بل اللغوى وقد جاءت هذه المفردة فى القرآن فى اربعة مواضع:

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (البقرة: 276).

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (ابراهيم: 34).

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (الزمر: 3).

ص: 127

الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (ق: 24).

نعم ورد في سورة نوح قول نوح عليه السلام:

إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (نوح: 27).

وهذا خارج عن الكلام في مفردة كُفَّار التي نتحدث عنها لكونها هناك بمعنى الجحود وهنا بمعنى الكفر الاصطلاحي.

ودليل قولنا بأن الكفر هنا لغوي وليس اصطلاحى هو مورد نزول الآيات فمورد سورة البقرة قيل فيه (تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين. أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا فأمروا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. روى أنها نزلت في ثقيف وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا)(1)

ومورد سورة ابراهيم واضحة في نسبة صفة الجحود والآنكار للنعم الى الإنسان وهذا بديهي في جنس الإنسان وليس بأفراده بالقطعي الملموس.

وأما مورد سورة الزمر فواضح في أن الكفر هنا أعم من الكفر الاصطلاحي لكون بعض من شملتهم الآية بالحكم يمكن أن يكون مسلما فيعبد غير الله توسلا الى الله كما يزعم قال الطوسي (تخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله "وروى عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال ما عبدوهم من دون الله وإنما حرموا لهم حلالا وأحلوا لهم حراما، فكان ذلك

ص: 128

1- (1) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل - الزمخشري - ج 1 - شرح ص 401.

اتخاذ الأرباب من دون الله(1) وهذا واضح في وجوده في المسلمين وغيرهم فائمة الضلالة يحللون الحرام ويحرمون الحلال من يوم شهادة النبي صلى الله عليه وآله الى يومنا هذا.

وأما مورد سورة (ق) فلقيام الادلة النقلية على قدوم قوم من المسلمين على الحوض وذودهم الى ذات الشمال والى النار بألفاظ الحديث في صحيح البخارى وغيره فشملمهم العنوان بمعنى الجحود وليس الكفر البواح فى الدنيا ظاهرا.

وعلى هذا فقوال نوح:

إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (نوح: 27).

فقول قومه:

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (نوح: 23).

فوصفهم بالآلهة فكانوا كفّاراً بالكفر البواح الاصطلاحى وهذا لا يدخل ضمن مفردة (كفّار) التى بمعنى الجحود عن استيقان ومعرفة.

والكفر فى الأصل اللغوى: الجحود، قال الفراهيدى (والكفر أربعة أنحاء: كفر الجحود مع معرفة القلب، كقوله عز وجل: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) وكفر المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى بلسانه. وكفر النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر. وكفر الانكار: وهو كفر القلب

ص: 129

واللسان. وإذا ألجأت مطيعك إلى أن يعصيك فقد أكفرتَه(1).

وكفّار مبالغة في الكفر (وهو هنا كما هو راجح قد يكون الجحود وليس الكفر الاصطلاحي) قال في شرح الشافية (ويجئُ فُعال - بضم الفاء وتخفيف العين - مبالغة فعيل في هذا الباب كثيرا، لكنه غير مطرد، نحو طویل وطوال، وشجیع وشجاع، ويقل في غير هذا الباب كعجيب وعُجاب، فإن شُدّدت العين كان أبلغ كطوال)(2).

وجاءت مفردة (عنيد) في اربعة مواضع في القرآن كما في قوله تعالى:

وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (هود: 59).

وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (ابراهيم: 15).

الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (ق: 24).

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (المدثر: 16).

والعنيد كما قال الفراهيدي (عند الرجل يعند عندا وعنودا فهو عاند وعنيد، إذا طغى وعتا، وجاوز قدره، ومنه: المعاندة، وهو أن يعرف الرجل الشيء ويأبى أن يقبله أو يقر به)(3).

فعلى هذا سيكون النبي وعلى عليهما السلام هما الموكلان بالقاء

ص: 130

1- (1) كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج 5 - ص 356

2- (2) شرح شافية ابن الحاجب - رضى الدين الأستراباذى - ج 1 - ص 148

3- (3) كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج 2 - ص 42

صنف معيّن وهو كل من أتصف بأنه (كفار عنيد) في جهنم وظاهر الآية كونهما عليهما الصلاة والسلام سيباشران إلقاء هؤلاء بنفسيهما، وجرم من كان كفارا عنيدا انه عرف الحق وجحده بلسانه ووطغيانه، وعتوه انه عرف الحق وأبى قبوله والإقرار به وكون الكفار جاءت في اربعة مواضع والعنيد جاءت في أربعة مواضع فقد يكون هذا الصنف عبارة عن اربعة اشخاص فقط انكروا امرا عظيما اوجب اكتسابهم اثما عظيما سيكون جزاءه من جنسه وهو ان اشرف الخلق وابوا امة الاسلام سيلقونهم بأنفسهم في جهنم، وقد ورد في مأثور أهل البيت الإشارة الى اربعة اشخاص جحدا وصية النبي بعدما قبلوا بها ظاهرا وغدروا بأهل بيته عليهم السلام بعد شهادته صلى الله عليه وآله فقد جاء في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام عند ضريحه:

اللهم العن الجوايبت والطواغيت والفراعنة، واللات والعزى، والجبت والطاغوت، وكل ندّ يدعى من دون الله وكل مفترٍ على الله. اللهم العنهم وأشياعهم وأتباعهم وأوليائهم وأعاونهم ومحبيهم لعناً كثيراً. (1)

ففى الزيارة لعن للطواغيت والجوايبت بشكل عام ثم بتخصيص اربعة أسماهم: اللات والعزى والجبت والطاغوت.

وجاء فى بحار الأنوار فى زيارة عاشوراء عن الإمام الباقر عليه السلام: اللهم خصّ أنت أول ظالم باللعن منى وأبدأ به أولاً ثم الثانى ثم الثالث ثم

ص: 131

فتراه عليه السلام خصّ اربعة من هؤلاء الظالمين باللعن بدون ذكر اسمائهم لما لهم من موضع عند بعض المسلمين لا يريد الأمام عليه السلام إثارتهم بذكرهم فذكر يزيد ولم يذكر غيره وخصّهم بالعدد الرباعي!.

وارتباط هؤلاء بجهنم قد يشير الى آيات أخرى تتحدث عن أصحاب الشقاق الذين كانوا يؤذون النبي عليه الصلاة والسلام بعدما بين لهم النبي الهدى كما قال تعالى:

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (النساء: 115).

ولكونه تعالى يقول:

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا (الفرقان: 31).

فالمجرم الذى كان عدوا للنبي صلى الله عليه وآله والذى كان يتحين الفرصة لنقل أساس الخلافة عن مكانها فكان السبب فى انحراف الامة قد يكون من هؤلاء خصوصا مع كون المجرمين سيدخلون الى جهنم وليس الى غيرها يقول تعالى:

وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا (مريم: 86).

ص:132

وقوله تعالى:

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (ط - هـ: 74).

وهؤلاء (المجرمين) هم أعداء الأنبياء فلكل نبي عدو منهم سيأتون بجماعة خاصة مميزة:

وَامْتَاذُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (ي - س: 59).

لكون ذنبهم واحد وهو تزعم حركة المعارضة لله في الارض في زمان كل نبي ولكون جهنم أشد النيران سيكون خلودهم فيها، والله أعلم.

ص: 133

المحراب في القرآن

قال تعالى في كتابه الكريم في قصة مريم عليها السلام:

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنادته الملائكةُ وهنَّ قائمٌ يَصَدَّقْنَ لِي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) (آل عمران 37-39).

وقال تعالى في قصة زكريا عليه السلام:

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (مريم: 11).

وقال تعالى في قصة داود عليه السلام:

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (ص: 21).

وقال تعالى في قصة سليمان عليه السلام وعمل الجن المسخر له:

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (س - بآ: 13).

الملاحظ في هذه الآيات:

إنها تشترك في كون الأنبياء المذكورين من أنبياء بنى إسرائيل.

إن مفهوم (المحراب) قد ذكر معرفاً بالألف واللام في موارد الأربعة كلها.

إن مفهوم (المحراب) جاء في الموارد الأربعة مؤكداً عليه بشكل واضح، فسبحانه وتعالى ذكر دخول زكريا على مريم ولم يكتف بل إنه زاد (في المحراب)، ثم ذكر دعاء زكريا بطلب الولد بعدما رأى كرامة مريم على ربها بأن أوصل لها رزقها إلى مكان عبادتها في المحراب، فأبرز سبحانه طلب زكريا بقوله (هنالك) أى فى المحراب، ولما أراد سبحانه بيان طريقة خروج زكريا بعد تكليم الملائكة له وتبشيره بيحيى فقال سبحانه (من المحراب)، فأبرز سبحانه (المحراب) كعنصر ضرورى فى خروج زكريا من المكان الذى كان فيه، مع أننا نعلم إن المحراب إذا كان هو البناء المقوَّس المخروطى الذى يستعمل لصلاة الإمام فهو ليس بناءً مغلقاً حتى يخرج منه زكريا! بل يجب على زكريا أن يمرّ بالبنية التى يقع فيها المحراب حتى يخرج إلى قومه!

ولما ذكر سبحانه قصة الخصمين الذين جاء لداود عليه السلام ليحكم بينهما، نجد أن المحراب كان عنصراً أساسياً فى ذكر القضية، فكان يكفى أن

ص: 135

يذكر سبحانه مجيء الخصمين إلى داود بدون ذكر الكيفية، لكنه سبحانه ذكر ذلك لنكتة ما!.

وقصة سليمان عليه السلام لا تختلف عن ذلك، فالمحاريب (جمع محراب) كانت أول ما ذكر الله سبحانه من عمل الجن له فقال سبحانه:

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ (س - بآ: من الآية 13).

ولو تأملنا في قوله سبحانه بعد ذكره المحاريب:

وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ (س - بآ: من الآية 13).

واختلاف المفسرين الشديد في تفسير هذه المفاهيم، يجعلنا نشك في ما قيل عن المحراب في كلمات المفسرين إذ فسره بعضهم (بالمكان الذي يتوجه إليه في الصلاة) وهذا لا يتناسب مع السياق! ومنهم من قال (هو المصلّى)، والبعض الآخر قال (هي أشرف المجالس)، والبعض سكت وفسر ما قبله وما بعده ولم يبين ما هو المحراب! وهناك من قال (هو أشرف البيوت في الدار)، وبعضهم احتمل كونها (مساجد اليهود) ومنهم من قال إضافة لذلك (هي الصومعة التي بناها زكريا لمريم)، وكثير من المفسرين عدّد الاحتمالات بدون ترجيح احد منها. وحتى الذين جزموا بأرائهم فلم أجد أحدا استدلّ بدليل قرآني أو بالسنة على المراد من (المحراب)!

ولكن! لو تأملنا المشتركات بين الألفاظ التي اقترنت بذكر (المحراب) فمن السهل أن نقول بأن المحراب كان بناء له أهمية خاصة، وقداسة خاصة، من خلال ارتباط ذكر الأنبياء بذكره، وتعريفه كشيء لا يقبل أن يُجهل.

وهذا موجود اليوم! فهذا البناء معروف في كتب اليهود والنصارى (وهم من يدعون الرجوع إلى الأنبياء المذكورين بمعية ذكر المحراب)، وهذا البناء هو جزء مما يعرف ب - (الهيكل) الذى بناه نبي الله داود عليه السلام، وحتى تكون لنا معرفة عامة لهذا البناء يجب أن نعرف بالشخصيات التى ارتبط اسمها بهذا البناء فى القرآن.

وأولهم هو نبي الله داود عليه السلام باني الهيكل:

وهو على ما قيل(1) (داود بن عوبد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى نادب بن رام بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام)، وقد ذكر فى القرآن فى أربعة عشر موضعاً فى اجلّ ذكر وأجمله، وقد كان فى صباه جندياً فى جيش الملك طالوت الذى عبر نهر الأردن إلى فلسطين لقتال العمالقة وقائدهم جالوت، فقال تعالى:

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (البقرة: 251).

وبعد المعركة وما أصبح عليه داود من مكانة واحترام أصبح داود نبياً وملكاً على بنى إسرائيل فى فلسطين بقوله تعالى:

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

ص:137

بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص: 26).

وقيل بأن النبي (ناتان) هو من أخبر داود بنبوته واصطفائه وقال له إن الله يقول (قل لعبدى داود: ابن لى بيتا، فقد ملكتك على بنى إسرائيل، بعد أن كنت فى صيرة الغنم، وقتلت أعداءك) (1) وهذا البيت هو (الهيكل) الشهير، وهذا لو صح يكون من الخطأ القول بأن من بنى الهيكل هو سليمان ابنه بعدما جمع داود فى زمانه العدة والعدد، بل إن داود هو من بدأ البناء وأكمله سليمان. بل إننا لا نحتاج إلى هذه الرواية لو تم المدلول فى قوله تعالى:

وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (ص: 21).

فالمحراب هو جزء من هذا البناء الذى أمر الله داود ببنائه فى المكان المبارك. وهو حسب الآية كان موجودا فى عهد داود النبى عليه السلام. وقد كرمه الله بآياته (الزبور) فقال تعالى:

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (الاسراء: 55).

وعندما كان داود يسبح كانت الجبال تسبح معه والطير:

وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (الأنبياء: 79).

وألان الله له الحديد فكان يعمل ما يشاء منه:

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَ آتَيْنَاهُ الْحَدِيدَ (س - با: 10).

ص: 138

الى غيرها من الأمور التي تميز بها النبي داود عليه السلام.

وهذا البناء الذي بناه داود كان معروفاً في ذلك الزمان لفخامته التي نقلتها الكتب القديمة بصورة قد تكون مبالغ فيها، إذ قال عنه (ول ديورانت) المؤرخ المعروف (إن طراز الهيكل هو الطراز الذي أخذه الفينيقيون عن مصر، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين، ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح، بل كان سياجاً مربعاً يضم عدة أجنحة، ولم يكن بناؤه الرئيسي كبير الحجم، فقد كان طوله حوالي مائة وأربع وعشرين قدماً، وعرضه حوالي خمس وخمسين وارتفاعه حوالي اثنتين وخمسين. وقد اختير لتشييد الهيكل مكانٌ فوق ربوة(1)..

والى زمان بناء الهيكل كان اليهود يتعبدون الله في خيمة يقدّسونها، وكانوا يحملونها في حلّهم وترحالهم من زمان موسى عليه السلام، إلى أن اشترى داود الأرض من (أورنا) أو (أوريا) اليبوسى ليقيم الهيكل بعد ما أمره الله تعالى.

وقد ورد متفرقا في الكتب وصفاً دقيقاً لهذا المعبد إذ قيل:

(كان الهيكل يتجه إلى جهة الشرق. كان بجانب مدخله رواق وعواميد ثم اتسع الرواق في عهد خلفاء سليمان حتى شمل جميع الجهات. وبنيت إلى الغرب من الرواق الشرقي دار مربعة الشكل، ثم إلى غربها دارٌ أصغر منها. أما المذبح فكان صندوقاً من الخشب تُشعل على رأسه. وإلى جانبها وضعت

ص: 139

أوعية الغسل، من النحاس، ليتطهر بها الكهنة والذباح. وكان فى الدار الصغيرة غرف للكهنة وللطبخ. أما الدار الكبرى فكان فيها الهيكل الحقيقى. وكان بناؤه شاهقاً. وكانت أبوابه من الخشب المرصع بالذهب. وجُعِلت بعض جوانبه مخصّصة للملوك. وتحت رواقه وضع عمودان مزخرفان هما ياكين وبوعز. وكان لا يسمح بدخول أحد غير رئيس الكهنة إلى الجانب المقدّس المخصص له. وكان ذلك الجانب يغلق ببابين ضخمين وكان ينيره ضوء منارة من الذهب وإلى جانبها خمس منائر على خمس موائد. وفيه كان يُقدم البخور وخبز الوجوه. ووُضع فيه المحراب، أو قدس الأقداس، وهو غرفة، مظلمة. فيه تابوت العهد على صخرة وفوقه كاروبا (ملاك) المجد. هذا وصف لهيكل سليمان الذى حافظ على عظمته مدة أربعة قرون وربيع، أى منذ حوالى سنة 9688 ق. م. إلى أن هاجم البابليون القدس وسبوا أهلها واستولوا على ما فى الهيكل من ثروة سنة 587 ق. م. (1).

وقصة هذا الهجوم أو ما يسمى فى التاريخ (السبى البابلى الثانى) هو أن المملكة اليهودية بعد النبى سليمان عليه السلام افتقرت إلى مملكة شمالية تسمى (السامرة) ومملكة جنوبية تسمى (يهوذا) وقد انقسمت أسباط بنى إسرائيل بينهما إذ حكم السامرة عشرة أسباط وحكم يهوذا سبطان، وكانتا تحت النفوذ الآشورى ومن ثم البابلى، وفى بداية القرن السادس قبل الميلاد احتل المصريون المملكتين بمساعدة بعض اليهود، فانتقم لذلك البابليون بقيادة

ص:140

(نبوخذ نصر) فقاموا بغزو فلسطين لمرتين وأجلوا اليهود عنها، المرة الأولى كانت في عام (597 ق.م) والثانية عام (587 ق.م) ودمروا الهيكل واخذوا اليهود أسرى إلى بابل، وقد تراوحت تقديرات أعداد الأسرى ما بين عشرات الآلاف إلى مئتي ألف يهودى اخذوا قسرا إلى بابل في الغزو الثانى.

وقد ورد في التوراة وصفا مفصلا للبناء الذى أسموه (الهيكل)، إذ ورد:

1. وكان فى سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل فى شهر زيو وهو الشهر الثانى أنه بنى البيت للرب. 2 والبيت الذى بناه الملك سليمان للرب طوله ستون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وسمكه ثلاثون ذراعا. 3 والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعا حسب عرض البيت وعرضه عشر أذرع قدام البيت. 4 وعمل للبيت كوى مسقوفة مشبكة. 5 وبنى مع حائط البيت طباقا حوالية مع حيطان البيت حول الهيكل والمحراب وعمل غرفات فى مستديرها. 6 فالطبقة السفلى عرضها خمس أذرع والوسطى عرضها ست أذرع والثالثة عرضها سبع أذرع لأنه جعل للبيت حوالية من خارج أخصاما لثلا تتمكن الجوائز فى حيطان البيت. 7 والبيت فى بنائه بنى بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمع فى البيت عند بنائه منحوت ولا معول ولا أداة من حديد. 8 وكان باب الغرفة الوسطى فى جانب البيت الأيمن وكانوا يصعدون بدرج معطف إلى الوسطى ومن الوسطى إلى الثالثة. 9 فبنى البيت وأكمله وسقف البيت بالواح وجوائز من الأرز. 10 وبنى الغرفات على البيت كله سمكها

ص: 141

خمس أذرع وتمكنت في البيت بخشب أرز 11 وكان كلام الرب إلى سليمان قائلا 12 هذا البيت الذي أنت بانيه إن سلكت في فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فإني أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أيبك. 13 وأسكن في وسط بنى إسرائيل ولا أترك شعبي إسرائيل 14 فبنى سليمان البيت وأكمّله. 15 وبنى حيطان البيت من داخل بأضلاع أرز من أرض البيت إلى حيطان السقف وغشاه من داخل بخشب وفرش أرض البيت بأخشاب سرو. 16 وبنى عشرين ذراعا من مؤخر البيت بأضلاع أرز من الأرض إلى الحيطان. وبنى داخله لأجل المحراب أى قدس الأقداس. 17 وأربعون ذراعا كانت البيت أى الهيكل الذى أمامه. 18 وأرز البيت من داخل كان منقورا على شكل قثاء وبراعم زهور. الجميع أرز. لم يكن يرى حجر. 19 وهيا محرابا في وسط البيت من داخل ليضع هناك تابوت عهد الرب. 20 ولأجل المحراب عشرون ذراعا طولا وعشرون ذراعا عرضا وعشرون ذراعا سمكا. وغشاه بذهب خالص وغشّى المذبح بأرز. 21 وغشّى سليمان البيت من داخل بذهب خالص. وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب. وغشاه بذهب. 22 وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل المذبح الذى للمحراب غشاه بذهب. 23 وعمل في المحراب كرويين من خشب الزيتون علو الواحد عشر أذرع. 24 وخمس أذرع جناح الكروب الواحد وخمس أذرع جناح الكروب الآخر. عشر أذرع من طرف جناحه إلى طرف جناحه. 25 وعشر أذرع الكروب الآخر. قياس واحد وشكل واحد للكرويين. 26 علو الكروب

الواحد عشر أذرع وكذا الكروب الآخر. 27 وجعل الكرويين فى وسط البيت الداخلى وبسطوا أجنحة الكرويين فمس جناح الواحد الحائط وجناح الكروب الآخر مس الحائط الآخر وكانت أجنحتهما فى وسط البيت يمس أحدهما الآخر. 28 وغشّى الكرويين بذهب. 29 وجميع حيطان البيت فى مستديرها رسمها نقشاً بنقر كرويم ونخيل وبراعم زهور من داخل ومن خارج. 30 وغشّى أرض البيت بذهب من داخل ومن خارج. 31 وعمل لباب المحراب مصراعين من خشب الزيتون. الساكف والقائمتان مخرسة. 32 والمصراعان من خشب الزيتون. ورسم عليهما نقش كرويم ونخيل وبراعم زهور وغشاهما بذهب ورصع الكرويم والنخيل بذهب. 33 وكذلك عمل لمدخل الهيكل قوائم من خشب الزيتون مربعة 34 ومصراعين من خشب السرو. المصراع الواحد دفتان تنطويان والمصراع الآخر دفتان تنطويان. 35 ونحت كرويم ونخيلاً وبراعم زهور وغشاهما بذهب مطرق على المنقوش. 36 وبنى الدار الداخلية ثلاثة صفوف منحوتة وصفا من جوائز الأرز. 37 فى السنة الرابعة أسس بيت الرب فى شهر زيو. 38 وفى السنة الحادية عشرة فى شهر بول وهو الشهر الثامن أكمل البيت فى جميع أموره وأحكامه. فبناه فى سبع سنين).

وبعد التدمير الأول للهيكل ومدينته وبقاء اليهود فى سبيهم فى بابل سبعين عاماً، نشبت الحرب بين كورش الفارسى (المسمى سايروس) وبابل، إنتصر على إثرها كورش ودخل بابل، محرراً لليهود ومُعيداً لهم إلى القدس.

ومرّت أحوال مختلفة على المدينة، لكن الوضع لم يختلف بالنسبة للهيكل، فقد كان اليهود يقيمون مراسيم دينهم على الجبل نفسه إلى العام (20 ق.م) إذ أنه وفي(1) (عهد الرومان حلت أسرة هيرودس محل المكابيين، وقد استطاع هيرودس الكبير (72-4 ق.م) القضاء على آخر ملوك المكابيين ليثأر لأبيه الذي كان ضحية عدوانهم، وحاول هيرودس أن يُرضى اليهود فبنى هيكلًا على نسق هيكل سليمان سنة 20 ق.م، وقد ظل هذا الهيكل حتى سنة 70 م حيث دمر تيطس الروماني مدينة أورشليم وأحرق الهيكل على أثر ثورة قام بها اليهود بالمدينة، وهذا هو التدمير الثاني للمدينة والمعبد. وإذا كان تيطس قد اكتفى بتدمير المدينة والهيكل وأبقى الحطام مكانه فإن أدريانوس أزال معالم المدينة ومعالم الهيكل تماما سنة 125 م، إذ حرث الأرض وسواها وزرعها كما تخلص تماما من اليهود بها بين قتل وتشريد، فلم يبق بها يهودى واحد، ورحل من استطاع الهرب منهم إلى مصر وشمالي إفريقية وإسبانيا وأوربا. وأقام الإمبراطور الروماني أدريانوس مكان الهيكل اليهودى هيكلًا وثنيًا باسم جوبيتار Jupiter رب الآلهة عند الرومان إذ لم تكن المسيحية قد اعترف بها بعد، وبقي هذا الهيكل إلى أن قامت المسيحية فى أورشليم، فدمره المسيحيون من أساسه فى عهد الإمبراطور قسطنطين(2).

من هنا فإن (المحراب) مصطلح معروف يسمى به أقدس مكان من

ص:144

1-1 (1) مقارنة الأديان، اليهودية - الدكتور أحمد الشلبي - ص 86

2-2 (2) العهد القديم - سفر الملوك الأول - الإصحاح السادس

الهيكل وهي غرفة التابوت والتي كانت خلوة الأنبياء والصدّيقين وتسمى تارة (قدس الأقداس) وقد عرفه أهل الكتاب بقولهم (1) (القدس وقدس الأقداس: القسم الخارجى والداخلى من المسكن وكان فى القدس مائدة خبز الوجوه والمنارة ومذبح البخور وقد يُسمى المحراب قدساً على أنه يُسمى غالباً قدس الأقداس)، والذي ذكر فى التوراة فى مواضع عديدة منها:

16 وبنى (واقطع) عشرين ذراعاً من مؤخر البيت بأضلاع أرز من الأرض إلى الحيطان. وبنى داخله لأجل المحراب أى قدس الأقداس.

17 وأربعون ذراعاً كانت البيت أى الهيكل الذى أمامه. (التوراة - سفر الملوك الأول - الإصحاح السادس).

19 وهياً محراباً فى وسط البيت من داخل ليضع هناك تابوت عهد الرب. (التوراة - سفر الملوك الأول - الإصحاح السادس).

20 ولأجل المحراب عشرون ذراعاً طولاً وعشرون ذراعاً عرضاً وعشرون ذراعاً سمكاً. وغشاه بذهب خالص وغشّى المذبح بأرز. (التوراة -

سفر الملوك الأول - الإصحاح السادس).

21 وغشّى سليمان البيت من داخل بذهب خالص. وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب. وغشاه بذهب. (التوراة - سفر الملوك الأول -

الإصحاح السادس).

22 وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل المذبح الذى للمحراب غشاه بذهب. (التوراة - سفر الملوك الأول - الإصحاح

السادس).

ص:145

31 وعمل لباب المحراب مصرعين من خشب الزيتون. الساكف والقائمتان مخمسة. (التوراة - سفر الملوك الأول - الإصحاح السادس).

من هنا فما ذُكر في القرآن باسم (المحراب) لا يمت بصلة لما في أذهاننا وأذهان بعض المفسرين من أنه المحراب الذي في مساجدنا! كيف ذلك والمحراب الإسلامي كطراز بناء مميّز مخروطى الشكل لم يظهر للوجود إلا في القرن الثاني للهجرة على ما قاله المؤرخون، وهذا بعد زمان داود عليه السلام بأكثر من ألف عام!

رسم تقريبي للهيكل الذى بناه داود عليه السلام

ص:146

معانى استعمال (نظر وبصر) ومشتقاتهما فى القرآن

كثيرة هى المفردات القرآنية التى تتبادل المعانى مع غيرها لتكتشف عند تحليلها نكتاً جميلة تزيد القرآن رونقاً، ومن هذه المفردات مفردتا النظر والبصر حيث جاءت مفردة (بصر) ومشتقاتها فى القرآن 147 مرة بينما جاءت مفردة (نظر) ومشتقاتها فى القرآن 127 مرة ولكى نحيط بجزء من معانى هاتين المفردتين سنبدأ بالمعاجم القرآنية لنحاول الإحاطة بالمعانى التى تعطىها هاتان المفردتان، قال الراغب الأصفهانى فى معنى نظر (النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشئ ورؤيته وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية يقال نظرت فلم تنظر أى لم تتأمل ولم تترو) (1)...

وقال الراغب الأصفهانى فى معنى بصر (البصر يقال للجارحة الناظرة

ص:147

نحو قوله تعالى "كلمح البصر - وإذ زاغت الأبصار" وللقوة التي فيها ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر(1)...

إذن معانى النظر: -

عمل الجارحة (العين) وإعمال قوتها فى الموجودات الكثيفة القابلة للرؤية.

مثل قوله تعالى:

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ (التوبة: من الآية 127).

وقوله تعالى:

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (الأعراف: من الآية 143).

وقوله تعالى:

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (الصفوات: 88).

التأمل والفحص أى الانتظار.

مثل قوله تعالى:

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ

ص: 148

نُورِكُمْ (الحديد: من الآية 13)..

قال الطوسي في التبيان (أى انتظرونا)(1)

وقوله تعالى:

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (السجدة: 30)..

وقوله تعالى:

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَالْوَأَنزِلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (الأنعام: 8).

قال المولى محسن الفيض الكاشاني في التفسير الصافي (لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين)(2).

المعرفة الحاصلة بعد الفحص والتي نعبر عنها بالرؤية نقول (رأيت أن افعل كذا).

مثل قوله تعالى:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (الأنعام: 11).

وقوله تعالى:

انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (النساء: 50).

ص: 149

1- (1) ج 1 - ص 128

2- (2) ج 2 ص 108

وقوله تعالى:

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (الاسراء: 48).

أما معانى البصر: -

الجراحة الباصرة (العين).

كقوله تعالى:

وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (النحل: من الآية 77).

وقوله تعالى:

إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (الأحزاب: 10)..

قال الشيخ الطبرسى فى تفسيره (وإذ زاغت الأبصار أى مالت عن كل شىء فلم تنظر إلا عدوها مقبلاً من كل جانب) (1)

قوة الرؤية للموجودات القابلة للرؤية والتي تمتلكها الجراحة. مثل قوله تعالى:

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (القصص: 11).

وقوله تعالى:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

ص: 150

أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا (لأعراف: من الآية 179).

وقوله تعالى:

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئاً (مريم: 42).

لقوة القلب المعنوية والقادرة على معرفة الحقائق.

كقوله تعالى:

فَدَجَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (الأنعام: 104).

وقوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمِداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (القصص: 72).

وقوله تعالى:

فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (الواقعة: 85)..

والآية الأخيرة جديرة بالتأمل (وكل آيات الله جديرة بالتأمل)..

فعندما يقول سبحانه (فلولا- إذا) فهي بمعنى قولك (هلاً إذا).. قال الفراء (كلما رأيت في الكلام "لولا" ولم تر بعدها اسماً فهي بمعنى هلاً) (1)..

ص: 151

فيكون المعنى (هَلَّا إذا بلغت الروح الحلقوم وانتم حينئذٍ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون)... فلو كانت (تبصرون) هنا تعنى (تنظرون) لم يكن للكلام أى معنى! ولكان المعنى كالتالى: وأنتم حينئذٍ تنظرون ونحن أقرب إليه ولكن لا تنظرون!.. وإنما جاء بكلمة (تبصرون) لنكتة فى الآية تتصل بمباحث جمة تتعلق بالغيب والعالم غير المشهود من حولنا.. فالإبصار يأتى لما يرى ولما لا يرى أى لما يرى بالعين ولما يرى بالقلب بينما يأتى النظر لما يرى بالعين فقط.. فالآية هنا تريد أن تقول: هَلَّا إذا بلغت (الروح) الحلقوم وانتم حينئذٍ تنظرون (له ولما حولكم من المحسوسات) ونحن أقرب إليه (منكم) ولكن لا- تبصرون (ما لا تحسون به من الكائنات القريبة منه والتي تحضره)... ولذلك سُمى بالمُحْتَضَّر فلو كان اسمه مُحْتَضَّرًا لأن الناس تحضره لسمى المريض كذلك مُحْتَضَّرًا ولكنه سُمى كذلك لأن ملائكة الموت تحضره... والآية تصور تصويراً عجيباً (ومسكوتاً عنه) لما يحدث فى تلك اللحظات والتي هى اللحظات الأخيرة للإنسان فى الحياة وهو يضع قدمه فى العالم الآخر ليجتاز عقبة الموت.. وهى تفتح باباً واسعاً للسؤال.. من هو الذى أقرب إليه من أهله بتلك اللحظة؟ وما دوره؟ وكيف يفعل ذلك؟ وما الذى يرافق ذلك من أهوال تحيط بالمحتضر فتشغله عن أهله؟... وقد يكون هذا هو معنى الحديث الشريف: الناس نيام.. فإذا ماتوا انتبهوا..

بقى أن نقول إن بعض الألفاظ وردت بالقرآن وهى تحتل أكثر من معنى مثل قوله تعالى حكاية عن السامرى:

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (ط - ه: 96) ..

فاستعمال كلمة (بَصُرْتُ) إما يكون بمعنى رأيت (بالعين) فيكون المعنى: رأيت ما لم يراه الناس.. كما احتمله الشيخ الطوسي في تفسيره (1)

وإما أن يكون بمعنى علمت (أى بقوة غير طبيعية) فيكون المعنى: علمت بما لم يعلموا به.. كما احتمله الطبرسى في تفسيره (2) إضافة لاحتماله المعنى الأول. أما لماذا أتت الكلمة بهذا الوضع (بصرت) ولم يقل (أبصرت) فقد يكون ذلك لنكتة كامنة في القصة كما قال تعالى:

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (القصص: 11).

فالموردان اللذان انفردا بهذه اللفظة بصيغة المفرد في القرآن يشتركان بأن صاحبيهما (أخت موسى والسامرى) كانا يختلسا الرؤية، فأخت موسى كانت تتبعه وتقص أثره من حافة النهر وهو في الوعاء الذى وضعت فيه أمه وألقته فى ماء النيل، أما السامرى فقصته معروفة حيث إنه انفرد بان رأى ما لم يره غيره من آثار الرسول (جبريل) على الأرض وهذا بمنزلة الاختلاس والانفراد بالنظر (هذا إن كانت (بصرت بما لم يبصروا به) تعنى رأيت ما لم يروه.. أما لو كانت تعنى (علمت بما لم يعلموا به من الآثار العجيبة التى يتركها حافر الفرس الذى كان ينقل الرسول) كما جاء فى الروايات فالمعنى يكون أقرب للسرية

ص: 153

1- (1) التبيان - ج 7 - ص 203

2- (2) مجمع البيان - ج 7 - ص 51

حيث ان العلم قوة باطنية تناسب استعمال (بصرت) هنا.. والله أعلم.. علماً أن لفظة بصير إنفردت بالمجىء كصفة لله في 48 مورداً قرآنياً،

مثل قوله تعالى:

وَ اللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (البقرة: من الآية 96)..

وقوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: من الآية 110)

وقوله تعالى:

وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: من الآية 233).

وقوله تعالى:

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (الملك: 19).

وقوله تعالى:

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (المجادلة: 1)..

وقوله تعالى:

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (فصلت: من الآية 40).

بينما أتت كلمة (نظر) بمورد واحد منسوبة لله وهو قوله تعالى:

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (يونس: 14).

ص: 154

(الإنسان والبشر) في القرآن الكريم

استعملت كلمة (بشر) ومشتقاتها 37 مرة في القرآن الكريم..

واستعملت كلمة (إنس) ومشتقاتها في 90 مورداً في القرآن الكريم..

قال الراغب في مفرداته في مادة بشر (البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه.... وجمعها بشر وأبشر وعبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع) مفردات القرآن ص 47.. وقال ابن السكيت الأحوازي (والبشر جمع بشرة وهو ظاهر الجلد والبشر أيضاً الخلق)(1)

وقال الراغب في مادة إنس (الإنس خلاف الجن، والإنس خلاف النفور، والإنسى منسوب إلى الإنس يقال ذلك لمن كثر أنسه ولكل ما يؤنس به ولهذا قيل إنسى الدابة للجانب الذي يلي الراكب.... والإنسان قيل سمي

ص:155

1- (1) ترتيب إصلاح المنطق - ص 79

بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بانس بعضهم ببعض ولهذا قيل الإنسان مدنى بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه(1) وقال أبو هلال العسكري فى الفرق بين البشر والناس (أن قولنا البشر يقتضى حسن الهيئة وذلك انه مشتق من البشارة وهى حسن الهيئة يقال رجل بشير وامرأة بشيرة إذا كان حسن الهيئة فسمى الناس بشراً لانهم أحسن الحيوانات هيئة)(2).

واللفظان (إنس وبشر) يتبادلان الاستعمال بالقرآن الكريم (على خلاف من قال "أما البشر فقد أطلق على الأنبياء والأصفياء والرسل خاصة" (وإلا فماذا يقول أمام آيات قرآنية وردت وهى تجمع ما بين الأنبياء وأعداءهم بلفظ البشر مثل قوله تعالى:

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (ابراهيم: 11).

فالكلام هنا للرسول فهم يقولون لقومهم (الضالين) بأنهم بشر مثلهم!..

وقوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ (الكهف: من الآية 110).

وكذلك هنا..

ص:156

1- (1) مفردات القرآن ص 28.

2- (2) الفروق اللغوية - ص 102.

وقوله تعالى:

لَا هَيْبَةَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ (الانبياء: من الآية 3).

فهنا الخطاب (للذين ظلموا) هل هذا إلا بشر.. مثلكم؟!.. وسوف نستعرض نماذج تبين أن لفظي بشر وإنسان هما لفظان مترادفان يشيران لنفس الحقيقة والذات لكن من حيثيتين مختلفتين وقد أحسن الراغب الأصفهاني عندما قال في مادة بشر (وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر)⁽¹⁾

معاني استعمال (بشر ومشتقاتها) في القرآن:

استعمل لفظ بشر تارة مجردا عن المدح أو الذم وتارة للذم:

أما استعماله مجردا عن المدح والذم:

ففي قوله تعالى حكاية عن الصديقة مريم عليها السلام:

قَالَتْ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي وُلْدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ (آل عمران: من الآية 47).

وجاءت هذه الآية مرتين بنفس اللفظ وهي تشير إلى أن الصديقة مريم كانت بمعرض الاستفهام واستعملت لفظ بشر للإشارة إلى أنها لم تتزوج حتى يصبح لديها طفل كما هو الأمر الطبيعي لمثلها لما تمتاز به من العفة والطهارة

ص: 157

1- (1) مفردات القرآن - ص 47.

وأشارت هنا بكلمة بشر إلى الذكر خاصة بمعزل عن كونها بمقام المدح أو الذم.

وكذلك فى قوله تعالى:

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (آل عمران: 79).

فاستعمال بشر هنا للإشارة للذات الإنسانية مجردة عن أى عنوانٍ ثانٍ ودليل ذلك انه قال بعد ذلك:

أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ .

فهو بشر قبل أن يؤتیه الله الكتاب والحكم والنبوة..

وقوله تعالى:

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (ابراهيم: من الآية 11).

فالرسل هنا تقول: إن نحن إلا بشر كما انتم بشر لكن الله فضلنا من بعد ذلك ومن علينا بالنبوة والرسالة. فبشر هنا خالية من المدح والذم..
وجاء المدح متأخراً للمقام الاجتباء واليمن الربانى..

استعماله فى مورد الذم:

جاء ذلك فى قوله تعالى حاكيا عن إبليس:

ص:158

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ (الحجر: 33).

فهنا استعمل لفظ بشر للازدراء من قبل إبليس فهو يقول: ما كنت لأسجد لمن هو أوطأ مني:

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (ص: 76).

وقوله تعالى:

وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل: 103).

فكفار قريش هنا كانوا بمعرض التشكيك فقالوا لم يعثه الله بل إنه يأخذ كلامه من بشر مثلنا فيقوله على الله.. فاستعملوا لفظ بشر للتقليل من الشأن..

وقوله تعالى:

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (المؤمنون: 24).

وهي كالمورد السابق في المعنى...

استعمال كلمة إنسان في القرآن الكريم:

يستعمل لفظ إنسان مجردا عن الذم في آيات ومذموما في آيات أخرى..

ص: 159

موارد استعماله مجردا عن الدم:

كما فى قوله تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (الأنعام: 128).

فكلمة (إنس) استعملت مرتين، المرة الأولى للإشارة لكل الإنس والمرة الثانية قال أولياؤهم من الإنس فكانه أشار إلى فئة خاصة ن الأنس.. وفى الاستعمال الأول لا نلاحظ الاستعمال فى مورد الدم بل هو مجرد استعمال للفظ..

وقوله تعالى:

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (النمل: 17).

وهى كما ترى خالية من الدم والمدح

وقوله تعالى:

وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (الذريات: 56).

وقوله تعالى:

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (الرحمن: 56).

ص:160

وقوله تعالى:

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (يوسف: 5).

وقوله تعالى:

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (الإسراء: 53).

وقوله تعالى:

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (الفرقان: 29).

وقوله تعالى:

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (النجم: 39).

2- موارد استعمال اللانسان بمورد الدم: -

كما في قوله تعالى:

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (النساء: 28).

وقوله تعالى:

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (إبراهيم: 34).

ص: 161

وقوله تعالى:

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (النحل: 4).

وقوله تعالى:

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (الإسراء: 11).

وقوله تعالى:

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (الإسراء: 67).

وقوله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (الإسراء: 89).

وقوله تعالى:

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسِئًا (الإسراء: 83).

وقوله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (الكهف: 54).

وقوله تعالى:

ص: 162

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (الحج: 66).

وقوله تعالى:

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (الزخرف: 15).

وقوله تعالى:

إِنَّا عَرَصْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (الأحزاب: 72).

الخلاصة:

1 - إن لفظي (إنسان وبشر) لفظان يطلقان على ذات واحدة بلحاظين.

2 - التسمية (بشر) جاءت حاكية عن جهة الظهور والبيان الخارجى للجسد وعبر عنه بهذا الاسم من باب تسمية الكل بجزئه.

3 - التسمية (إنسان) جاءت حاكية عن الطبيعة الاجتماعية لهذا المخلوق ولكونه يستأنس بالموجودات التي حوله من جنسه أو من باقى الأجناس.

4 - جاء لفظا البشر والإنسان بالقرآن فى موردى الذم تارة والإيراد بدون مدح أو ذم بموارد متعددة، وغالباً ما يكون إيراد اللفظين حاكية عن الذين قالوا وليس عن الله سبحانه وتعالى، فذلك اختلف المراد باللفظ ما بين التجريد من الغاية التي وراءه أو على سبيل الذم والتقليل..

ص: 163

متى يُنفخ في الصور؟!

ذُكر النفخ في الصور في اثني عشر مورداً في القرآن، وكالتالي:

قال تعالى:

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (الكهف: 99).

وقال تعالى:

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (المؤمنون: 101).

وقال تعالى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (ي - س: 51).

وقال تعالى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ (الزمر: من الآية 68).

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (الزمر: من الآية 68).

ص: 164

وقال تعالى:

وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (ق: 20).

وقال تعالى:

فَإِذَا نُفِّخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (الحاقة: 13).

وقال تعالى:

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (الأنعام: 73).

وقال تعالى:

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (ط - ه: 102).

وقال تعالى:

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ (النمل: 87).

وقال تعالى:

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (النبأ: 18).

لم يَرْتَبِ المفسرون في كون كل هذه الموارد تتكلم عن قيام إسرائيل بنفخ الصور النفختين اللتين ذكرهما تعالى في سورة الزمر بقوله:

وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ

ثُمَّ نَفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (الزمر: 68).

ولكنهم واجهوا عقبة حقيقية في قوله تعالى في سورة الحاقة:

فَإِذَا نُفِّخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (الحاقة: 13).

فكيف يقول في (الزمر) بأن النفخ يحصل مرتين ويقول هنا بأن النفخ يحصل مرة واحدة؟! لذا فلم يجدوا محيصاً غير أن يقولوا إن النفخة في سورة الحاقة هي إحدى النفختين في سورة الزمر (1)!! ولكنهم اختلفوا اختلافاً كبيراً بيناً آية واحدة منهما هي! هل هي النفخة الأولى أم النفخة الثانية من الزمر!! فانقسموا إلى فريقين:

منهم من قال بأنها النفخة الأولى كما هو الحال مع:

الطوسى فى التبيان والطبرى فى مجمع البيان والمجلى فى بحاره (واحتمل أنها الثانية على ضعف) والكاشانى فى التفسير الأصفى ومكارم الشيرازى فى الأمثل والطبرى فى تفسيره والثعلبى فى تفسيره والواحدى فى تفسيره والسمعانى فى تفسيره والبغوى فى تفسيره والنسفى فى تفسيره وعطاء والرازى صاحب التفسير الكبير والقرطبى فى تفسيره عن ابن عباس والبيضاوى فى تفسيره والغرناطى الكلبى فى تفسيره وأبو حيان الأندلسى فى تفسيره البحر المحيط والآلوسى فى تفسيره وغيرهم.

ومنهم من قال بأنها النفخة الثانية كما هو الحال مع:

الطباطبائى فى الميزان ومقاتل بن سليمان

ص: 166

فى تفسيره وأبو حاتم الرازى فى تفسيره وابن زُمنين فى تفسيره والجلالين فى تفسيرهما والسيوطى فى الدر المنثور وغيرهم.
وقال السيد عبد الله شبر فى تفسيره (هى الأولى أو الثانية!)، ولو كانت النفخة أحد نفختى الزمر فطبعاً ستكون إما الأولى أو الأخرى!!
إلا أننا سنضع الألفاظ على مقياس الاستعمال القرآنى لنرى كم نفخة ستكون قبل يوم القيامة.

فالآية الأولى (مورد سورة الكهف) وهى مورد الكهف لا شك بأنها تقصد النفخة الثانية لكونه تعالى يقول بعدها:
وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (الكهف: 100).

وهذا لا يكون إلا فى يوم القيامة.

والآية الثانية (مورد سورة المؤمنون) تشير إلى النفخة الثانية بلا شك لكونه سبحانه قال بعدها:

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ
وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) المؤمنون 102-104

وها لا يحدث إلا فى يوم القيامة طبعاً.

وأما الآية الثالثة (مورد سورة يس) وهو قوله تعالى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (ي - س: 51)

ص: 167

فهذا واضح في كونها النفخة الثانية لكونه تعالى يقول بعدها بآيتين:

فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ سَيِّئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (ي - س: 54).

وهذا يحصل عند الحساب في يوم القيامة.

وأما مورد سورة (ق) وهو قوله تعالى:

وَأُنْفِخْ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (ق: 20)

فهو واضح في يوم القيامة وكونها النفخة الثانية إذ أنه سبحانه يقول بعدها:

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) سورة ق 21-24.

وهذا لا يحدث إلا في يوم القيامة بعد النفخة الثانية.

وعلى ذلك باقى الموارد إلا في قوله تعالى:

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَقَرَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ (النمل: 87).

وقوله تعالى:

وَأُنْفِخْ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ (الزمر: من الآية 68).

ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (الزمر: من الآية 68).

وقوله تعالى:

فَإِذَا نُفِّخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (الحاقة: 13).

وقوله تعالى:

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (ط - ه: 102).

فمورد الزمر واضح في أن هناك نفختان للصور متعاقبتان، الأولى يُصعق بسببها من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء ربك، وبعد النفخة الثانية يقوم الخلق المصعوق لينظروا ماذا حدث ثم بعدها تبدأ سلسلة الأحداث الكونية بالتتابع والتي بها يعلن عن قيام يوم الحساب. لكن الكلام في مورد (النمل) ومورد (الحاقة) ومورد (ط - ه)، إذ أن مورد النمل يتكلم عن (فزع) وليس الفزعُ صَعَقًا ولا - قياماً إذ يقول تعالى:

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَّوَهُ دَاخِرِينَ (النمل: 87).

والآية ليست من ضمن السياق السابق ولا اللاحق، مما يجعلنا نرجح وجود نفخة ثالثة لم يوردها سبحانه ضمن مورد (الزمر) وأوردها ضمن مورد النمل، وبعد ما توصلت لتلك النتيجة وجدت أن هناك ما يفيد ذلك في قول مجهول النسبة! إذ يقول المجلسي (1) (وقيل: إنه ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفحات: النفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق التي يصعق من في السموات والأرض بها فيموتون، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين فيحشر الناس بها من قبورهم "فجمعناهم جمعاً" أي حشرنا الخلق كلهم يوم القيامة في صعيد واحد).

ص: 169

وروى أهل السنة مثل ذلك عن أبي هريرة إذ يقول(1) (أن المَلَك له فى الصور ثلاث نفخات، نفخة الفزع وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور) وهذا ما يدل عليه ظاهر القرآن الكريم. أما مورد (طه) فهو قوله تعالى:

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (ط - ه: 102).

ولو وضعنا الآية فى سياقها الطبيعى فسنعلم المخاطب بها وزمنه، إذ يقول تعالى:

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) ط - ه 102-108.

فهذه النفخة ليست من نفخات يوم القيامة بل قد تكون نفخة للظهور المقدس للإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف، ف - (المجرمون) مجموعة متميزة ورد ذكرها فى الظهور فى قوله تعالى:

وَامْتَارُوا الْيَوْمَ أَيَّهَا الْمُجْرِمُونَ (ى - س: 59).

والمجرمون هم أعداء متميزون للأنبياء، يكون حسابهم فى الرجعة قبل يوم القيامة، كما فى قوله تعالى:

ص: 170

يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيْمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ (الرحمن: 41).

وقوله تعالى:

وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (إبراهيم: 49).

وقلنا هناك أن لكل نبي مجرم يعاديه وينصب له الحرب، قال تعالى:

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَ نَصِيرًا (الفرقان: 31).

لذلك فإن هؤلاء المجرمين يرجعون في الرجعة بعد نفختهم، نقل الحلبي في مختصر بصائر الدرجات (1) (عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً) قال ليس أحد من المؤمنين قتل إلا ويرجع حتى يموت ولا يرجع إلا من محض الإيمان محضاً ومحض الكفر محضاً) فهؤلاء المجرمين مُحَضُّوا الكفر محضاً فيرجعون في الرجعة ولهم نفخة ترجعهم.

لذا قال تعالى هنا:

وَ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَا أَمْتًا (107) طه 105-107.

فهنا تكون الجبال متساوية مع الأرض حتى تُظْهَرِ الْأَرْضُ بِرُكْتِهَا، وهو استواء للبركة المقبلة وليس هذا المورد كما قال تعالى:

وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (الحاقة: 14).

ص: 171

لكون الدك استواء للعذاب وليس للبركة، وهذا يحصل فى يوم القيامة، وأما قوله تعالى:

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ .

فقد ورد أن الداعى هو أمير المؤمنين عليه السلام (1) أو القائم عليه السلام (2).

لذا فمورد سورة الحاقة وهو قوله تعالى:

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (الحاقة: 13).

لا يمكن أن نقول عنه بأنه غير النفخة الأخيرة، لكونه تعالى يقول بعدها مباشرة:

وَ حُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) الحاقة 14-15.

والواقعة التى تقع عندئذ هى ما قال عنها تعالى:

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كاذِبَةٌ (2) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كاذِبَةٌ (2) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (4) وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6) الواقعة 1-6

والفرق بين كلامنا هنا وما قالوه عن هذه النفخة هو أننا استدللنا قرآنيا على ذلك. والله اعلم.

ص: 172

1- (1) بحار الأنوار - المجلسى - ج 36 - ص 127

2- (2) بحار الأنوار - المجلسى - ج 34 - ص 116

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فِي الْقُرْآنِ

الذين أُوتوا العلم مركب قرآني يتحدث عن جماعة جرى التطرق اليهم بالمبنى للمجهول فالله جل وعلا لم يؤتهم العلم مباشرة - كما الأنبياء - بل قد يكون بالواسطة وقد ورد هذا المصطلح تسع مرات وفي مورد واحد اضيف اليه (الايمان) كما في قوله تعالى:

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (النحل: 27).

قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (الاسراء: 107).

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الحج: 54).

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (القصص: 80).

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (العنكبوت: 49).

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الروم: 56).

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (س - بآ: 6).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (محمد: 16).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَدُوا فِئَاجِمْ يَفْسَدُ حِ الْوَالِدِ وَالْوَالِدَاتُ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَكِنْ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مَلَكُوتٌ بَلْ لِيُذَكَّرَ الَّذِينَ يَخْتَوُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة: 11).

ومن الموارد التسعة نلاحظ ما يلي:

إنهم ممدوحون في كل الموارد فهم من المؤمنين الكمل

إنهم شهداء يوم القيامة بشهادة قوله تعالى:

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (النحل: 27).

وقوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ

ص: 174

فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَ لِكِنِّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الروم: 56).

ان بعضهم كان من الصحابة بدليل قوله تعالى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (محمد: 16).

ومورد هذه الآية هو في المنافقين فالإجماع على كون سورة محمد مدنية فهؤلاء الذين يستمعون حتى اذا خرجوا سألوا عن معنى كلام النبي صلى الله عليه وآله فهؤلاء المستمعين هم من المنافقين أو من مرضى القلوب إذ يقول الله تعالى بعد هذه الآية:

وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْدَّ رَاطِهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَ مَثْوَاكُمْ (19) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى السَّيِّئَاتُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمَلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) .

ص: 175

فآيات تتكلم عن الارتداد وعن مرض القلب وقد استدللنا على كون مرضى القلوب يفترون عن المنافقين بكونهم ارتدوا سرا بعد ما آمنوا فانتبه لقوله تعالى (والله يعلم إسرارهم) فهؤلاء المستمعين يسألون (الذين أوتوا العلم) بعد خروجهم من النبي صلى الله عليه وآله.

ان مقام الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ اعلى من مقام الباقيين من الَّذِينَ آمَنُوا بدليل قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَدُوا بَلَدًا فَمَنْ يَفْسُدْهَا فَمَنْ كَانَ يَبْنِيهَا جَدَّ بَدْرًا وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَعَّحُوا فَأَسْدُوا إِلَيْهَا فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (المجادلة: 11).

ومن درجاتهم التي في هذه الآيات:

هم مخبتون الى ربهم وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ (الحج: 54).

وفسر الاخبار هنا: أى فتسلم وتطمئن وتخضع قلوبهم قد وعدهم الله برفعهم درجات:

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة: 11).

الصحابة منهم مصدقون لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله بلا مرء واختبار وإنما يسأل عن الدليل من كان من خارج الأمر كيف والأمر نزل في بيوتهم؟!

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (س - با: 6).

ولما كان العلم هو علم الكتاب والله يقول:

مَا فَزَّنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام: من الآية 38).

وسواء كان الكتاب هنا هو اللوح او هو العلم اللدني او هو علم القرآن فهذه المجموعة تحمل هذا العلم بالواسطة فهم قد (اوتوا العلم) ولم يرد أن الله (آتاهم العلم) بشكل مباشر فالله يؤتى علمه للأنبياء بشكل مباشر عن طريق الوحي كما في قوله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (النمل: 15).

وبقرينة التعبير القرآني عما كان عند وصي سليمان بأنه عنده علم من الكتاب (النمل: من الآية 40) لكونه ليس نبيا وبقرينة قوله تعالى:

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْنَا مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (الرعد: 43) وقد استفاضت الروايات واستدللنا عليها بأن المقصود هنا هو أمير المؤمنين عليه السلام

فيكون (الذين اوتوا العلم) هم اوصياء النبي صلى الله عليه وآله فمنهم من كان صحابيا كأمر المؤمنين عليه السلام وهو الصديق الأكبر الذي لم يشك ولم يسأل عن بينة لتصديق النبي صلى الله عليه وآله وكذلك الحسن والحسين،

وهو الاذن الواعية التي كانت تعلم ما يقول النبي بينما كان بعضهم عم صم لا يفقهون فيسألونه.

وقد تظافت الأخبار عن أن ما يروونه من المغيبات هو تعلم من ذى علم فهذا أمير المؤمنين عليه السلام لما تكلم عن بعض المغيبات قال له رجل كلبى: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام:

(يا أخوا كلب ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذى علم. وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدد الله سبحانه بقوله إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ الْآيَةِ، فيعلم سبحانه ما فى الأرحام من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل، وسخى أو بخيل، وشقى أو سعيد، ومن يكون فى النار حطبا، أو فى الجنان للنبيين مرافقا. فهذا علم الغيب الذى لا- يعلمه أحد إلا- الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لى بأن يعيه صدرى، وتضطمّ عليه جوانحى)(1).

وقد تظافت رواية الجامعة وهى أمالى رسول الله صلى الله عليه وآله بنخط امير المؤمنين عليه السلام فقد روى عن أبى بصير قال (دخلت على أبى عبد الله عليه السلام فقلت له انى أسئلك جعلت فداك عن مسألة ليس هيهنا أحد يسمع كلامى؟

فرجع أبو عبد الله عليه السلام سترا بينى وبين بيت اخر فاطلع فيه ثم

ص:178

قال يا أبا محمد سل عما بدا لك قال قلت جعلت فداك ان الشيعة يتحدثون ان رسول الله صلى الله عليه وآله علم عليا عليه السلام بابا يفتح منه الف باب، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا محمد علم والله رسول الله عليا الف باب يفتح له من كل باب الف باب، قال: قلت له والله هذا لعلم! فنكت ساعة في الأرض ثم قال: إنه لعلم وما هو بذلك، ثم قال يا أبا محمد وان عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة؟! قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة؟ قال صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله واملاء من فلق فيه وخطَّ على يمينه فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش وضرب بيده إلى فقال: تأذن لي يا أبا محمد قال: قلت: جعلت فداك إنما انا لك اصنع ما شئت، قال: فغمزني بيده فقال حتى أرش هذا كأنه مغضب، قال: قلت: جعلت فداك هذا والله العلم، قال: إنه لعلم وليس بذلك ثم سكت ساعة قال: إن عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر مسك شاة أو جلد بعير قال قلت جعلت فداك ما الجفر قال وعاء احمر أو ادم احمر فيه علم النبيين والوصيين قلت هذا والله هو العلم قال: إنه لعلم وما هو بذلك ثم سكت ساعة ثم قال وان عندنا لمصحف فاطمة عليه السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة قال مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد إنما هو شيء املاها الله وأوحى إليها قال قلت هذا والله هو العلم قال إنه لعلم وليس بذاك قال ثم سكت ساعة ثم قال إن عندنا لعلم ما كان وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة قال

قلت جعلت فداك هذا والله هو العلم قال إنه لعلم وما هو بذاك قال قلت جعلت فداك فأى شىء هو العلم قال ما يحدث بالليل والنهار الأمر بعد الأمر والشىء بعد الشىء إلى يوم القيمة(1).

فهذه مصادر العلم عند أهل البيت وهى تورث كبرا عن كابر فلم ينزل بها جبريل من السماء عليهم بل كلها موروثه عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد جاءت الروايات فى انحصار الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بهم عليهم السلام روى فرات الكوفى فى تفسيره فقال: حدثنى على بن محمد الزهرى معنعنا: عن زيد بن سلام الجعفى قال: دخلت على أبى جعفر عليه السلام فقلت: أصلحك الله إن خيشمة حدثنى عنك أنه سألك عن قوله تعالى: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ مَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ فحدثنى إنك حدثته أنها نزلت فيكم وأنكم الذين أوتيتم العلم. قال: صدق والله خيشمة لها كذا حدثته.(2)

وفى هذا المعنى روايات عديدة.

اعتراض وجواب:

لوقيل إن فى الموارد التسعة مورد لم ينزل فى امة محمد أصلا بل هو فى مورد مدح من كان قبل الاسلام وهو قوله تعالى:

قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ

ص: 180

1- (1) بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص 171-172

2- (2) فسير فرات الكوفى - فرات بن إبراهيم الكوفى - ص 319-320

وبقرينة قوله تعالى (من قبله) أى من قبل القرآن.

الجواب: لم يرد قول لمعصوم فى ذلك اطلاقا وكل ما ورد هى اقوال تفسيرية غير مدعومة بأى القرآن فيبقى احتمال ان المقصود هنا من هؤلاء الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ من قبل نزول القرآن هو أمير المؤمنين عليه السلام فهو كان مع النبى صلى الله عليه وآله قبل البعثة وبعدها فهو يقول عن نفسه (وقد علمتم موضعى من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعنى فى حجره وأنا ولد يضمنى إلى صدره، ويكنفنى إلى فراشه، ويمسنى جسده ويشمنى عرفه. وكان يمضغ الشئ ثم يلقمنيه. وما وجد لى كذبة فى قول، ولا خطلة فى فعل. ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لى فى كل يوم من أخلاقه علما ويأمرنى بالاعتداء به. ولقد كان يجاور فى كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيرى. ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الاسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبى. ولكنك وزير وإنك لعلى خير(1).

ص: 181

فالله جل وعلا قد قرن بالنبي عليه الصلاة والسلام اعظم ملك لديه يسلك به طرق المكارم وعلى صبي يومئذ عنده يتبعه اتباع الفصيل لأمه وبالتالي فعلى لا يفعل الا ما يرضى ويرد النبي صلى الله عليه وآله وهذا دليل على عصمتها من قبل البعثة فعلى مؤمن بالنبي وبما سيأتي به في المستقبل فعلى اتاه الله العلم من النبي قبل نزول القرآن فقد يكون هذا المراد من قوله تعالى:

قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (الاسراء: 107).

والله اعلم.

ص: 182

(الوفاة) و (الموت) و (القتل) فى القرآن

إن الموت والحياة فى القرآن ليس كما نعرف، بل هى مصطلحات لها معانيها الخاصة.

فالموت فى عرف البشر هو انتهاء حياة الإنسان على الوجه الطبيعى جراء بلوغ الأجل، أما القتل فهو إنهاء الحياة بفعل تسببى، قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِدَدَنَا مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (آل عمران: 156).

فالضرب فى الأرض يقابله الموت، والغزو يقابله القتل.

لكن هذه معانى الموت والقتل بالنسبة إلى انتهاء الحياة التى تدب فى البدن على شكل وضائف الأعضاء، وهناك حياة أخرى وموت آخر إذ يقول تعالى:

ص:183

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام: 122).

فالميت هنا هو الضال الذي أصبح حياً بالهداية، وهذا معنى آخر للموت.

على أن الآيات القرآنية تُشعر بأن الحياة والموت بالهداية والضلالة كما هي في الدنيا فهي في الآخرة كقوله تعالى:

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (مريم: 15).

هذا يدل على أن البعض سيبعثون أمواتاً - بمقابلة الذين سيبعثون أحياء - لأنهم غير مهتدين أى سيبعثون ضالين كما قال تعالى:

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْلٌ سَبِيلًا (الاسراء: 72).

بل إنه تعالى يقول:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (آل عمران: 169).

فكل من يموت في سبيل الله فهو حي حتى لو أنهيت نفسه (فيقتلون ويُقتلون)، فهم مقتولون لكنهم أحياء!!

لكن الاستيفاء جاء مع المؤمنين والكافرين سواء، لكون هذا اللفظ يعنى

(الإكمال) لا أكثر، أى أن من جاء أجله فقد حلت وفاته لكونه استوفى ما كتبه الله له من عمر، فنرى الوفاة استعملت مع الأنبياء وهم أحياء كقوله تعالى:

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ وَارْتَمِكْ بِهِ فَإِنِّي مُؤَيَّدُكَ وَارْفَعُكَ إِلَيَّ وَ مَطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (آل عمران: من الآية 55).

وكذلك استعمل مع الظالمين، كما قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ (النساء: من الآية 97).

وقوله تعالى:

الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (النحل: 28).

وكذلك استعمل مع الذين كفروا، كما فى قوله تعالى:

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (الأنفال: 50).

إذن يتحصل لدينا:

متوفى حى فى الدنيا (عيسى عليه السلام)

متوفى مقتول فى الدنيا وهو حى فى الحقيقة كالشهيد ومن ينطبق عليه عنوانه

مُتوفى قُتل في الدنيا مبعوث حيا في الآخرة كالمؤمن المقتول ومن ينطبق عليه عنوانه

مُتوفى مات في الدنيا مبعوث حيا في الآخرة كالمؤمن الذي مات بغير قتل

مُتوفى قتل في الدنيا مبعوث ميتا في الآخرة كالضال المقتول ومن ينطبق عليه عنوانه

وَمُتوفى مات في الدنيا مبعوث ميتا في الآخرة كالضال ومن ينطبق عليه عنوانه

جَنّات الدنيا في عصر الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

ورد في القرآن الكريم ذكر لفظ (الجَنّة) بهيئات مختلفة, وجاء ذكرها مرتباً بثواب المؤمنين والذين آمنوا والمسلمين... الخ, ولكن الملفت للنظر إن هذا المصطلح يرتبط أحياناً بالخلود, ولا يرتبط أحياناً أخرى, بل ارتبط في بعض الموارد بما يدل على الدنيا بعد ذكر الجَنّة! وعندما نقرأ أقوال المفسرين نجد أنهم لا يتطرقون في القرآن إلى لجَنّات الآخرة, والتي تُوجد بعد البعث والحساب. فما تأويل ذلك؟

في البداية سنقوم باستعراض الآيات التي ادّعينا أنها تحتوى على ما أوردناه, ثم نقوم بتحليل ما ورد فيها لنتنتج منها نتيجة مفيدة ولنضع أمام ناظرينا قول النبي صلى الله عليه وآله (معاشر الناس تدبروا القرآن, وافهموا آياته)(1).

ص:187

من الآيات التي ارتبط مصطلح (الجنة) بهيئاته المختلفة فيها بالخلود:

قوله تعالى:

قُلْ أَدْرَاكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا (الفرقان: 15).

قوله تعالى:

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: 25).

قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: 82).

قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (الأعراف: 42).

قوله تعالى:

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (يونس: 26).

قوله تعالى:

ص: 188

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ اخْتَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (هود: 23).

قوله تعالى:

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (الزخرف: 71).

قوله تعالى:

قُلْ أَ نَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (آل عمران: 15).

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعَمَ أَجْرٍ الْعَامِلِينَ (آل عمران: 136).

إلى باقى الموارد، وهى أربعة وثلاثون مورداً فى القرآن الكريم.

أما الموارد التى جاء فيها مصطلح (الجنة) بهيئات مختلفة غير مرتبطة بالخلود فكما فى قوله تعالى:

وَ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (آل عمران: 133).

رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسَّ تَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ

ص: 189

بَعْضَكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَاَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (آل عمران: 195).

وقوله تعالى:

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (الزمر: 74).

وقوله تعالى:

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (الحديد: 21).

قوله تعالى:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (الحجر: 45).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (يونس: 9).

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (46)... وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ (62)... مُدْهَامَاتٍ (الرحمن: 46-64).

إلى آخر الموارد في القرآن الكريم، وهي مما يقرب من ستة وأربعين موردا.

ولو قمنا باستنباط علاقات معينة، تحكم السياق القرآني المرتبط بالخلود

ص:

وغير المرتبط به لنحاول إيجاد الفرق بين المركبين. لاستخلصنا النتائج التالية:

فلو أتينا إلى الآيات التي ارتبطت بها (الجنات) بالخلود لوجدناها تتكلم عن الآخرة بقرائن ذاتية الوجود ومن داخل النص, مثلا فالنص الأول من سورة البقرة التي استشهدنا به نوره في سياقه في المصحف:

قال تعالى:

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) البقرة (23-25).

فآيات وبقرينة المقابلة بين النار المُعدّة للكافرين، ثم مقابلتها بالجنات المرتبطة بالخلود، تتكلم جزما عن دار البقاء في الآخرة, فمنها من يذهب إلى النار ومنهم من يذهب إلى الجنة, وهذا مختص بنتيجة الحساب الأخرى.

وأما الآية الثانية, فسندرجها في سياقها القرآني لنعرف من خلاله ما تعنيه:

قال تعالى:

وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ

ص: 191

يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82). البقرة (80-82)

فالسباق واضح بالكلام عن الخلود في النار والخلود في الجنة، وهو قطعاً لا يكون إلا في الآخرة وبعد الفراغ من الحساب.

والآية الثالثة التي أوردناها لو أدرجت في سياقها لعلمنا أنها لا تختلف عن الآيات السابقة في أنها تعني الآخرة فقوله تعالى:

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27) يونس (26-27).

وهي واضحة في مقابلة الخلود في الجنات بالخلود في النار، وهذا الخلود من الجانبين لا يكون إلا بعد الفراغ من الحساب كما عليه إجماع الأمة.

وكذلك الآيات الباقيات لا تخلو من وجود تصريح أو قرينة قوية تؤدي إلى فهم أن الخلود متى ما ورد مرتبطاً بالجنة فهو في الآخرة، فضلاً عن مدلول الخلود الواضح بنفسه.

أما الآيات التي لا ترتبط (الجنات) فيها بالخلود فنستعرض بعضها لنرى ما تريد إيصاله وما هو الفرق بينها وبين مجموعة الآيات التي ارتبطت بالخلود.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الْأُولَى: وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136). آل عمران 133-136.

فسبحانه وتعالى تكلم في البداية عن جنة عرضها السموات والأرض! وهذا في الدنيا وليس في الآخرة لقوله عن الآخرة يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (إبراهيم: 48) وقد ورد في المأثور عن أهل البيت عليهم السلام أنها تبدل بخبزة بيضاء نقية يأكلون منها حتى يفرغ الناس من الحساب (1).

وسبحانه وتعالى ذكر (السموات والأرض) بالتعريف، فهو يقصد العهد الذهني، وقد أعدت هذه الجنة للمتقين وهم الذين عرفهم بقوله:

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .

ثم اختتم السياق القرآني والمقطع الحالي بقوله:

وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

ص: 193

ثم شرع تعالى بمقطع قرآني آخر بقوله:

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسَّ تَغْفَرُوا لِدُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ فَاُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

فجاء الآن بمصطلح الخلود مرتبطاً بالجنات! وهذا يدعو للتفريق بين (جنة) مفردة عرضها السموات والأرض، وبين (جنات) خالدين فيها.

وأما الآية الثانية: فقوله تعالى:

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ (194) فَاسَّ تَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (آل عمران 194-195).

فلو أكملنا السياق لكانت الآيات تصرح:

لا- يَعْزُتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198) (آل عمران 196-198).

ص: 194

فتراه سبحانه يتكلم عن جنات الخلود بعدها بآيتين، مما يجعلنا نرجح بان ما كان يتكلم عنه فى الآية 195 ليس بجنات أخروية بل دنيوية. إضافة لقوله تعالى بعدها فى ذيل الآية نفسها ثواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ فقال سبحانه ثواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثم قال سبحانه وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ فهذه الجنات ليست هى حسن الثواب وغنما حسن الثواب عند الله أى فى حياة الخلود و جنات الخلود وبهذا يكون هناك ثواب دنيوى بجنات الدنيا وثواب أخروى بجنات الخلود.

وأما الآية الثالثة: فقولته تعالى:

وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (الزمر: 74).

فقد وردت فى السياق التالى:

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَ جِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يظَلْمُونَ (69) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) وَ سَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَ لَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَ سَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

ص: 195

صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) الزمر (71-74).

فالآيات كانت تتحدث عن إشراق الأرض بنور ربها، ثم خلود اللذين كفروا في جهنم وخلود الذين اتقوا في الجنة، ثم نقل سبحانه قول الذين أورثهم الأرض وهم في رياض الجنة!

فأما إشراق الأرض بنور ربها فهو في الدنيا عند ظهور القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، كما جاء في العديد من الروايات كرواية الإمام الصادق التي ينقلها الكاشاني عن المفيد بقوله (1) (عنه عليه السلام قال إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربها واستغنى العباد عن ضوء الشمس ونور القمر وذهبت الظلمة ووضع الكتاب للحساب وجئ بالنبيين والشهداء).

لذا فالآيات 71-72-73 كانت تتكلم عن الحساب والخلود وهو شأن الآخرة ثم رجعت الآيات لتقول:

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (الزمر: 74).

فمتى هذا التورث الذي حصل للأرض؟!

الجواب: هو بالتأكيد عند إشراق الأرض بنور ربها! عند ظهور الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف والذي تعنيه الآية وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (القصص: 5).

ص:

وكذلك فى قوله تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ تَخْلُفَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسَّ تَخَلَّفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور: 55).

إذن فالذى قاله هؤلاء الوارثون كان يتعلق بجنة دنيوية على الأرض سنأتى على مواصفاتها لاحقاً إن شاء الله.

إشكال ورد:

وردت جنات عدن غير مرتبطة بالخلود تارة ومرتبطة به تارة أخرى فكيف يكون ذلك على قولكم بالتفريق؟!

الجواب: نحن نقول بأن كل ما ارتبط المصطلح بالخلود فهو يعنى الآخرة بلا عكس فلو لم يرتبط المصطلح بالخلود فيمكن أن يعنى انه يتحدث عن الآخرة وممكن أن لا يعنى ذلك ويعرف ذلك بدلائل سياقية، أو قرائن واضحة ذاتية.

من هنا فنحن نستنتج أن القرآن الكريم ذكر نوعين من (الجنات) جنات فى الآخرة يُخلد الداخلون فيها، و (جنات) لا ترتبط بالخلود قرآنيًا، يمكن أن تكون فى الآخرة ويمكن أن تكون فى الدنيا، بل إن بعضها ارتبط بآيات تخص ظهور الإمامعجل الله تعالى فرجه الشريف مما يجعلنا نرجح أنها تخص عصر ظهور الإمام.

ص: 197

ولفظ (الجنة) لا- يختص بالآخرة من حيث المصطلح اللغوي، بل هو يعنى البستان، الحديقة الكبيرة، الأرض المعشبة المنبتة، قال الفراهيدى(1) (الجنة هي الحديقة وهي بستان ذات شجر ونزهة) وقال الجوهرى(2) (والجنة، البستان، والعرب تسمى النخيل جنة) وقد يكون هذا اللفظ أى (جنة) أطلق لكون البستان يجتن أى يستر بورق الشجر والنخيل وباقي النباتات(3). وقد ورد فى القرآن فى موارد عدة ذكر الجنة وأراد بها بساتين الدنيا منها:

فى حوار الرجلين اللذين ذكرهما القرآن:

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (الكهف: 32).

ومنها:

قوله تعالى وهو يذكر النعمة التى أنعمها على أهالى سبأ:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبُّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . (س - بآ: 15-16).

ومنها:

ص: 198

1- (1) العين - الفراهيدى - ج 6 - ص 22

2- (2) الصحاح - الجوهرى - ج 5 - ص 2094

3- (3) معجم مقاييس اللغة - احمد بن فارس زكريا - ج 1 - ص 421

ما فى المثل الذى ضربه الله:

أَيُّودٌ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضَعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (البقرة: 266).

ومنها:

ما حكاه الله عن كفار قريش واعتراضهم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم:

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (الفرقان: 8).

إذن فليس بدعا من القول أن هناك أنواعا أخرى من الجنات لم يكشف عنها من قبل، موجودة فى القرآن! بل هى أفضل الجنات فى الدنيا. فهى الجنات التى ستكون لمن يرث الأرض مع القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وقد تكون الآية ناظرة الى ذلك إذ يقول سبحانه:

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا

ص: 199

وَقُتِلُوا لَا كَفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195) لَا يُعْرَضُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198) (آل عمران 194-198).

فهم قد غفر الله لهم وأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار فكيف يرجع فيقول (ولكن الذين اتقوا...!!) ولماذا ارتبط الخلود بالجنات الثانية ولم يرتبط بالجنات الأولى؟! حتى انه ورد في تفسير على بن إبراهيم (والذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم يعنى أمير المؤمنين عليه السلام وسلمان وأبا ذر حين اخرج وعمار الذين أودوا في الله وأودوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب)(1)

وأمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه سيرجعون في الرجعة، إذ قد ورد أن من محض الإيمان محضا ومن محض الكفر محضا يرجعون في الرجعة ليعيشوا في جنات الأرض(2).

ولما كان الله لا يخلف الميعاد ولكونه قال سبحانه:

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً

ص:

1- (1) تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزى - ج 1 - ص 425

2- (2) مختصر بصائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلبي - ص 43

(11) وَيُؤْتِكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) (نوح 10-12).

فارتبط جعل الجنات وإظهارها بالاستغفار والتوبة والإنابة، فكيف في عصر الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف والذي تملأ الأرض قسطاً وعدلاً في زمنه وتتكامل العقول وتبسط الشريعة في الأرض مما هو مذكور في عشرات الروايات الصحيحة؟! إذ أن هناك علاقة وثيقة بين العدل والخير، روى عن الإمام الباقر عليه السلام (1) (ما أوسع العدل إن الناس يتسعون إذا عدل فيهم وتنزل السماء رزقها وتخرج الأرض بركتها بإذن الله تعالى)..

وقد ورد في السنة ما يسند ذلك (جنات عصر الظهور) ومن ذلك:

ما رواه الحاكم النيسابوري (لا تقوم الساعة حتى تعود بلاد العرب مروجاً وأنهاراً) (2).

وما روى من أن (3) (رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم قال: لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويقبض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً).

ص: 201

1- (1) سنن الإمام علي عليه السلام - لجنة الحديث / معهد باقر العلوم عليه السلام - ص 415-416

2- (2) المستدرک - الحاكم النيسابوري - ج 4 - ص 478

3- (3) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام للشيخ علي الكوراني العامل: ج 1، ص 275

والمروج هي الجنات الأرضية التي تجرى من تحتها الأنهار، فأرض العرب القاحلة منذ آلاف السنين ترجع خضراء تملؤها الأشجار والغابات وتتفجر خلالها الأنهار بفعل بركة ظهور الإمام وقيام الحكم العادل.

وروى الأربلي (1) (بإسناده عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يخرج المهدي في أمته يبعثه الله غياثا للناس، تنعم الأمة وتعيش الماشية وتخرج الأرض نباتها ويعطى المال صحاحا).

وروى الكجورى عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما يخص الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف (2) (يملاً الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، حتى لا يبقى كافر إلا آمن، ولا طالح إلا صلح، وتصطليح في ملكه السباع، وتخرج الأرض نباتها، وتنزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً، فطوبى لمن أدرك أيامه وسمع كلامه).

أوصاف جنات عصر الظهور: -

عند ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف سيقوم بفتح أطباق السموات على الأرض، ويقوم بوصل الكواكب المأهولة مع الأرض، إذ ورد في الحديث (أما انه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب أسباب

ص: 202

1- (1) كشف الغمّة - ابن أبي الفتح الأربلي - ج 3 - ص 270

2- (2) الخصائص الفاطمية - الشيخ محمد باقر الكجورى - ج 2 - ص 576

السموات السبع والأرضين السبع...)(1) وجاء في حديث آخر إن الناس في زمنه (يرقون الظلمة)(2) أى يصعدون في الفضاء الخارجى بواسطة الصواريخ والمكوكات الفضائية المتطورة، بل سيكشف الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريفحتما عن (الطرائق السبعة) التى وردت فى سورة (المؤمنون 17) والتى عن طريقها سيتم الوصول الى الكواكب البعيدة بأدنى زمن، وهذا كله ببركة علم الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف والذى ورد إن كل ما جاءت به الرسل وعرفه الناس هو حرفان من العلم، فإذا ظهر القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف اخرج خمسة وعشرين حرفا فأصبحت سبعة وعشرين حرفا من العلم(3). فبفضل حرفين من العلم وصلت وكالات الفضاء العالمية الآن إلى مديات رهيبية فى الاستكشافات الفضائية فكيف سيكون الحال مع سبعة وعشرين حرفا!!

لذا فليس من المستغرب أن تتغير أسس الحياة وطبيعتها على الأرض, سواء للكائنات الذكية (مثل الإنسان) أو حتى لغير الذكية (كالحيوان والنبات) إذا افترضنا القول الشائع بأن الحيوان والنبات كائنات تملك غرائز وصفات وراثية تسير عليها بلا حياذ عن ذلك! فبعض الآيات القرآنية لا يمكن أن تفسر إلا على هذا الفرض كقوله تعالى:

ص: 203

1- (1) بصائر الدرجات - الصفار - ص 429

2- (2) الملاحم والفتن - ابن طاووس - ص 163

3- (3) مختصر بصائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلبي - ص 117

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ
(البقرة: 261).

فهل تظن أن الله سبحانه وتعالى ضرب هذا المثل عبثاً؟! كلا، فسيأتي اليوم الذي تنبت فيه حبة القمح سبع سنابل وتعطي سبع مئة حبة! وما هذا اليوم ببعيد، حتى أننا نرى دولاً مشهورة بالقمح كاستراليا وكندا وأميركا تكون معدلات الإنتاج عندها للدونم الواحد أضعاف معدلات الإنتاج عند غيرها من الدول، وهذا لا يرجع للأرض وحدها ولا للمناخ وحده بل للوسائل المتطورة في الزراعة، فإذا كان كل ذلك بحرفين! فكيف سيكون الحال بسبعة وعشرين حرفاً؟! وهذا التغيير الكوني ذكر في الكتب السماوية السابقة (وبقى رغم تحريفها) كما ذكر في القرآن فقد ورد في إنجيل لوقا(1):

(20) ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها. 21 حينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال. والذين في وسطها فليفروا خارجاً. والذين في الكور فلا يدخلوها. 22 لأن هذه أيام انتقام لئتم كل ما هو مكتوب. 23 وويل للحبالي والمرضعات في تلك الأيام لأنه يكون ضيق عظيم على الأرض وسخط على هذا الشعب. 24 ويقعون بقم السيف ويسبون إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكمل أزمدة الأمم 25 وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم. وعلى الأرض كرب أمم بحيرة. البحر والأمواج تضحج. 26 والناس يغشى عليهم من خوف

ص:204

وانتظار ما يأتي على المسكونة لأن قوات السماوات تتزعزع. 27 وحينئذ يصرون ابن الإنسان آتيا في سحابة بقوة ومجد كثير. 28 ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب. 29 وقال لهم مثلا- أنظروا إلى شجرة التين وكل الأشجار. 30 متى أفرخت تنظرون وتعلمون من أنفسكم أن الصيف قد قرب. 31 هكذا أنتم أيضا متى رأيتم هذه الأشياء صائرا فاعلموا أن ملكوت الله قريب).

فالمثل الذي ضربه المسيح عليه السلام فيه إشارة واضحة لربط المجد والعهد الجديد بشجرة التين وكل الأشجار وثمرتها! فالعلامات التي ذكرها في الشمس قد وردت عند المسلمين بروايات كثيرة، وهي تنبئ عن تغيير كوني يلقي بظلاله على النفوس، فيغير طبيعتها جذريا، وكذلك يتغير المناخ فتجد الفاكهة التي جاء في الروايات إن عدة رجال يأكلون عنقود العنب فلا يستطيعون أن يكملوه من ضخامته وبركته! وتتغير طبيعة الحيوانات وتتبدل السلسلة الغذائية، فالحيوانات التي تقتات على اللحم تغير طبيعتها إلى العشب، وما هذا إلا لتغيير شامل على الأرض يغير معه كل القواعد السابقة للعيش، جاء في سفر إشعياء(1):

1) ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من أصوله 2 ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب. 3 ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم

ص:205

بحسب سمع أذنيه. 4 بل يقضى بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفثيه. 5 ويكون البر منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه 6 فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معا وصبي صغير يسوقها. 7 والبقرة والدبة ترعيان. تربض أولادهما معا والأسد كالبقر يأكل تبنا. 8 ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على حجر (كذا) الأفعوان. 9 لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسى لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر. 10 ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا). والمشير إن النص التوراتي ذكر الإمام صريحا بأنه (أصل يسى القائم)! فهل أن معناه: هو القائم من آل يس؟!!

لذا فقد ورد في المأثور بأن الأرض تخرج أفاليد كبدها كما هو:

شرح نهج البلاغة(1) (ألا وفي غد وسيأتى ما لا تعرفون يأخذ الوالى من غيرها أعمالها مساوى أعمالها وتخرج الأرض أفاليد كبدها وتلقى إليه سلما مقاليدها)

وفي ميزان الحكمة عن أمير المؤمنين عليه السلام(2) (لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من

ص:206

1- (1) شرح نهج البلاغة - ابن أبى الحديد - ج 9 - ص 41

2- (2) ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج 1 - ص 187

قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم، حتى تمشى المرأة بين العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلا على النبات، وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه).

وقد روى عن الإمام السجّاد عليه السلام (1) إذا قام قائمنا أذهب الله عن شعيتنا العاهة، وجعل قلوبهم كزبر الحديد، وجعل قوة الرجل منهم قوة أربعين رجلاً، ويكونون حكام الأرض وسنامها).

إلى غيرها من الأحاديث الصريحة في تغيير النفوس في تلك الأيام فيتغير أسلوب الحياة ويشيع العلم وتنعدم الغريزة الافتراضية عند الحيوانات المفترسة، وتنعدم القدرة على اللدغ عند الأفاعى وأمثالها من الحيوانات، وتعيش الحيوانات العشبية مع الحيوانات اللحمية بلا خوف ونزاع لغياب الداعى لذلك، ويأمن الناس على أنفسهم فترى النساء يتنقلن في البوادي (التي تصبح مروجاً خضراء) بلا خوف ووجل، وتنعدم الأمراض بفعل التغيير المناخى من جهة ويفضل العلم والطب المتقدم من جهة ثانية، وتتضاعف القوة الجسدية عند الإنسان لتصبح أضعافاً مضاعفة، وتنزل السماء قطرها في مواقيت دقيقة فتخرج الأرض كامل طاقتها من النباتات، فترى المحاصيل الوفيرة المتنوعة والغابات الواسعة والأراضي المعشبة والسهول الفسيحة تملأ الأرض فتكون بحق جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ ومنها جنتان قرب الكوفة إذ جاء في الحديث الشريف الذى يتحدث عن قتل إبليس فى عصر

ص: 207

الظهور (وعند ذلك تظهر الجنتان المدهامتان عند مسجد الكوفة وما حوله بما شاء الله)(1).

وعندما يرى المؤمنون الأرض وقد امتلأت جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فيكثرون التحميد والتسبيح بقولهم الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وبذلك يتم الوعد الإلهي وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضُّعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (القصص: 5).

ص: 208

1- (1) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام للشيخ على الكوراني العاملى: ج 4، ص 93-94

مؤمن آل فرعون

فى القرآن الكرىم تجء شخصىاتٍ سَلَطَ عىلها الضوء بشكل مباشر؁ فلا تجء مناصاً من مراقبة سكاتهم وحركاتهم وأقوالهم المبثوة فى القرآن؁ لكون الشخصىة واضحة المعالم فى الاسم والعنوان والظروف المحىطة بالقضىة؁ كشخصىة موسى وعيسى ونوح عىلهم السلام؁ وتجء أىضا الشخصىات التى يكون وجودها سانءا وىشكّل خلفىة تهدف إلى ما وراء البعثة والحوارات التى تكتنفها؁ مثل شخصىة مؤمن آل فرعون.

فهذا (الرجل) ىظهر فى القرآن فى موضعىن فقط لكنه ىترك تأثىرا على رسالة موسى بمجملها لكونه السبب فى إنقاذ حىاة موسى عىله السلام ولمرتىن.

وقء أكثر المفسرون من تخمىناتهم بالقربى التى كان عىلها هذا (الرجل) من فرعون؁ فبعضهم قال بأنه خازنه؁ وبعضهم قال بأنه ابن عمه؁ وكثىر منهم قالوا بأنه كان مؤمناً بموسى (مع أن موسى لم ىبعث بعءاً) ومنهم من

قال بأن اسمه حزقييل ومنهم من قال بأن اسمه حبيب ومنهم من قال بأن اسمه شمعون. وكل هذا ليس وراءه طائل إلا أن يرد في القرآن أو السنة القطعية وعلى كل حال فليس لاسمه ولا لموقعه أهمية إلا مما نقله القرآن لحكمة ما، لذا فالسير مع الآيات القرآنية والتأمل فيها ممكن أن يأتي بنتائج وثمار شهية.

قال تعالى:

وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (القصص: 20).

أول ما يلفت النظر إنه تعالى ذكر هذا الشخص بقوله (رجل)، وتكبيره قد يكون هادفاً لإبراز أهمية دوره وليس اسمه، وهذا مما لم يُعْرَه الكثير بالاً، فرووا روايات عديدة في اسمه وماذا كان! وقوله تعالى: (وجاء رجل) يركز النظر على الرجل وعلى دوره بغض النظر عن المكان الذي ذكره سبحانه بقوله (من أقصى المدينة)، والمدينة هي (طيبة) عاصمة الفراعنة، ومن المعروف أن أغلب آثار المدينة الباقية الآن هي آثار شمال المدينة، ولما أفاد السياق كون هذا الرجل آتياً من (الملا) وهم قادة وأصحاب الرأي في مملكة فرعون، ويجب أن يكون فرعون منهم، أفاد ذلك كون مكان حكم الفرعون في أقصى المدينة في الطرف الأبعد منها من مكان تواجد موسى، وهذا يعطى الانطباع بأن القصر الملكي كان في طرف المدينة.

ومدينة طيبة كانت عاصمة الفراعنة من الأسرة السادسة أو السابعة إلى الأسرة الثلاثين قبل سقوط مصر النهائي كدولة مستقلة بيد الاسكندر

ص: 210

اليوناني، وتقديمه تعالى لذكر الرجل على المدينة للنكتة التي ذكرناها، وبعبكسه ما قاله تعالى فى سورة (يس) إذ يقول تعالى:

وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (يس: 20) فقدم أقصى المدينة على الرجل لأهمية المكان فى تلك الآية.

وقوله تعالى (يسعى) يشير إلى أهمية الأمر عند هذا (الرجل) إذ أن السعى هو العدو والركض ليس الشديد، أى أنه كان يهرول ليخبر موسى بهذا الخبر المهم وهو:

يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُمُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ .

والملا هو أكبر القوم من فرعون وحاشيته كهامان وغيرهم، وقد تشاوروا ليقتلوا موسى بعد حادثة القبطى الذى قتله موسى، ولما كان هذا (الرجل) مطلعاً على تشاور الملا فى القصر الملكى أفاد ذلك كون هذا الرجل مقرباً منهم، أو أنه منهم تقيّةً، وهذا ليس ببعيد خصوصاً مع أنهم وفى زمان أسبق كان المصريون يعيشون زمان النبى يوسف، أى أنهم كانوا يعلمون بأمر الرسالات السماوية التى قال عنها سبحانه:

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر: من الآية 24).

لذا فكون الرجل من الملا أو أنه مقرباً منهم ظاهر فى الآية، ويؤكد ما جاء فى قصة موسى وما قاله هذا الرجل بعد رجوع موسى عليه السلام من مدين بعد هروبه من مصر (على الفرض المشهور من كونه الرجل نفسه). من

هنا نعلم بأن هذا الرجل قد يكون على الحنيفية، دين إبراهيم الذي بشر بها يعقوب ويوسف في مصر، إذ أن موسى عند قتله القبطى لم يكن مرسلًا بعد، وليس هناك في القرآن ما يدل على كونه قد جاء بشيء من ذلك مثلاً قبل هذه الفترة، كما فعل يحيى وعيسى، لذا فقد استعجل العديد من المفسرين بنسبة الإيمان بموسى من هذه الرجل، فلا دليل على ذلك في هذه الفترة، أما كونه ناصحاً لموسى فهذا يدل على استقامته وكونه موحداً أعجب باستقامة موسى عليه السلام وكونه لا يعبد الأوثان، وهذا أقرب للسياق وما تدل عليه الآية. وتفصيل قصة هذا الرجل جاء في سورة غافر في قوله تعالى:

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (غافر: 28)

والمشهد الآن هو بعد أن أقام موسى الآيات التي أرسل بها إذ قال فرعون عندها.

ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (غافر: 26).

إذ أسقط في يد فرعون، فلم يدر ما يفعل إلا أن يشاور ملاءه ليقتل موسى، عندها قال ذلك (الرجل) المؤمن كلامه وكلامه يدل على حكمته وبعده نظره، وعلى كونه عالماً بأن فرعون مُسْرِفٌ كَذَّابٌ، لكنه كان يتقيه

وملأه، لذا فقد كان نهيه عن المنكر من مقامه الذى كان فيه ذا فائدة عظيمة للديانة التوحيدية.

ومن جديد يضع القَدَر هذا (الرجل) فى مقام الامتحان أمام الملأ وفرعون الذين تشاوروا مرة أخرى، وبعد عشر سنوات من تشاورهم الأول لقتل موسى، وعندها ينتفض هذا الرجل المؤمن ليقول كلمة الحق التى أراد أن تكون حجة إضافية على فرعون وملأه فقال:

أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا (غافر - 28).

لكن فرعون لا يستجيب إذ أن الرين استولى على قلبه الأسود فنراه يقول:

مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (غافر: 29)

وهذه صفة أخرى رديّة من صفات المتجبرين، فحرمان الناس من حق التفكير وقهرهم فى بوتقة تفكير الحاكم ووحدانىة الحاكم وسطوة الحاكم هى رشحة من رشحات الإحساس الكاذب بالإلوهية من الحاكم المتجبر.

وهذا استدعى الرد من الرجل المؤمن الذى يظهر أن لديه علماً من أخبار الأولين ونبواتهم، وهذا ما يكشف عن بعد آخر فى شخصيته الفذة، إذ يقول:

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ (33) وَ
لَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن
هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) (غافر 30-35).

وكلامه حول قوم نوح وعاد وثمود ثم تخصيصه لنبوة يوسف يشير إلى البعد العلمي التاريخي الإيماني لهذه الشخصية (المظلومة)، التي لم
يُعر اغلب الناس بالأل لها وهم يتلون القرآن. وبعد جداله العنيف والواضح الذي لا يقبل اللبس لفرعون وملاه، نرى فرعون وقد أشاح بوجهه
عنه غير راضٍ لما يقول بل ولم يصغِ حتى للحوار معه، ويتوجه بالكلام لهامان الذي كان حاضرا لكونه من بطانته الظالمة:

يا هامان ابنِ لى صرّحاً لعلّى أبلّغ الأَسبابَ (36) أَسبابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلِهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا (37) (غافر 36-37)

وتوجه فرعون لهامان بهذا الأمر يكشف عن مقام هامان فى بلاط فرعون، إذ يظهر انه المتنفذ الأول فى المملكة، فهو المسئول عن تنفيذ
رغبات فرعون وأوامره، وقد وُجد فى بعض الكتابات المصرية أن هامان كان رئيس

المهندسين فى مصر فى أحد العصور، وهذه الكتابة لم تكن مؤرخة حتى يُعلم بأى عصر كان، لهذا طلب منه فرعون بناء صرح لمقابلة رب موسى على زعمه!.

وفرعون هنا يطلب منه أمراض خطيراً وهو أن يصنع له بناء ليبلغ به (الأسباب)، والبلوغ هو الوصول إلى نهاية الإرب، أى انه كان يريد أن يصل إلى مدى يعتقد أنه ليس بعده مدى فى السماء وعندها يمكن أن يطلع ويرى (إله موسى) كما يظن! وهذا الكلام ليس بغريب على من يرى أن الإلهة تسكن فى أماكن معينة وتصعد إلى السماء يومياً وتنزل منها (كما كان يدعى المصريون فى الآلهة التى عبدوها)، وطلبه هذا كان خدعة لا أكثر إذ أن فرعون كان مستيقناً بحقانية الدعوة الموسوية، وكما قال تعالى عنه وملاه:

وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلوًّا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (النمل: 14).

فقوله تعالى هذا عن الداخل النفسى لفرعون يفسر لنا قول فرعون:

يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (القصص: 38).

فلو كان صادقاً فى قوله: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .

فكيف يقول بعدها: وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ .

فلو كان صادقاً بنفى الإلهية عن غيره لكان على يقين بعدم وجود إلهاً غيره لموسى!

لذا قال تعالى عنه: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .

ولما كان فرعون لا يستحق الهداية بعد أن أُقيمت الحجة ولم يلتفت إليها، فقد زين الله له سوء عمله، وهنا يرجع الخطاب للرجل المؤمن الذى لم يرتضِ طلب فرعون من هامان فنراه يقول:

يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (غافر 38-40).

فترى الرجل المؤمن هنا لا يصرح بإيمانه بموسى بل هو ينصحهم باتباعه حتى يهديهم سبيل الرشاد، إذ أنه لو صرح بأنه ينصحهم باتباع موسى لكان قد خسر مكانته التى يخدم بها الدين التوحيدى الموسوى من خلالها، لذا فإنه لجأ لنصيحتهم ليتبعوا مشتركات كانت تنادى بها الديانات السماوية كلها ومنها دعوة يوسف فى مصر والتى ما تزال حية فى أذهان الناس ولم تتبل.

لذا قال لهم:

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ .

وهنا إشارة من الرجل إلى البعث والنشور الذى كانت حتى الوثنية

المصرية لا تنكره ولكنها تتأوله بما بعد الموت مباشرة وليس فى يوم القيامة، إذ كانت الميثولوجيا المصرية تؤمن بأن الفرعون يحيى بعد موته فى هذا العالم ويشق موج البحار بسفينته التى دفنوها معه الى (دوات) العالم السفلى ليكون مع (أوزوريس) فيخلد إلى الأبد. وهذا بعث من الموت وإن كان على نحو مختلف.

وهذا التدرج فى الدعوة ضرورى لقوم مثل الذين كان معهم هذا الرجل، ثم نراه يقول لهم:

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .

وهذا أيضا مبدأ عاما يشترك به كل الديانات السماوية، وهنا نراه يشير إلى شرط الإيمان ولكنه لم يقل أى إيمان، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن هامشاً من الحرية الدينية كان موجوداً ويسمح لمثل هذا الرجل بأن يشير إلى الإيمان بأمور لا توافق الديانة الرسمية، وهو بحضرة كبار المسئولين فى البلاد ومنهم فرعون.

ثم يردف الرجل المؤمن وهو يوجه كلامه للملأ الحاكم فى مصر:

وَ يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيْزِ الْعَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أَفَوْضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) غافر 41-44.

وهنا يصدق بأهم ما يجول فى خاطره وبدون أن يصرح باسم موسى،

مع أنه من أتباعه في هذه الفترة الزمنية، فهو يذكر إنه يدعوهم إلى الجنة وهي الدعوة إلى العزيز الغفار، بينما يقول لهم: إنكم تدعونني إلى النار وهو الإشراك بما ليس لى به علم، ثم يجهر بأن ما يدعونه من ديانة ليس لها أصل في ديانة سماوية ولم يأت بها احد يقول أنا من عند الله. وهذه ليست كما أدعوكم إليه فقد جاءت به آلاف الأنبياء وأصحاب المعاجز والآيات البيّنات.

وبعد كل هذا الأخذ والرد ينقلنا سبحانه في كلماته إلى النتيجة النهائية للحوار العنيف بين الرجل المؤمن وبين الملائكة الكافر، إذ أنهم بدؤوا يكيدون له كيذا ويمكرون له مكرًا مما قاله تعالى في كتابه:

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ (غافر: 45).

إذ أن الله وقاه سيئات المكر الذى كان يمكرون به له لما شكّوا فى أمره، وهذا أمر طبيعى لمن هم فى درجتهم من اسوداد القلب وقبح العقيدة، ويقص الله تعالى مكان هؤلاء الملائكة بعد موتهم إذ يقول جل وعلا:

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (غافر: 46).

فهذا العذاب الذى يعانون منه يوميا والى قيام الساعة هو من عذاب البرزخ الذى يستمر عليهم من لدن غرقهم فى البحر بعد عبور موسى واتّباعهم له لقتله إلى قيام الساعة، ومع ذلك وهم فى هذه الشدة والمحنة نرى أنه سبحانه ينقل لنا محاوره عجيبة طرفاها هم الملائكة المستكبرون من أصحاب فرعون والمستضعفون من أصحابه يقول تعالى:

وَإِذِ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا:

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (غافر: 47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا:

إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (غافر: 48).

فهؤلاء المساكين من المستضعفين الذين كانوا تحت الهيمنة الروحية الكاذبة للديانة الوثنية المصرية يقولون للملأ المستكبرين إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ وهذا مطلب طبيعي لمن هم مثلهم، فقد كانوا يعتقدون بأن عبادتهم للفراعنة هي فرع لعبادتهم للالهة، لكون الفرعون ابن الإله وبعد هذا الحوار يطلب الطرفان من خزنة جهنم أن يخفف الله عنهم من العذاب بقولهم:

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ:

ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (غافر: 49).

فيقول لهم الخزنة:

أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟

قَالُوا: بَلَىٰ

قَالُوا: فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (غافر: 50).

فهم هنا يعترفون أخيراً بأن يوسف وموسى كانوا رسلاً أصحاب بيّنات ويختم سبحانه هذه القصة بقوله:

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (غافر: 51).

والظاهر أن (رسلنا) هنا لا تختص بأصحاب الرسالات السماوية فقط، لكونه هنا في مقام العبرة من فعل مؤمن آل فرعون ومن فرعون ومَلَكه، فقد يكون المقصود من رسلنا كل من كان مرسلًا برسالة إلهية وفي جملتهم مؤمن آل فرعون.

ص: 220

(مرج البحرين يلتقيان)!

قال تعالى فى كتابه الكريم:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) (الرحمن: 19-21).

أجمع المفسرون على أن الآية تقصد (يخرج من البحر المالح اللؤلؤ والمرجان) وإنما قال: (منهما) للاتساع والتغليب! ولك أن تراجع كل التفاسير الظاهرية بلا استثناء، لتعرف ذلك وكأنهم قالوا ذلك عطفاً على قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (الفرقان: 53).

وقوله تعالى:

وَ مَا يَسَّ تَوَى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ

ص: 221

لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (فاطر: 12).

والذى يظهر لى أن هذا الربط والاستنتاج غير صحيح، لكون قوله تعالى (منهما) تعنى (منهما)! وهذا متحقق، والظاهر أنهم لما لم يجدوا أن هناك لؤلؤاً ومرجاناً فى المياه العذبة، ولكونهم فهموا أن البحرين هما العذب والمالح، لم يستطيعوا غير أن يقولوا ذلك، لكن الذى قد يظهر إن البحرين هما البحر البارد والبحر الدافىء وكلاهما مالحان ويحتويان على اللؤلؤ والمرجان، وهما تياران هائلان من الماء، الأول ينطلق شمال المحيط الهادى وينتهى فى البحر الكاريبى وهو التيار الدافىء، ولكون كثافة مياه المحيطات تتحدد بدرجة حرارتها ومدى ملوحتها فتتمدد إذا كانت حارة وتقل كثافتها فتحاول التحرك باتجاه الشمال والجنوب من خط الاستواء، ولكون الجرف القارى يحده من الشمال عند وصوله الى شبه جزيرة غرينلاند فيكون التيار ضعيفاً نحو الشمال، بينما ينطلق باتجاه الجنوب كتيار هائل فى عمق المحيط الأطلسى، نحو الأحواض الباردة، وعند وصوله للجرف القارى للقارة القطبية الجنوبية يتحول باتجاه المحيط الهندى ويستمر كذلك إلى أن يصل إلى الساحل الآسيوى فى إندونيسيا وماليزيا وأستراليا، ويلتف على هذه المناطق بضعف إلى أن يصل إلى المحيط الهادى، وهناك يواجه الجرف القارى لأمريكا الشمالية والجنوبية فيظهر الى السطح ليواجه المناخ الدافىء مما يسبب سخونته وبالتالي رجوعه على نفس الطريق ولكن هذه المرة الى أعلى المحيط وليس فى عمقه، وهذه الدورة الضخمة للمياه لها منافع كبيرة على الكائنات البحرية والأسماك فى تلك

ص:

المحيطات، إذ أن تحرك المياه بصورة هائلة من مناطق مناخية معينة لأخرى تختلف اختلافاً جذرياً بمناخها عنها، يعطى التنوع البحرى مجالاً واسعاً مساعداً فيحمل الأوكسجين والكائنات المجهرية والصغيرة والأسماك معه مما يوفر مخزوناً غذائياً لأنواع عديدة منها، وبالتالي لها دور فى حياة مئات الملايين من البشر.

رسم توضيحي لكيفية تسخين الماء العلوى ثم تحوله الى تيار بارد سفلى

ويذهب العديد من علماء الطبيعة الى كون هذه التيارات لها دور فى مناخ أوروبا الدفئ، بل لها دور فى حجم الكتل الجليدية فى القطبين الشمالى والجنوبى مما يدخل فى تحديد المناطق البيضاء فى الكرة الأرضية والتي لها دور فى تنظيم درجات الحرارة فى الكوكب ككل، والعنصر الحيوى فى هذا كله هو كون هذه المحيطات ملحية وليست عذبة! إذ تتكوّن كتل المياه الكثيفة التى

تجرى نحو الأحواض العميقة فى مناطق مُحدّدة فى شمال الأطلسى وفى المحيط الجنوبى. وفى هاتين المنطقتين القطبيتين، تبرّد الرياح المياه السطحية بشدّة، كما تتسبّب الرياح التى تتحرك فوق الماء بكثير من البخار. لا يزيل البخار إلا جزئيات من الماء الصافى، مما يرفع ملوحة ماء البحر المتبقى. تعرف هاتان العمليتان المدفوعتان بالرياح باسم (التبريد البخارى).

التيارات الإقليمية المتفرعة من التيارات القارية

يمكن لتكوّن ثلوج البحار أيضا أن يساهم فى رفع ملوحة المياه، حيث يترك الثلج بعد تجمده معازل ماء شديد الملوحة. تخفض الملوحة من درجة تجمد ماء البحر، وبالتالي فإن بحيرات الماء شديد الملوحة تلك تتكون ومن حولها مجموعات الجليد. شيئا فشيئا، يذيب الماء شديد الملوحة الجليد تحته، إلى

أن يخرج من الجليد ويجرى للأسفل. لذا فإنى أعتقد أن كل هذه الفوائد لهذين التيارين البحريين المالحين تشير إليه الآية الكريمة:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ (22) (الرحمن 19-21)

التيار العالمى الدافئ والتيار العالمى البارد

فهما يلتقيان، أى أن الأول سطحي والآخر فى العمق ويلتقيان فى الوسط، ولا يبغي أحدهما على الآخر فلا التيار السطحي يوقف التيار الداخلى ولا العكس، ولكونهما مالحين فهما يحتويان على اللؤلؤ والمرجان. والله أعلم.

ص:225

نوح وقومه فى القرآن

قال تعالى حكاية عن نوح:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (نوح: 9).

فى هاتين الآيتين يخاطب نوح ربه ويشرح له السبل التى أراد بها هداية قومه فأبوا ذلك، والذى يلفت نظر كل قارئ هو قول نوح فى الآية الأولى إنه ممارس دعوة قومه جهاراً، ثم يقول فى الآية الثانية إنه أعلن لهم ذلك، والذى يظهر لكل قارئ لبيب: إن الجهر لو كان يعطى نفس الإعلان لما كان النص سليماً، فكيف يقول نوح: إني دعوتهم إعلاناً ثم إني أعلنت لهم، مع اختلاف الصيغة فى الإعلان؟!

وهذا لا يستقيم إلا باختلاف المعنيين ولكن هذا فإت العديد من كبار المفسرين منهم:

ص: 226

السمعاني:

إذ قال (الإعلان والجهر بمعنى واحد، وهو كلام بحيث يسمع الجماعة، وأن الإسرار هو أن يقوله مع الإنسان وحده في خلوة.)⁽¹⁾

الطباطبائي:

إذ قال (قوله تعالى: "ثم إنى دعوتهم جهارا" "ثم" للتراخي بحسب رتبة الكلام والجهار النداء بأعلى الصوت. قوله تعالى: "ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا" الإعلان والإسرار متقابلان وهما الإظهار والإخفاء، وظاهر السياق أن مرجع ضمير لهم فى الموضوعين واحد فالمعنى دعوتهم سرا وعلانية فتارة علانية وتارة سراً سالكا فى دعوتى كل مذهب ممكن وسائرا فى كل مسير مرجو)⁽²⁾.

ابن كثير:

إذ قال ((ثم إنى دعوتهم جهارا) أى جهرة بين الناس "ثم إنى أعلنت لهم" أى كلاما ظاهرا بصوت عال)⁽³⁾.

الطوسى:

إذ قال (حكى أنه قال (ثم انى دعوتهم جهارا) أى إعلانا (ثم إنى أعلنت لهم) أى أظهرت الدعاء لهم إلى عبادتك تارة (وأسررت لهم) أى وأخفيت لهم

ص: 227

1- (1) تفسير السمعاني - السمعاني - ج 6 - ص 55

2- (2) تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج 20 - ص 29-30

3- (3) تفسير ابن كثير - ابن كثير - ج 4 - ص 453

الدعاء إلى مثل ذلك كرة أخرى(1)

قال الطريحي:

إذ قال (قال تعالى: (إني دعوتهم جهارا) و (الجهر) الإعلان بالشىء)(2).

الطبرى:

إذ قال (يقول: ثم إني دعوتهم إلى ما أمرتنى أن أدعوهم إليه جهارا ظاهرا فى غير خفاء)(3).

مقاتل بن سليمان:

إذ قال (ثم إني دعوتهم جهارا) يعنى مجاهرة وعلانية (ثم إني أعلنت لهم) يعنى صحت إليهم علانية(4).

الطبرى:

إذ قال (ثم إني دعوتهم جهارا) أى بأعلى صوتى، عن ابن عباس. وقيل: مجاهرة يرى بعضهم بعضا أى ظاهرا غير خفى. (ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) أى دعوتهم فى العلانية وفى السر. وقيل: معناه إني أعلنت جماعة بالدعوة، وأسررت جماعة ثم أعلنت للذين أسررت، وأسررت للذين أعلنت لهم، ومعناه. إني سلكت معهم فى الدعوة كل مذهب،

ص: 228

1- (1) التبيان - الشيخ الطوسى - ج 10 - ص 135

2- (2) تفسير غريب القرآن - فخر الدين الطريحي - ص 232

3- (3) جامع البيان - ابن جرير الطبرى - ج 29 - ص 115

4- (4) تفسير مقاتل بن سليمان - مقاتل بن سليمان - ج 3 - ص 402

وتلطفتم لهم في ذلك غاية التلطف، فلم يجيبوا(1)

والذي يظهر إن الذي أوقع المفسرين بهذا القول مع بيان ضعفه هو مجيء الجهر في مقابل السر في القرآن كقوله تعالى:

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (الرعد: 10).

وقوله تعالى:

وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (ط - هـ: 7).

وقوله تعالى:

وَاسْرُؤُا قَوْلِكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (الملك: 13).

ولكن المعنى في الحقيقة لا يعطى ذلك! فأنت ترى قوله تعالى:

وَ لَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَ لَا تُخَافُتْ بِهَا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (الإسراء: من الآية 110).

والخفوت في الحقيقة إعلان لكنه بصوت ضئيل وليس سراً

وقوله تعالى:

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ (النساء: من الآية 148).

والجهر بالسوء لا يكون بين الرجل ونفسه بل بين الناس وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ

ص: 229

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (الحجرات: 2)

فالجهور هنا علو الصوت حتى لو لم يكن أعلى من صوت النبي ولكنه على أعين الناس. وقوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (الأنعام: 47).

والجهرة هنا أى بعلم الناس وليس بمباغثة لهم.

من هنا فالفرق بين هذه الأساليب الثلاثة هو أن الجهر كان دعوة علنية بصوت عالٍ على أعين الناس، والإعلان هو الدعوة بشكل علني بدون صوت عالٍ، والسر هو الدعوة بالاتصال الثنائي أو الجماعي غير المعلن.

والوحيد الذى نال المعنى الحقيقى هو أبو هلال العسكرى (1) إذ قال (الفرق بين الإعلان والجهر: أن الإعلان خلاف الكتمان وهو إظهار المعنى للنفس ولا يقتضى رفع الصوت به، والجهر يقتضى رفع الصوت به ومنه يقال رجل جهير وجهورى إذا كان رفيع الصوت)

إذن فنوح يقول: إنه جهر بها بصوت عالٍ بين الناس أول الأمر وتظاهر بها بدون كتمان، ثم لم يكتمها ولكن اتبع سبيلا بين الجهر والإعلان وهو التظاهر بها وعدم إخفائها ولكن بدون مجاهرة كالمرحلة الأولى، ثم بدأ يتصل سرا بهم بمعزل عن الباقين وهذه هى الأساليب الثلاثة التى اتبعها نوح.

ص: 230

(الذين لا يعلمون) فى القرآن

ورد مرگب (لا يعلمون) مكررا كثيرا فى القرآن فهل لهذا التركيب خصائص معينة، فى الحقيقة فإن تركيب لا يعلمون مكرر فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موردا منها:

خمسة موارد منها فى صيغة (الذين لا يعلمون):

كما فى قوله تعالى:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ۚ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ۚ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (البقرة: 113).

وقوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ

ص: 231

مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (البقرة: 118).

وقوله تعالى:

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (يونس: 89).

وقوله تعالى:

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (الروم: 59).

وقوله تعالى:

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (الجات - يه: 18).

وثمانية وثلاثين موردا في صيغة قوله تعالى (لا يعلمون) منها:

كما في قوله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (البقرة: 13).

وقوله تعالى:

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الأنعام: 37).

وقوله تعالى:

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ

ص:

أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (لأعراف: 131).

وقوله تعالى:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَانَتْكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (لأعراف: 187).

من هنا فانت ترى كون (الذين لا يعلمون) مجموعة لها خصائص معينة، بخلاف المجموعة الثانية التي تعم كل من ليس له علم وهم أكثر الناس حسب التكرار لهذه الآية.

ومن صفات (الذين لا يعلمون):

الآية الأولى أضافت الذين لا يعلمون إلى النصارى واليهود مما يكشف أنهم صنف ثالث

هؤلاء قالوا لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ إِنْكَارِ النَّبِيِّ وَمِعْجَزَاتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا وَمَا ضَرَبُوا ذَلِكَ إِلَّا لِلْاِسْتِهْزَاءِ وَإِلَّا لَكَانُوا اكْتَفَوْا بِتَسْبِيحِ الْحَصِيِّ أَوْ تَكْلِيمِ الشَّاةِ لِلنَّبِيِّ الخ!!؟

من صفات هؤلاء المجادلة في آيات الله بغير سلطان.

هذه المجموعة كانت موجودة في زمن النبي بشهادة قوله تعالى:

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا

ص: 233

يَعْلَمُونَ (الجاث - ية: 18).

هذا يشير إلى أن هؤلاء هم كفار قريش ويسند ذلك ما ذكره المفسرون في هذه الآية من أن المخاطب بها كان ملاً قريش.

ومن لطيف الإشارة ان الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ تنطبق بالعدد على ما ورد في مآثور المسلمين أنهم أئمة الكفر في مكة وهم الخمسة الذين تزعموا الكفر ضد الرسالة المحمدية: أبو جهل بن هشام وأمّية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو(1)

ص:

1- (1) جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج 10 - ص 113

ما كان سؤال المنافقين!؟

قال تعالى فى سورة البقرة:

ما نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ
وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ
سِواءَ السَّبِيلِ (108) (البقرة 106-108).

اختلف المفسرون فى سبب نزول الآية اختلافاً كبيراً فمنهم - كصاحب التبيان - أرجع الاختلاف إلى خمسة أقوال، قال الطوسى (اختلف
المفسرون فى سبب نزول هذه الآية، فروى عن ابن عباس أنه قال: قال رافع بن خزيمة، ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وآله اتتنا
بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجر لنا انهاراً، تتبعك ونصدقك، فأنزل الله فى ذلك من قولهما "أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل
موسى من قبل".

ص: 235

وقال الحسن عنى بذلك المشركين من العرب لما سأله فقالوا "أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً" وقالوا: "أو نرى ربنا" وقال السدي: سألت العرب محمدا صلى الله عليه وآله أن يأتيهم بالله فيروه جهرة. وقال مجاهد: سألت قريش محمدا أن يجعل لهم الصفا ذهابا. فقال نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل. فأبوا ورجعوا. وقال أبو علي: روى أن النبي صلى الله عليه وآله سأله قومه ان يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط وهى شجرة كانوا يعبدونها، ويعقلون عليها التمر، وغيره من المأكولات. كما سألو موسى "اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة" (1) وروى الطبرى مثله (2).

وموارد النزول التى ذكرها تشبه التطبيقات الحدسية! وإلا لم هذه العجلة والجرأة بالجزم بسبب النزول مع اختلافهم كل هذا الاختلاف؟! فضلا عن أن هناك إجماع على كون سورة البقرة مدنية وليست مكية، وليس بعد الهجرة إلا الجدل مع المنافقين والذين كانت أساليبهم وطلباتهم تختلف جوهرياً عن المشركين فى مكة! فما روه من أسباب النزول لا تناسب الزمان والمكان، ويأباه السياق! فالمنافقون كانوا يحاولون زعزعة إيمان المسلمين عن طريق الإرجاف والتشكيك والافتراء بالسر ولم يكونوا يعلنون ذلك ولا أن يواجهوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطلباتهم التى لا تنتهى كما كان يفعل المشركون فى مكة.

ص: 236

1- (1) التبيان - الشيخ الطوسى - ج 1 - ص 402

2- (2) جامع البيان - الطبرى - ج 1 - ص 676

فالسباق يشير إلى شىء آخر، فقوله سبحانه ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بحيرٍ منها أو مثلها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) الآية فى القرآن جاءت للدلالة على المعجزات أو العلامات التى لا يأتى بها إلا المرسلون، كقوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (البقرة: من الآية 118).

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ (البقرة: من الآية 145).

سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ (البقرة: من الآية 211).

وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ (البقرة: من الآية 259).

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا (آل عمران: من الآية 41).

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (الأنعام: 4).

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ (البقرة: من الآية 248).

لذا فالآيات متصلة بالمعصومين، بل قد جاء بالأثر إن المعصومين هم الآيات التى ذكرت فى سورة البقرة إذ روى العياشى فى تفسيره (عن عمر بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله "ما ننسخ من آية أو

ننسخها نأت بخير منها أو مثلها" فقال: كذبوا ما هكذا هي إذا كان ينسى وينسخها أو يأت بمثلها لم ينسخها قلت: هكذا قال الله قال ليس هكذا قال تبارك وتعالى، قلت: فكيف قال؟ قال ليس فيها ألف ولا واو، قال: "ما ننسخ من آية أو ننسخها نأت بخير منها مثلها" يقول: ما نميت من إمام أو ننسه ذكره نأت بخير منه من صلبيه مثله(1).

وروى الكليني عن (عبد الله الجلاب قال: كتب إلى أبو الحسن في كتاب: أردت أن تسأل عن الخلف بعد أبي جعفر وقلقت لذلك فلا تغتم فإن الله عز وجل "لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون" وصاحبك بعدى أبو محمد ابني وعنده ما تحتاجون إليه، يقدم ما يشاء الله ويؤخر ما يشاء الله "ما ننسخ من آية أو ننسخها نأت بخير منها أو مثلها" قد كتبت بما فيه بيان وقناع لذي عقل يقظان(2).

فالآية تخص تبديل معصومين بعضهم بمثلهم وليس بغيرهم, وتؤكد الآية التي بعده إذ يقول تعالى:

أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107).

فكل شيء لله وبحكمه وتحت إرادته وخصوصا ما يتعلق بالاستخلاف سواء كان الاستخلاف للأنبياء أم للأوصياء قال تعالى:

ص: 238

1- (1) تفسير العياشي - محمد بن مسعود العياشي - ج 1 - ص 56

2- (2) الكافي - الشيخ الكليني - ج 1 - ص 328

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (القصص: 68).

فالحجج من الأنبياء والأوصياء يكونون تحت التنصيب السماوى المباشر ولا يخضع هذا التنصيب لألا عيب البشر وأهوائهم وإن وقع فهو تحت إرادته سبحانه وليس بخارج عنها ولكنه بقدره وقضائه وليس بإجباره سبحانه، ووقع مثل هذا فى قوله سبحانه:

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بُرْءَانٌ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس: 15).

فهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يقولون ائت بقرآن هذا أو بدل [علياً\(1\)](#)! فهم لم يتحملوا تنصيب أمير المؤمنين عليه السلام بعد النبى صلى الله عليه وآله فكانوا يريدون أن يكون الوصى من غير بنى هاشم لأكثر من سبب، أهمها أنهم حتى يضمنون أن يكون لبطن قريش وقبائل العرب أمل فى الحصول على الخلافة وعلو كعبهم بها! وفى هذا المعنى نصوص عديدة منها:

ما رواه السمرقندى فى تفسيره (قال قتادة دخل عامر بن الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وآله - وآله - وسلم وقال أسلم على أن

ص: 239

لك المدبر ولى الوبر يعنى لك ولاية القرى ولى ولاية البوادي فقال النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم أنت من المسلمين لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم قال عامر لك الوبر ولى المدبر فأجابه بمثل ذلك قال عامر ولى الأمر من بعدك فأجابه بمثل ذلك فغضب عامر وقال لأملأها عليك رجالاً ألفاً رجل أشعر وألفاً أمرد فخرج ولقى أربد بن قيس فقال له ادخل على محمد وألهه بالكلام حتى أدخل فأقتله، فدخلا عليه فجعل عامر يسأله ويقول أخبرنا يا محمد عن إلهك أمن ذهب هو أم من فضة فلما طال حديثه قاما وخرجا فقال عامر مالك لم تقتله قال كلما أردت أن أقتله وجدتك بيني وبينه فجاء جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم بذلك فدعا عليه فأصابته صاعقة فقتلته فنزل "ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال"(1).

ما رواه ابن أبي الحديد عن عمر بن الخطاب انه قال لابن عباس (يا عبد الله، ما تقول في منع قومكم منكم؟ قال: لا أعلم يا أمير المؤمنين، قال: اللهم غفراً! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة، فتذهبون في السماء بذخاً وشمخاً!)(2)

روى ابن البطريق في عمدته نقلاً عن تفسير الثعلبي (في تفسير قوله تعالى: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . وبالإسناد المقدم، قال: وسئل سفيان بن عيينة، عن قول عز وجل: سئل سائل بعداب واقع في من نزلت؟ فقال: لقد سألتني عن مسألة، ما سألتني عنها أحد قبلك، حدثني جعفر بن محمد، عن آبائه، عليهم السلام، قال: لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير خم

ص: 240

1- (1) تفسير السمرقندي - أبو الليث السمرقندي - ج 2 - ص 221

2- (2) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج 1 - ص 189

نادى الناس، فاجتمعوا، فاخذ بيد على عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه، فشاع ذلك، وطار فى البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن نعمان الفهرى، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته له، حتى أتى الأبطح، فنزل عن ناقته، فأناخها، وعقلها، ثم اتى النبي صلى الله عليه وآله وهو فى ملاء من أصحابه، فقال: يا محمد، أمرتنا عن الله، ان نشهد ان لا إله إلا الله، وانك رسول الله، فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلى خمسا، فقبلناه منك، وأمرتنا ان نصوم شهرا، فقبلناه منك، وأمرتنا ان نحج البيت فقبلناه، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعى ابن عمك، ففضلته علينا، فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، وهذا شىء منك أم من الله تعالى؟ فقال: والذى لا إله إلا هو، انه من أمر الله، فولى الحارث بن نعمان، يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقوله محمد حقا، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم. فما وصل إليها، حتى رماه الله بحجر، فسقط على هامته، وخرج من دبره، فقتله، وانزل الله تعالى: "سنل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع"(1).

لذا فالآيات التى نحن بصددھا لا تخرج عن هذا السياق، خصوصا مع وجود المأثور الذى يدعم ذلك، إذ روى المجلسى فى بحاره عن الإمام الحسن العسكرى، (قال عليه السلام: قال الله تعالى: يا أيها اليهود "أم تريدون" بل تريدون من بعد ما آتيناكم "أن تسألوا رسولكم" وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله قصده عشرة من اليهود

ص: 241

يريدون أن يتعنتوه ويسألوه عن أشياء يريدون أن يعانتوه بها، فبينما هم كذلك إذ جاء أعرابي كأنه يدفع في قفاه قد علق على عصا على عاتقه جراباً مشدود الرأس فيه شيء قد ملأه لا يدرون ما هو؟ فقال يا محمد أجبني عما سألك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا العرب قد سبقك اليهود أفتأذن لهم حتى أبدأ بهم؟ قال الأعرابي: لا فإنني غريب مجتاز، فقال رسول الله فأنت إذا أحق منهم لغربتك واجتيازك، فقال الأعرابي: ولفظة أخرى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما هي؟ قال: إن هؤلاء أهل الكتاب يدعونهم بزعمهم حقاً، ولست آمن أن تقول شيئاً يواطؤونك عليه، ويصدقونك ليفتنوا الناس عن دينهم وأنا لا أقنع بمثل هذا، لا أقنع إلا بأمر بين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أين علي بن أبي طالب؟ فدعى بعلي عليه السلام فجاء حتى قرب من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال الأعرابي يا محمد: وما تصنع بهذا في محاورتي وإياك؟ قال: يا أعرابي سألت البيان وهذا البيان الشافي، وصاحب العلم الكافي، أنا مدينة الحكمة وهذا بابها، فمن أراد الحكمة والعلم فليأت الباب، فلما مثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله قال رسول الله بأعلى صوته: يا عباد الله من أراد أن ينظر إلى آدم في جلالته، وإلى شيث في حكمته، وإلى إدريس في نبأته ومهابته، وإلى نوح في شكره لربه وعبادته، وإلى إبراهيم في وفائه وخلته وإلى موسى في بغض كل عدو لله ومناذته، وإلى عيسى في حب كل مؤمن ومعاشرته فليتنظر إلى علي بن أبي طالب هذا، فأما المؤمنون فازدادوا بذلك إيماناً، وأما المنافقون فازداد نفاقهم. فقال الأعرابي: يا

محمد هكذا مدحك لابن عمك، إن شرفه شرفك، وعزه عزك ولست أقبل من هذا شيئاً إلا بشهادة من لا يحتمل شهادته بطلانا ولا فسادا، بشهادة هذا الضب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا العرب فأخرجه من جرابك أستشهده فيشهد لي بالنبوة، ولأخي هذا بالفضيلة، فقال الأعرابي: لقد تعبت في اصطياده، وأنا خائف أن يطفر ويهرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تخف فإنه لا يطفر ولا يهرب، بل يقف ويشهد لنا بتصديقنا وتفضيلنا، فقال الأعرابي أخاف أن يطفر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فإن طفر فقد كفاك به تكذيبا لنا، واحتجاجا علينا، ولن يطفر ولكنه سيشهد لنا بشهادة الحق، فإذا فعل ذلك فخل سبيله، فإن محمدا يعوضك عنه ما هو خير لك منه، فأخرجه الأعرابي من الجراب ووضع على الأرض، فوقف واستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله، ومرغ خديه في التراب ثم رفع رأسه، وأنطقه الله تعالى فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه، وسيد المرسلين، وأفضل الخلق أجمعين، وخاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين، وأشهد أن أخاك علي بن أبي طالب على الوصف الذي وصفته، وبالفضل الذي ذكرته، وأن أولياءه في الجنان مكرمون، وأن أعداءه في النار خالدون، فقال الأعرابي وهو يبكي: يا رسول الله وأنا أشهد بما شهد به هذا الضب فقد رأيت وشاهدت وسمعت ما ليس لي عنه معدل ولا محيص، ثم أقبل الأعرابي على اليهود فقال: ويلكم أي آية بعد هذه تريدون، ومعجزة بعد هذه تقترحون؟ ليس إلا أن تؤمنوا أو

تهلكوا أجمعين، فأمن أولئك اليهود كلهم وقالوا: عظمت بركة ضبك علينا يا أبا العرب، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا العرب خل الضب على أن يعوضك الله عز وجل عنه ما هو خير منه، فإنه ضب مؤمن بالله وبرسوله وبأخى رسوله، شاهد بالحق، ما ينبغي أن يكون مصيدا ولا أسيرا، ولكنه يكون مخلى سربه، تكون له مزية على سائر الضباب بما فضله الله أميرا، فناداه الضب: يا رسول الله فخلني وولني تعويضه لأعوضه، فقال الأعرابي وما عساك تعوضني؟ قال: تذهب بي إلى الجحر الذي أخذتني منه ففقيه عشرة آلاف دينار خسروانية، وثلاثمائة ألف درهم فخذها، فقال الأعرابي: كيف أصنع؟ قد سمع هذا من الضب جماعات الحاضرين ههنا وأنا تعب، فإن من هو مستريح يذهب إلى هناك فيأخذه فقال الضب: يا أبا العرب إن الله قد جعله عوضا مني، فما كان ليترك أحدا يسبقك إليه ولا يروم أحد أخذه إلا أهلكه الله، وكان الأعرابي تعباً فمشى قليلا وسبقه إلى الجحر جماعة من المنافقين كانوا بحضرة رسول الله، فأدخلوا أيديهم إلى الجحر ليتناولوا منه ما سمعوا فخرجت عليهم أفعى عظيمة فلسعتهم وقتلتهم، ووقف حتى حضر الأعرابي فنادته: يا أبا العرب انظر إلى هؤلاء كيف أمرني الله بقتلهم دون مالك الذي هو عوضك من ضبك، وجعلني هو حافظة فتناولوه، فاستخرج الأعرابي الدراهم والدنانير، فلم يطق احتمالها، فنادته الأفعى: خذ الحبل الذي في وسطك وشده بالكيس، ثم شد الحبل في ذنبي فإني سأجره لك إلى منزلك، وأنا فيه خادمك وحارس مالك هذا، فجاءت الأفعى

فما زالت تحرسه والمال إلى أن فرقه الأعرابي في ضياع وعقار وبساتين اشتراها، ثم انصرفت الأفعى(1).

والتشابه بين أمير المؤمنين عليه السلام وهارون تشابه ملفت لكل ذى لب ويجمعه قوله صلى الله عليه وآله: (أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي)(2) فهارون كان وصى موسى عليه السلام وأمير المؤمنين عليه السلام كان وصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهارون كان وصى موسى في حياته على قومه عند غيبته، وعلى عليه السلام كذلك، وأولاد علي كانوا الحسن والحسين وهو اسم مطابق لاسم ابني هارون شبر وشبير(3)، وعندما رجع موسى من تكليم ربه ووجد القوم قد عبدوا العجل دخل في حوار مع أخيه هارون فقال له هارون قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضَّ عَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي (الأعراف: من الآية 150) وهذا ما فعله الإمام عليه السلام إذ قال موجها كلامه لقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يتوجه ليبياع لأبي بكر مضطرا - (يا بن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني)(4)، من كل هذا نستنتج إن الآية قد تكون نازلة في سؤال المنافقين لكليم الله بتغيير وصيه هارون، كما صرحت بذلك الروايات في الآية (أنت بقرآن غير هذا أو بدله)، وقد ذكر القرآن أن بني إسرائيل فعلوا ذلك لكن بعد

ص: 245

1- (1) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج 17 - ص 418-421

2- (2) الكافي - الكليني - ج 8 - ص 107

3- (3) بحار الأنوار - ج 15 - ص 237

4- (4) كتاب سليم بن قيس - ص 136

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) (البقرة 246-247).

(النزاع) في القرآن

قال تعالى:

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (القصص: 75).

وقال تعالى:

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (مريم: 69).

فرّق المفسرون بين الآيتين بأن قالوا بأن الأولى تشير إلى نزع الشهيد، وهو النبي والرسول، من بين الأمم، وقد لا تجد اختلافاً بينهم في ذلك، وأما الثانية بأن قالوا إن النزاع لأشد الناس عتواً على ربهم من المجرمين والكافرين.

ولكن الذي يتمعّن في الآيتين لا يجد فرقاً حقيقياً، فمورد (القصص) يورد الآية كالتالي:

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا .

فَقُلْنَا (لهؤلاء الذين تم نزعهم) هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .

ص: 247

فَعَلِمُوا (أى الذين تم نزعهم) أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

فالشهداء هنا مفترون، أُسْقِطَ فى أيديهم، فلم يجيبوا على سؤال ربهم بعدما علموا أن الحق لله، فكيف قال المفسرون بأن الشهداء هنا هم الأنبياء والرسل؟!!

وفى الحقيقة فإن الذين اعتمدوا على المأثور فى فهم الآية لم يُحسنوا توجيه الحديث الوحيد الوارد فى الآية، وهو حديث أبى الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام (فى قوله: (ونزعنا من كل أمة شهيدا) يقول من كل فرقة من هذه الأمة إمامها)(1) وهو ليس كما ذهبوا، فالأمة فيها فرق متعددة منها فرق ضلالة ومنها فرق هداية فهل يجوز أن نقول عن الشهداء (وهم العالمون بالأعمال فى هذه الفرقة والمسئولون عنها) إنهم أنبياء ورسل؟!!

وحتى اللفظ الثانى الذى نقلوه لهذا الحديث وهو قول الإمام (ومن هذه الأمة إمامها)(2)

فالحديث لا يدل على ما ذهبوا إليه بل هو إضافة من الإمام بدليل قوله (ومن)، فهو يريد أن يقول بأن هذه الأمة ستأتى بإمامها إضافة للشهداء من الصالين الذين سينزعهم الله، من باقى فرق الأمة، والتى ورد فى روايات متعددة بأنها اثنتين وسبعين فرقة.

ص: 248

1- (1) تفسير القمى - على بن إبراهيم القمى - ج 2 - ص 143-144

2- (2) الأمثل - ناصر مكارم الشيرازى - ج 12 - ص 286

ولو تم غض النظر عن أى مآثور ودققنا فى القرآن فسيتم لنا الفهم الصحيح:

إذ أن (النزع) لا يكون للشىء المحمود قال الفراهيدى (نزعت الشىء: قلعته، أنزعه نزعاً، وانتزعته أسرع وأخف. ونزع الأمير عاملاً عن عمله. قال: نزع الأمير للأمير المبدل ونزعت فى القوس نزعاً. والسياق النزع هو فى النزع ينزع نزعاً، أى: يسوق سوقاً)(1).

وقال الراغب (نزع: نزع الشىء جذبه من مقره كنزع القوس عن كبده ويستعمل ذلك فى الإعراض، ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب، قال تعالى: (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) وانتزعت آية من القرآن فى كذا ونزع فلان كذا أى سلب قال: (تنزع الملك ممن تشاء) وقوله: (والنازعات غرقاً) قيل هى الملائكة التى تنزع الأرواح عن الأشباح، وقوله: (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) وقوله: (تنزع الناس) قيل تفلح الناس من مقرهم لشدة هبوبها. وقيل تنزع أرواحهم من أبدانهم)(2).

من هنا نرى بأن النزع يكون بقوة للشىء غير المحمود مثل قوله تعالى:

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (لأعراف: 108).

فموسى جذب يده بقوة وبرهبة ما حدث لها إذ ورد أن البياض فى يده كان كالبرص وهو مرض (الوَصْح) أو (البهق) إذ يجعل اليد بيضاء كالثلج،

ص: 249

1- (1) كتاب العين - الخليل الفراهيدى - ج 1 - ص 357

2- (2) مفردات غريب القرآن - الراغب الأصفهاني - ص 487-488

وهو عند الناس تشوه مذموم.

وقوله تعالى:

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ (لأعراف: من الآية 43).

وقوله تعالى:

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (الحجر: 47).

والنزع هنا جذب لشيء غير مرغوب فيه وهو الغلّ والبغض للغير والتحامل عليه.

وقوله تعالى:

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدَلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران: 26).

والملك هنا نزع ممن لا يستحقه ولا يناسبه فانظر للمقابلة بين قوله تعالى:

تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ..... وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ..... وَتُدَلُّ مَنْ تَشَاءُ

وقوله تعالى:

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (مريم: 69).

والآية واضحة في من هم الذين يُنزعون!!

ص: 250

ثم إنه سبحانه استعمل كلمة (البعث) مع الشهداء الأئمة عليهم السلام في يوم القيامة ولم يستعمل (الرزق) قال تعالى:

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (النحل: 84).

وقال تعالى:

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (النحل: 89).

وفي الحقيقة فقله تعالى:

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَتكون الآية النظرية لقوله تعالى في سورة مريم ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا وهي نظرية لقوله تعالى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (النمل: 83).

ثم أنه سبحانه ولما تكلم عن الأنبياء والرسل استعمل (جىء) فى قوله تعالى:

وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (الزمر: من الآية 69).

ص: 251

بل لو نظرنا للسياق فقولته تعالى في الآية السابقة وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ القصص 74.

فقد يكون هؤلاء الشركاء هم الذين ينزعهم الله فهم ولما كانت طاعتهم في عرض طاعة الله سبحانه كانوا شركاء عند الله روى عن الإمام الصادق عليه السلام ("اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله" فقال: والله ما صلوا لهم ولا صاموا، ولكنهم أحلوا لهم حراما وحرّموا عليهم حلالا فاتبعوهم)⁽¹⁾ فهم ارباب لكونهم قاموا بما يجب ان ينحصر بالرب وهو الله.

ففى يوم القيامة يتم نزع العتاة من الفرق الضالة، وبالمقابل يجاء بالنيبين والشهداء (وهم الأئمة) ويبعثون ليشهدوا على أعمال البشر.

لذا فالمنزوعون هم أئمة الضلالة لذا فسوف يسألهم الله جلّ وعلا:

هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ؟

فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

فهل يكون هكذا خطاب لأنبياء ورسل؟!!!

ص:252

تقدير الكلام فى آيات القرآن... بين الوهم والحقيقة

فى أحد الأيام وبينما كنت فى درس أصول الفقه، والتمن لأحد مشاهير العلماء سألت الأستاذ مستفسراً عن إمكانية توجيه إحدى العبارات على غير ما كان يفهم الأستاذ، فأجبنى بما معناه: هذا لا يمكن لكون هذا الكتاب دقيق العبارة وصاحبه قد قام بعدد أحرفه حرفاً بحيث لا يمكن ان يخلّ بمعناه بهذا التقدير والتوجيه. وهذا الجواب (المبالغ فيه) جرّ وراءه سؤالاً آخر وهو: لو كان البشر بهذه الدقة فلم لا يكون الله أولى بهذا فى كتابه؟ ولماذا لا نعامل القرآن بهذا الاحترام؟! ولماذا يقوم اللغويون والمفسرون بتوجيه العديد من الآيات والتراكيب القرآنية بما يخلع عن تلك الآيات بلاغتها ورونقها لتصبح كلاماً عادياً لا مزية فيه؟! فكلام الله أولى بهذا الاحترام من كتب عباده!

فكثيراً ما تجد آياتٍ يعتبر المفسرون واللغويون أن لها تقديراً معيناً قد يخالف ترتيب كلماتها في المصحف، أو أن التقدير يزيد لها الفاظاً لا وجود لها في النص، وما يتبع ذلك من معارك نحوية (برينة) تقوم بين البصريين الذين (يقولون) الله باتجاه اليسار، بينما يثور عليهم الكوفيون فيقولون الله باتجاه اليمين! ولشدّ ما يصل العجب ذروته عندما يبرز صنف ثالث فيحكم على النص القرآني بالتوجيه باتجاه ثالث بناءً على نص شعري قائله مجهول! ولا أعلم كيف جوزوا أن يقعدوا القواعد على النص القرآني بسبب شعرٍ قائله مجهول بينما لا يرتضون لكثير من الآيات أن تؤخذ كما هي بل يجب أن تمرّ على مقصّ الرقيب اللغوي فيقوم بتوجيهها وتصنيعها لتلائم القاعدة التي يؤمن بها هو! يقول الفخر الرازي (1) (إذا جوزنا إثبات اللغة بشعرٍ مجهولٍ فجواز اثباتها بالقرآن العظيم أولى، وكثيراً ما نرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم فإنهم إذا جعلوا ورود البيت المجهول على وفقها دليلاً على صحتها فلاّن يجعلوا ورود القرآن دليلاً على صحتها كان أولى).

فينتج عن ذلك نصوص لم تنزل من السماء، بل قالها بشر يخطئون ويصيبون، ويتكلفون ويتعسّفون، ويختلفون اختلافاً فاحشاً، ولكنهم يتفقون في النهاية على أن كلام الله قابل للتوجيه، وذلك بعدما يضيفون عبارات من عندهم بحجة أن كلام الله يتضمن تلك المحذوفات المقدّرة!

ص: 254

لكن المحسوس فى علاقات العقلاء فيما بينهم أن من الصعوبة تصور المتكلم بما فكر به قُبيل كلامه، أو قبله أو بعده، والأصعب منه توجيه كلامه بعد خروجه منه وفى لحظة غياب المتكلم، وهذا الذى أقوله هو الذى يراه يومياً الكثير من الدارسين والذين يحاولون سبر أغوار بعض النوابع والمفكرين ممن سبقوهم بأجيال، فترى أن المقتفين لآثارهم من طلبة ومعجبين ومحلّين يختلفون دائماً فى الذى قصده ذلك العالم بقوله الفلانى، أو بإشارته الفلانية، وبلفته هناك وكلامه هنا، وغير ذلك، وما هذا الا تابع للمستويات العقلية المختلفة التى تنظر لهذا النص من مستويات مختلفة، وزوايا مختلفة، وأرصدة ثقافية وخلفيات متباينة من جهة، ودرجة وضوح الكلام الذى يدور حوله التحليل من جهة اخرى، فكلما كانت العقول التى تناقش النص المعين متقاربة ثقافياً واجتماعياً كانت النتائج حول ذلك النص متقاربة، والعكس صحيح، وكلما كان النص واضح ولا مجال لتطرق الاحتمال اليه كانت النتائج متقاربة، والعكس صحيح، وهذا الذى نقوله يطرّد وينعكس نسبة لصاحب النص المقصود، فكلما كان صاحب النص أقرب للعصمة كان فهم ما يكتنف الكلام ويتصل به من طريقة تفكير أصعب توقعاً بل تكاد أن تكون من المحال، وكلما كانت شخصية صاحب النص أبعد من العصمة والكمال كان توقع فهم ما يكتنف النص من دوافع وأسباب وما يتصل به من تفكير اقرب الى الاستشراق، ومن هنا ننتقل الى الكلام الآلهى فلو كان هذا يخص البشر وهم ما بين معصومين وغير معصومين فكيف الحال مع خالق الطرفين

والمحيط بهما؟! خصوصاً مع قول العلماء ومنهم الشهيد الصدر بعدم جواز تقويل المعصومين ما لم يقوله، بل وحتى عدم التطرق لتوقع ما يريدون قوله أو توقع ما قالوه بأوضاع معينة وذلك لمكان المستوى العقلي والروحي للمعصومين، يقول الشهيد الصدر وهو في صدد الكلام حول ما يجوز وما لا يجوز للخطباء من نقله عن لسان حال المعصومين عليهم السلام (ونحن نعلم بأن حال أولئك الأبطال الأفاضل أعلى من أن يفهمه العرف، فالتنزل بمستواهم الى درجة العرف الشائع ظلم لهم لا محالة)⁽¹⁾ وقد ناقش الشهيد الصدر (قد) ذلك بشكل دقيق في كتابه سالف الذكر⁽²⁾.

فإذا كان هذا التنزيل من مستوى هؤلاء العظماء هو ظلم، مع أنهم مخلوقون مربيون فكيف الحال بالخالق والرب؟! وكيف نُنزله الى مستوى العرف الشائع وطرائق الكلام الإنسانية وبالتالي نقول ما لم يقل في كتابه؟!!

فإن قال قائل: إن التقدير من فنون الكلام العربي والذي نزل كلام الله على طيبه حتى يقيم الحجة ويعجز الناس! قيل له: لو كان ما تقول صحيحاً لما كان الإعجاز سمة من سمات كلام الله! فهو ككلام البشر حذو القذة بالقذة فما المائز وأين الإعجاز؟!!

إن كل ما قيل في ذلك هو نصوص من مفسرين بشر غير معصومين توهموا أن الإعجاز هو ذلك لا غير، وهؤلاء هم جزء من المفسرين الذين

ص: 256

1- (1) أضواء على ثورة الإمام الحسين - الشهيد الصدر الثاني - ص 126

2- (2) انظر الاضواء من ص 121 الى ص 130

هاموا على وجوههم ليثبتوا ماهية إعجاز القرآن فمنهم من ذهب الى (الصدِّرفة) ومنهم من ذهب الى كون الإعجاز شىء ذوقى يُعلم ولا يفهم، وبغض النظر عن ماهية الإعجاز القرآنى، فالواضح أن الكلام الالهي لا يمكن ان يكون كالكلام البشرى بكل قواعده، كيف والإمام الصادق عليه السلام يقول (تجلى الله لخلقه فى كلامه ولكن لا يبصرون)⁽¹⁾ فلو كان البشر قادرين على الإحاطة بكل قواعد وطرائق الكلام الإلهي لكانوا محيطين باللامحدود وكيف يكون المحدود محيطا باللامحدود؟! ولو أبصر البشر كيف تجلى الله لخلقه لما عرفوا الله بالمعنى الشائع لهذه العبارة إذ أنهم يعبرون عن احدهم بأنه (عارف كامل)!!

فشبكة العلاقات اللفظية التى تنساب بين الآيات القرآنية تكاد أن تكون عصية عن الإمام بها، إن لم نقل إنها عصية فعلا!

فعدد آيات القرآن يربو على ستة آلاف ومئتي آية وتيِّف، وعدد كلمات القرآن تسع وتسعون ألفاً ومئتان وسبع وسبعون كلمة على قراءة، فلو أخذنا بنظرية التأويل وهى نظرية يقول أصحابها بأن القرآن عبارة عن تبادلٍ للكلمات فى الآيات القرآنية، يظهر لدينا:

$615517400 = 99277 * 6200$ ستمائة وخمسة عشر مليوناً وخمسة مئة وسبعة عشر ألفاً وأربعمئة قضية ومسألة فى القرآن!! فلو كان

لهذا النظرية حظ الثبوت لكُنَّا أمام نصوص تجمل لنا جميع المسائل العلمية فى هذا

ص: 257

العالم!! ولَكُنَّا أمام شرح جديد لحديث الإمام الباقر عليه السلام بقوله (إن رسول الله صلى الله عليه وآله علم عليا عليه السلام بابا يفتح له الف باب ويفتح كل باب الف باب)(1).

نعم المبصر سيعلم بأن افضل طريقة لمعرفة الله هي أن يعرف بأن الله لا يمكن ان يُعرف!! بل إن الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق! يقول أمير المؤمنين عليه السلام(2) (إعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً. فاقصر على ذلك ولا تقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته وتولت القلوب إليه لتجرى في كيفية صفاته وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها وهي تجوب مهاوى سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه فرجعت إذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته).

ص:258

1- (1) الخصال - الشيخ الصدوق - ص 645

2- (2) نهج البلاغة - خطب الإمام على عليه السلام - ج 1 - ص 162-163

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (آل عمران: 7).

والإمام يقول صريحاً بأن الواو في قوله تعالى (والراسخون في العلم) هي استئنافية وبالتالي يمدح الله الراسخين في العلم لكونهم يؤمنون بكل ما جاء من الله، ولو كانوا غير محيطين به ما دام هو قد جاء من ربهم. وهذا الموقف هو مصاص التسليم المطلوب من العبد والذي ورد في روايات عديدة منها ما نُقل (1) (عن زرارة بن حمران قال كان يجالسنا رجل من أصحابنا فلم يكن يسمع بحديث الا قال: سلّموا، حتى لُقّب فكان كلما جاء قالوا قد جاء سلّم، فدخل حمران وزرارة على أبي جعفر عليه السلام، فقال إن رجلا من أصحابنا إذا سمع شيئا من أحاديثكم قال: سلّموا حتى لُقّب، وكان إذا جاء قالوا: (جاء) سلّم فقال أبو جعفر عليه السلام قد أفلح المسلمون، إن المسلمون هم النجباء).

فالتسليم بكلام الله كما هو، هو من التسليم الممدوح، لكون القول بالتقدير هنا هو ظن لا دليل عليه، لكوننا لا ننطق عن إنسان نعرفه حتى نرجح ما يقول إذا قدرنا قوله بل نتكلم عن خالق كل شيء وهو العليم

الخير، والتقدير فى الحقيقة ما هو إلاً قياس نحوى يُلحق المفسّر واللغوى بواسطته كلام الله بكلام العرب الجاهليين! حتى يطبق القواعد النحوية المستنبطة من كلام الجاهليين على الكتاب الكريم! والظاهر ان ذلك السلوك من النحويين جاء لكونهم لا يعيرون لمعانى النحو اهتمامهم بالنحو وكيفية تطويع الآيات للقواعد النحوية المستنبطة من الشعر العربى! (فطرق الإثبات، والنفى، والتأكيد، والتوقيت، والتقديم والتأخير، وغيرها من صور الكلام، قد مروا بها من غير درس الآ ما كان منها ماساً بالإعراب أو متصلاً بأحكامه وفاتهم لذلك كير من فقه العربية وتقدير أساليبها)(1) وهذه طامة أخرى فبدل ان يكون الكتاب - وهو النص قطعى الصدور وسامى المقام - هو موضوع القواعد للغة العرب لكونه كما قال ذلك القرشى (والله إن لقوله الذى يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يُعلَى وإنه ليحطم ما تحته)(2) فهذه شهادة الجاهليين فى القرآن فلماذا نقدم أشعار (الفحول) وهم من الكفرة والوثنيين والماجنين الخلعاء، على كتاب الله؟! كتاب الله؟! كتاب الله؟! كتاب الله! كتاب الله!

والقياس هنا لا مجال له لكون المستعمل للقياس سيطبق قواعده على القرآن وهذا لا يكون (إذ لا يكاد نحوى من النحاة الآ وله أقيسة معينة، سواء كان بصرياً أم كوفياً أم بغدادياً أم أندلسياً ولعل ما يحظى به النحوى من حرية فى هذا المجال تتيح له ان يشيد آراءه الشخصية بدون قيد كان سبباً فى اقباله

ص:260

1- (1) إحياء النحو - ابراهيم مصطفى - ص 3

2- (2) المستدرک - الحاكم النيسابورى - ج 2 - ص 507

على هذا النوع!!(1) إذن فالحرية فى مجال القياس هى التى جعلت النحاة يقبلون عليه، وبالتالى فعندما يُدخلون القياس فى القرآن تستمر (هذه الحرية) فى كتاب الله فىصبح مسرحاً لآرائهم وليس لما يريد الله، فيذهب (التدبر) فى كتاب الله أدراج الرياح لكون التدبر هو السير دبر الآية لتوصلنا لما يريد الله، وليس دبر كلام النحوى الذى يقيس ليوصلنا لما يريد تبعاً لأشعار الملك الضليل وصاحب لواء الشعراء الى جهنم! ومن آفات القياس على كلام الشعراء وكلام العرب خارج القرآن هو إن بعض هذه الأشعار مختلق ليس له أساس وإنما يفتعله البعض لنصرة آرائهم النحوية! وخذ مثلاً قصة (اللاحقى) إذ يقول (سألنى سيبويه عن شاهد فى تعدى - فعل - احدى صيغ المبالغة فعملت له هذا البيت وهو:

حذر أموراً لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الأقدار(2)

فهذا اللاحقى وحتى لا يقال إنه قد سئل ولم يُجب، قام باختراع بيت شعري من عنده ليكون شاهداً شعرياً وليدخل كتاب سيبويه بعد ذلك ليصبح من شواهد (الكتاب) المقدسة التى لا يعترىها شك! وما (المسألة الزنبرية) منك بعيد وما دفع فيها الكسائي أو الخليفة الأمين من رشاوى ليوافقه بعض الأعراب وليشهد شهادة الزور الشهيرة تلك(3). حتى أصبحت لغة العرب بلا قواعد حقيقية بل هى قواعد تتبع أهواء المدينة والمجتمع والنحوى، فنحويو

ص: 261

1- (1) أثر القرآن والقراءات فى النحو العربى - محمد سمير اللبدي - ص 44

2- (2) أثر القرآن والقراءات فى النحو العربى - محمد سمير اللبدي - ص 80

3- (3) تاريخ الكوفة - السيد البراقى - ص 480

البصرة يجب ان ينصروا مذهب اهل البصرة حتى لا ينتصر اهل الكوفة عليهم والعكس صحيح (لكل مذهب اتجاهه ولكل مدرسة طريقته ولكل بصرى رأيه ولكل أندلسى تخريجه كما أن لكل بغدادى تأويله وتعييده.... وإذا أردنا أن نخطيء من يقول: جاءت الزيدون كما يقول البصريون طلع علينا الكوفيون بصحة ذلك على تقدير (جاءت جماعة الزيدين) وإذا أردنا أن نخطيء من يقول: رأيت الرجلان على اعتبار أن المثنى ينصب ويجر بالياء، وجدنا من يصوّب لنا ذلك على لغة من يستعمل المثنى بالألف فى كل حالاته(1)..

لذا سأقدم للقارىء نماذج من التقديرات التى اقرها اصحابها مع اختلافهم فيها!!

قال ابو البقاء العكبرى (الباء فى (بسم) متعلقة بمحذوف، فعند البصريين المحذوف مبتدأ والجار والمجرور خبره، والتقدير ابتدائى بسم الله..... وقال الكوفيون: المحذوف فعل تقديره ابتدأت أو أبدأ فالجار والمجرور فى موضع نصب بالمحذوف وحذفت الألف من الخط لكثرة الاستعمال(2).

ولا اعلم هل اصاب البصريون الغيب بمعرفتهم ما حذفه الله! أم أن الكوفيين هم اصحاب الحظوة بهذا العلم الذى لم يطلعهم الله عليه؟!!

قال العكبرى فى قوله تعالى: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا

ص:262

1- (1) اثر القرآن و القراءات فى النحو العربى - محمد سمير اللبدي - ص 384

2- (2) إملا ما من به الرحمن - أبو البقاء العكبرى - ج 1 - ص 4

لَكُمْ (لأنفال: 7) (1) قوله تعالى (وإذ يعدكم) إذ في موضع نصب: أى واذكروا، والجمهور على ضم الدال، ومنهم من يسكنها تخفيفاً لتوالى الحركات، و (إحدى) مفعول ثان، و (أنها لكم) فى موضع نصب بدلا من إحدى بدل الاشتمال، والتقدير: وإذ يعدكم الله ملكة إحدى الطائفتين)

قلت: كيف علم العكبرى ان الله اراد ان يقول (ملكة احدى الطائفتين) ولماذا لم يقل ان الله اراد ان يقول (عَلْبَة احدى الطائفتين) او غيرها من العبارات!؟

ثم ان قوله تعالى (أَنَّهَا لَكُمْ) تغنى عن أى تقدير فى المعنى فكونها لهم يعنى فى النهاية إنهم سينتصرون على احدى الطائفتين بدون أن نحتاج لتقدير فى الآية، بل التقدير قد أخلّ بالمعنى، فانظر الى ركاكة الجملة بعدما تضيف اليها ما اضاف العكبرى:

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ (لأنفال: 7)!!

قال العكبرى (قوله تعالى (ودخل معه السجن) الجمهور على كسر السين، وقرئ بفتحها والتقدير: موضع السجن أو فى السجن) (2)

قلت: لا مجال للتقدير هنا بعد اكمال المعنى ومجيئه بعبارة رشيقة جامعة مانعة، فلم نقدر وجود حرف جر محذوف او أن نضيف كلمة (موضع)! هذا هو التحكم المحض فى النصوص.

ص: 263

1- (1) إملاء ما منّ به الرحمن - أبو البقاء العكبرى - ج 2 - ص 4

2- (2) إملاء ما من به الرحمن - أبو البقاء العكبرى - ج 2 - ص 53

قال العكبرى فى قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (يوسف: 33).

(قوله تعالى (رب السجن) يُقرأ بكسر السين وضم النون، وهو مبتدأ، و (أحب) خبره، والمراد المحبس، والتقدير: سكنى السجن، ويُقرأ بفتح السين على أنه مصدر، ويُقرأ "رب" بضم الباء من غير ياء، "والسجن" بكسر السين، والجر على الإضافة: أى صاحب السجن، والتقدير لقاءه أو مقاساته(1)).

قلت: اليس هذا هو الاعتساف بتقدير الكلام! فيوسف عليه السلام يريد ان يعبر عن تفضيل السجن على البقاء فى القصر ويواجه اغواء نساء القصر، ولكن العكبرى مرة يقدر كلمة (سكنى) للنص حتى يستقيم، فالنص على وضعه الأسبق لم يكن مستقيماً حتى نزيد له هذه الكلمة! ومرة اخرى قدر ان يوسف يتمنى لقاء صاحب السجن او مقاساة السجن!! ولا أعلم كيف يستقيم المعنى الجميل المقتضب الكامل الذى قاله الله مع ما تقول العكبرى على الله به!؟

قال ابن المنير الاسكندرى معقبا على الزمخشري فى قوله تعالى:

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك: 14)

قال (أنكر أن لا يحيط علما بالسر والجهر من خلق ذلك الخ) قال أحمد:

ص: 264

هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح للطريق التي يسلكها أهل السنة في الرد عليهم... والتقدير في الجميع: ألا يعلم السر والجهر من خلقهما، ومتى حدونا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضايق التكلف والتعسف، فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر، والتقدير: ألا يعلم الله المسرين والمجاهرين(1)

قال النحاس في قوله تعالى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (الأعلى: 15) (الصواب عند محمد بن جرير الطبري ان يكون المعنى: صلى فذكر اسم ربه في صلاته بالتحميد والتمجيد)(2).

وأنت بملاحظة التركيب المترهل والذي لا يشبه التراكيب القرآنية ترى ابن جرير الطبري (لوصحت النسبة) لا يصحح ما قاله الله! فالصواب ما يراه هو لا ما يراه خالقه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال النحاس في رقبوله تعالى:

وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (النساء: من الآية 36).

(قال جل وعز: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (آية 36). أى وصاكم بهذا، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً)(3).

ص: 265

1- (1) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف - ابن المنير الإسكندري - ج 4 - ص 137

2- (2) إعراب القرآن - النحاس - ج 3 - ص 682

3- (3) معاني القرآن - النحاس - ج 2 - ص 82-83

قلت: ولا ادري لماذا لا يكون التقدير (وترفقوا بالوالدين إحسانا) أو (وأوصيكم بالوالدين إحسانا) أو غيرها!!

قال النحاس (قال جل وعز: أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (الكهف: 41). أى غائرا، والتقدير: ذا غور)(1).

قال النحاس (قال جل وعز فسوف يلقون غيا (مريم: من الآية 59) (آية 60). روى سفيان عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: هو واد فى جهنم. قال أبو جعفر: والتقدير عند أهل اللغة: فسوف يلقون جزاء الغي)(2).

قال النحاس (قال جل وعز فقد جاؤ ظلماً وزوراً (الفرقان: من الآية 4) (آية 4). قال مجاهد: أى كذبا. قال أبو جعفر: والتقدير فقد جاءوا بظلم وزور)(3).

قال الداني (فإن قال قائل فما علة من عد الكلم الواقعة فى الفواتح نحو (الم) و (المص) و (كهيعص) و (طه) و (طسم) و (يس) و (حم) رؤوس آى وما علة من لم يعدهن قيل من عدهن فلامرين أحدهما كونهن مشبهات للجملة المستقلة للكلام التام، وذلك من حيث كن أسماء للسور اللاتى وقعن فى أوائلهن والتقدير فيهن: أتلم ألم)(4).

ص: 266

-
- 1- (1) معانى القرآن - النحاس - ج 4 - ص 246
 - 2- (2) معانى القرآن - النحاس - ج 4 - ص 341
 - 3- (3) معانى القرآن - النحاس - ج 5 - ص 9
 - 4- (4) البيان فى عد آى القرآن - أبو عمرو الدانى - ص 113

قال الثعلبي في تفسيره في قوله تعالى: وَقَالَ دَاوُدُ جَالُوتَ ... وعلمه مما يشاء) فقال الكلبي وغيره: يعنى صنعة الدروع، والتقدير: فى السرد(1) قلت: ولماذا لم يكون قوله وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (النمل: 16) فهذا نص قرآنى على تعليم الله لآل داود منطق الطير!

قلت: إن الفرق شاسع بين قوله تعالى: مما يشاء، وبين قول الكلبي: فى السرد. فأيهما نتبع؟!!!

قال السمعاني فى تفسيره فى قوله تعالى: وَسَيَقِىءُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (الزمر: 73) واعلم أن عند الكوفيين هذه الواو محذوفة فى المعنى، وعند البصريين ليست بمحذوفة، والتقدير على قول البصريين: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها دخلوها(2).

قلت: الظاهر أن الذى قال بالتقدير هنا استعجل ذلك لكونه تعالى بعد هذا التركيب القرآنى يقول وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (الزمر: من الآية 73) فالذى يظهر ان خطاب الخزنة كان كله خارج الجنة ومن يدخلون الى الجنة بدليل قول الخزنة لهم فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ بينما التقدير جعل الدخول قبل خطاب الخزنة وبالتالي قلب المعنى!

ص: 267

1- (1) تفسير الثعلبي - الثعلبي - ج 2 - ص 223

2- (2) تفسير السمعاني - السمعاني - ج 4 - ص 483

قال النسفي في قوله تعالى (يسئلونك عن الأنفال.... كما أخرجك ربك) والتقدير: قل الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثبات مثل ثبات اخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون(1)

قال ابن عطية الاندلسي فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ (البقرة: من الآية 185) فنصب (الشهر) على أنه ظرف والتقدير: فمن شهد منكم المصر في الشهر(2).

قال ابن عطية الاندلسي فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ (النساء: من الآية 88) معناه فرقتين ونصبهما على الحال كما تقول ما لك قائما هذا مذهب البصريين، وقال الكوفيون نصبه بما يتضمنه: ما لكم من الفعل والتقدير: ما لكم كنتم فتنتين أو صرتم فتنتين!(3)

قال ابن عطية الاندلسي قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (ابراهيم: 28) الآية هذا تنبيه على مثال من ظالمين أضلوا والتقدير: بدلوا شكر نعمة الله كفرا(4)!

ان الله يقول: بدلوا نعمته والاندلسي يقول: بدلوا شكره! فهل هو اعلم من الله بعباده؟!

قال ابن الجوزي (قوله تعالى: وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) (البقرة: من

ص: 268

-
- 1- (1) تفسير النسفي - النسفي - ج 2 - ص 55.
 - 2- (2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي - ج 1 - ص 70.
 - 3- (3) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي - ج 2 - ص 88.
 - 4- (4) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي - ج 3 - ص 337.

الآية 83)) اختلف المفسرون فى المخاطبين بهذا على قولين: الأول: أنهم اليهود، والتقدير من سألكم عن شأن محمد صلى الله عليه - وآله - وسلم فاصدقوه وبينوا له صفته ولا تكتموا أمره قاله ابن عباس وابن جبير وابن جريح ومقاتل(1).

قال البيضاوى فى قوله تعالى: لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (لأعراف: من الآية 154) دخلت اللام على المفعول لضعف الفعل بالتأخير أو حذف المفعول واللام للتعليل والتقدير: يرهبون معاصى الله لربهم(2).

قال القرطبى فى قوله تعالى: تَنْزَعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (القمر: 20) (قال الطبرى: فى الكلام حذف، والمعنى تنزع الناس فتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر، فالكاف فى موضع نصب بالمحذوف. الزجاج: الكاف فى موضع نصب على الحال، والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل إنه للحفر التى كانوا فيها. والاعجاز جمع عجز وهو مؤخر الشىء، وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشبها بالنخل انكبت لوجوها(3).

قلت: إن الآية واضحة فى تشبيه الناس بأعجاز النخل المنقعر وليس بالحفر!!

قال الزركشى (قوله تعالى: إِنَّهَا خَيْرٌ لَّكُمْ (النساء: من

ص: 269

1- (1) نواسخ القرآن - ابن الجوزى - ص 43-44

2- (2) تفسير البيضاوى - البيضاوى - ج 3 - ص 62-63

3- (3) تفسير القرطبى - القرطبى - ج 17 - ص 137

الآية 171)، أى وائتوا أمرا خيرا لكم،.... وحمله الكسائي على إضمار "كان" أى يكن الانتهاء خيرا لكم. ويمنعه إضمار كان، ولا تضمير فى كل موضع، ومن جهة المعنى إذ من ترك ما نهى عنه فقد سقط عنه اللوم، وعلم أن ترك المنهى عنه خير من فعله، فلا فائدة فى قوله "خيرا" وحمله الفراء على أنه صفة لمصدر محذوف، أى انتهوا انتهاء خيرا لكم. وقال: إن هذا الحذف لم يأت إلا فيما كان أفعل، نحو خير لك، وأفعل. ورد مذهبه ومذهب الكسائي بقوله تعالى: **وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ**، لو حمل على ما قال لا يكون خيرا، لأن من انتهى عن التثليث وكان معطلا لا يكون خيرا له. وقول سيبويه وائت خيرا يكون أمرا بالتوحيد الذى هو خير. فله در الخليل وسيبويه، ما أطلعتهما على المعانى! (1)

قلت: إن كلام الزركشى والفراء وسيبويه والكسائي متناقض مع بعضه البعض، وكله لا دليل عليه سوى ما فى أذهانهم من تقدير كلام الله المحذوف والذى لو وجد فهو فى الغيب ولا يعلمه لا سيبويه ولا الخليل.. فله در الخليل وسيبويه! قال الزركشى (وزعم النووى فى قوله تعالى: **قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ** (النور: من الآية 53)، إن التقدير: ليكن منكم طاعة معروفة.) (2)

قلت: الفرق كبير بين النص القرآنى والنص النووى!

قال الزركشى (قوله: **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ** (10) **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ**

ص: 270

1- (1) البرهان - الزركشى - ج 3 - ص 203-206

2- (2) البرهان - الزركشى - ج 3 - ص 203-206

قال النحاس: التقدير فنصرناه ففتحنأ أبواب السماء(1).

قلت: إن المعنى المراد إيصاله جراء عدم ذكر كلمة (فتحنأ) قد يراد منه إيصال مدى سرعة استجابة الدعاء من الانبياء أو غير ذلك مما يصب في نفس المجال، فالنص بهذا الشكل القرآني جاء لحكمة ولا نقص فيه ليقدر له النحاس هذه الكلمة، ثم ما الدليل على تقدير كلمة (فتحنأ) ولم لم يقل التقدير (فاستجبنا) أو أى كلمة اخرى!؟

قال الزركشى (قوله: فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ (البقرة: من الآية 243). فقوله: "ثم أحياهم" معطوف على فعل محذوف تقديره فماتوا ثم أحياهم، ولا يصح عطف قوله: "ثم أحياهم" على قوله: "موتوا" لأنه أمر، وفعل الأمر لا يعطف على الماضى). (2)

قلت: المفترض أن القاعدة النحوية تؤخذ من القرآن لكونه خير من مصادرهم الباقية من اشعار العرب التى يخترع بعضها لنصرة اقوالهم لا اكثر، لكننا نرى جليا بان القرآن ولما خالف القاعدة النحوية جرى تطويع القرآن للقاعدة بينما المفروض هو العكس، فهل ان الشعر الذى صار قاعدة افصح من القرآن!؟

قال الزركشى (وقوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ

ص: 271

1- (1) البرهان - الزركشى - ج 3 - ص 203-206

2- (2) البرهان - الزركشى - ج 3 - ص 203-206

(البقرة: من الآية 213)، أى فاختلفوا فبعث، وحذف لدلالة قوله: (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)، وهى فى قراءة عبد الله كذلك. وقيل: تقديره كان الناس أمة واحدة كفارا، فبعث الله النبيين، فاختلفوا. والأول أوجه. (1)

قال الزركشى (قوله: أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ لِأَعْرَافٍ: من الآية 63)، فالهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف تقديره: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم. (2)

قال الزركشى (قوله: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا (المائدة: من الآية 38) قال سيبويه: الخبر محذوف، أى فيما أتوه السارق والسارقة، وجاء (فاقطعوا) جملة أخرى.... وقال غيره: السارق مبتدأ، فاقطعوا خبره، وجاز ذلك لأن الاسم عام، فإنه لا يريد به سارقا مخصوصا، فصار كأسماء الشرط، تدخل الفاء فى خبرها لعمومها، وإنما قدر سيبويه ذلك لجعل الخبر أمرا، وإذا ثبت الإضمار فالفاء داخله فى موضعها، تربط بين الجملتين. ومما يدل على أنه على الإضمار إجماع القراء على الرفع، مع أن الأمر الاختيار فيه النصب. قال: وقد قرأ ناس بالنصب ارتكانا للوجه القوى فى العربية، ولكن أبت العامة إلا الرفع. (3)

قال الشوكانى فآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ (النساء: من الآية 170) اختلف

ص: 272

1- (1) البرهان - الزركشى - ج 3 - ص 203-206

2- (2) البرهان - الزركشى - ج 3 - ص 203-206

3- (3) البرهان - الزركشى - ج 3 - ص 139-140

أئمة النحو في انتصاب خيرا على ماذا؟ فقال سيبويه والخليل بفعل مقدر: أى واقصدوا أو أتوا خيرا لكم، وقال الفراء: هو نعت لمصدر محذوف: أى فأمنوا إيماننا خيرا لكم، وذهب أبو عبيدة والكسائي إلى أنه خبر لكان مقدر: أى فأمنوا يكن الإيمان خيرا لكم(1)

قلت: المعنى واضح فالإيمان خير لهم، ولكن علماء النحو ينصب اهتمامهم على العامل وليس على المعنى! فلو كان مقاله الخليل وسيبويه حقا فما موقع (لكم) فى الجملة؟!!

قال ابن حجر بعد إيراده قوله تعالى:

وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَ مَا كَفَرَ سَلِيمًا وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السُّحْرَ وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (البقرة: 102).

قال ابن حجر (أخرج الطبرى من طريق العوفى عن ابن عباس قال: لم ينزل الله السحر ومن طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس مثله قال الطبرى فعلى هذا فالمراد بالملكين جبريل وميكائيل وهاروت وماروت رجالان من أهل بابل وفى الكلام تقديم وتأخير والتقدير وما كفر سليمان وما أنزل

ص: 273

على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر بابل وهاروت وماروت بدل من الناس والقراءة المشهورة أن الملكين بفتح اللام وبنى الطبرى الاختلاف فيها على تفسيرها فمن قرأ بالفتح قال هما هاروت وماروت أو جبريل وميكايل ومن بالكسر قال هما علمان ملكا بابل أو شيطانان ورجح الأول لشهرة القراءة بالفتح ولتعسف التأويل والتركيب ممن قال جبريل وميكايل(1)

قلت: انظر اعترافه بالاعتساف فى التأويل بل وما جرّ ذلك من مصيبة وهى القول بأن جبريل وميكايل عليهما السلام يعلمان السحر فى بابل!!

ص:274

1- (1) العجاف فى بيان الأسباب - ابن حجر العسقلانى - ج 1 - ص 315-316

كَلَاً.. في القرآن

ورد لفظ (كلا) في ثلاثة وثلاثين مورداً منها مورد واحد حكاية عن موسى عليه السلام وهو في سورة الشعراء، في قوله تعالى:

فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) الشعراء 61-62

أما باقى الموارد وهى اثنين وثلاثين مورداً فكلها قول رب العالمين كما فى قوله تعالى:

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (المؤمنون: 100).

وقوله تعالى:

قُلْ أَرُونى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ (س - با: 27).

ص: 275

وقوله تعالى:

كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى (المعارج: 15).

وقوله تعالى:

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (المعارج: 39).

وقوله تعالى:

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (المدثر: 16).

وقد اختلف اللغويون والمفسرون في معناها اختلافا كبيرا قال الطريحي (و "كلا" كلمة ردع وزجر ومعناها إنته لا تفعل، قال تعالى: (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلا) أى لا يطمع فى ذلك. ويكون بمعنى حقا كقوله تعالى: (كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) أى لا ينبغى أن يكون الأمر هكذا، وقيل: كلا زجر تقديره لا تفعلوا هكذا ثم خوفهم فقال: (إذا) الخ.

قال الشيخ أبو على: وكلا حرف وليس باسم وتضمنه معنى إرتدع لا يدل على أنه ك - (صه) بمعنى أسكت و (مه) بمعنى اكفف.

وقال ابن هشام: هى مركبة عند تغلب من كاف التشبيه ولا الناهية، وإنما شددت لامها لتقوية المعنى ولدفع توهم بقاء معنى الكلمتين، وعند غيره هى بسيطة، وهى عند سيبويه والأكثر حرف معناه الردع والزجر لا معنى لها عندهم إلا ذلك.. حتى قال جماعة منهم: متى سمعت كلاً فى سورة فاحكم أنها مكية.

قال: ورأى الكسائي وأبو حاتم ومن وافقهما أن معنى الردع والزجر ليس مستمرا فيهما، فزادوا فيها معنى ثانيا يصح عليه أن يوقف دونها ويبتدأ بها ثم اختلفوا في تعيين ذلك المعنى على ثلاثة أقوال: (أحدها) أن تكون بمعنى حقا.

(الثاني) أن تكون بمعنى "ألا" الاستفتاحية.

(الثالث) أن تكون حرف جواب بمنزلة إى ونعم، وحملوا عليه (كلا والقمر) (32/74) فقالوا: معناه إى والقمر..(1)

وما قالوه في القمر خالفهم فيه بعض المفسرين كالأوسى(2) وقال بأنها للزجر، وما قالوه في معنى (حقا) لا يستقيم والسياق القرآني إذ لا معنى له! مع أن الطريحي رجح واعترف بأنها تعنى (أى لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا).

وقال العكبرى (كلا.... وهي حرف معناه الزجر عن قول منكر يتقدمها)(3)

والظاهر أن الأغلب من المفسرين الذين اطّلت على رأيهم يذهبون إلى كون كلا للزجر والردع كالطوسى والثعلبى.... الخ

ولكن الذين قالوا بكونها للردع والزجر اخذوا بالمعنى الذى (قيل) بأنه لها لُغويا ولم ينتبهوا لما فى القرآن ومواردها فيه التى تأبى هذا ومن ذلك:

ص: 277

1- (1) مجمع البحرين - الشيخ الطريحي - ج 4 - ص 64-66

2- (2) تفسير الأوسى - ج 29 - ص 130

3- (3) إملاء ما من به الرحمن - أبو البقاء العكبرى - ج 2 - ص 117

حواره تعالى مع الكلیم موسى:

موسى: رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14).

قال تعالى:

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (الشعراء: 15)

فهل انه تعالى زجر موسى وردعه بقوله: كلا؟! ولو كان كلا هنا للزجر فإن هذا سيجرنا إلى أنه تعالى قد زجر نبينا صلى الله عليه وآله في القرآن في قوله تعالى:

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (1)... إلى قوله تعالى.. كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (12) (عبس 11-12).

فعلى جمهور أهل السنة وبعض مفسرى الشيعة فإن الله قد زجر وردع النبى صلى الله عليه وآله فى القرآن، وطبعا هم لما وصلوا لهذه الآية لم يقولوا عن (كلا) بأنها للزجر!! ومنهم - كابن الجوزى - لما وصل لهذا الموضع قال (كلا أى لا تفعل ذلك)(1) ومنهم - كالطبرى - قال (يقول تعالى ذكره: كلا ما الأمر كما تفعل يا محمد، من أن تعبس فى وجه من جاءك يسعى وهو يخشى، وتتصدى لمن استغنى)(2) فهم لم يقولوا عنها إنها للزجر بل التفتوا عليها لعدم استطاعتهم قول ذلك!!

ص: 278

1- (1) زاد المسير - ابن الجوزى - ج 8 ص 181

2- (2) تفسير الطبرى - ج 30 - ص 68

وكان يكفى ومن خلال جمع الألفاظ القرآنية فى القرآن بأن يقولوا هو حرف جواب، وهو مثل (نعم) ليس له دخل فى الزجر والردع بل هو لمعرفة الجواب فقط، وأما الاستغراق فى غيره فيحتاج للنصوص التى تتبعه وليس منه وإلا فما ذنب بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى:

فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) الشعراء 61-62

فأصحاب موسى لم يقترفوا جرماً عندما قالوا: إِنَّا لَمُدْرِكُونَ، فهم يعبرون عن حالة الخوف الجبليّة التى انتابتهم جراء اقتراب فرعون وجيشه منهم، فهل من الصواب أن نقول بأن موسى زجرهم وردعهم عن تفكيرهم هذا!! إلا ترى بان المسألة لا علاقة لها بزجر أو ردع أو نهى بعنف وإنما هى حرف جواب لتبيين الموقف.

ولاحظ معى الآيات التالية:

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2)

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3)

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) (التكاثر 1-5).

وقوله تعالى:

وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِینَ یُكذِّبُونَ بَیْوَمِ الدِّینِ (11) وَ مَا یُكذِّبُ

ص: 279

بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) (المطففين 10-18).

وقوله تعالى:

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) (النبأ 1-5).

وقوله تعالى:

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (6) (العلق 3-6).

فبعضها لا يحتوى على الزجر لأنه خارج إطار الزجر، وهو لتبيين الموقف فقط فليس هناك من يزجر أصلاً!

ص:

النفاق ومرض القلب

مصطلحان متباينان قرآنيًا

قال تعالى في كتابه الكريم:

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: 49).

وقال تعالى:

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (الأحزاب: 12).

وقال تعالى:

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (الأحزاب: 60).

في الآيات الكريمة نلاحظ أنه سبحانه تكلم عن فئتين اقترنتا في الموارد الثلاثة، وقد سبقت مجموعة (المنافقون) مجموعة (الذين في قلوبهم مرض) في

ص: 281

الترتيب في الموارد جميعاً، وتعاقبتا بواو العطف، مما يقتضى تغييرهما، ومن الغريب أن كثيراً من المفسرين لم يفرّق بين هؤلاء وهؤلاء! فحملوا المرض الذي في القلوب على أنه النفاق، وهذا خلاف السياق القرآني، كما فعل كل من:

القُمي في تفسيره فقال في آية الأحزاب (نزلت في قوم منافقين)(1)

الطوسي في تفسيره نقل عن أبي علي (والظاهر انه الجبائي) قوله (كلهم في معنى المنافقين)(2).

الطبرسي قال في آية الاحزاب 12 (قيل هم بنو سالم من المنافقين)(3)

مكارم الشيرازي(4) في الأمثل إذ قال بعد إشارته إلى إحدى الآيات السالفة (والحق أن مثل هذه الأخبار والمبشرات اعتبرها المنافقون...)(5) مما يجعله يوافق من سبقه بحمل المرض على النفاق.

عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره إذ قال في الأحزاب 12 (هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين)(6)

احتمله الطبري في تفسيره ونقل عن الحسن البصري ما نقله الصنعاني

ص:282

1- (1) تفسير القمي - ج 2 - ص 192

2- (2) التبيان - الطوسي - ج 5 - ص 136

3- (3) مجمع البيان - الطبرسي - ج 8 - ص 140

4- (4) الظاهر أن الشيخ مكارم الشيرازي كان مشرفاً على التفسير وليس مؤلفاً له.

5- (5) الأمثل - ناصر مكارم الشيرازي - ج 13 - ص 186

6- (6) تفسير القرآن - الصنعاني - ج 2 - ص 260

أنفا(1).

واحتمله ابن أبي حاتم في تفسيره أيضا(2).

وأورد النحاس في معانيه: إنهم المنافقون(3).

وكذلك فعل السمرقندی وقال في المرض(4) (شكا ونفاق).

وكذلك ابن زمين مع انه في البداية فسر المرض بأنه (الشك)(5).

وكذلك فعل الثعلبي وقال (شك ونفاق)(6).

وقال الواحدى إنها نزلت في المنافقين(7).

واحتمل ابن الجوزى انه النفاق(8)

ونقل ابن عطية في تفسيره عن قتادة (إنهم الذين أعلنوا النفاق)(9)

وأشار الفخر الرازى إلى كونها في المنافقين(10)

ص: 283

-
- 1- (1) جامع البيان - الطبرى - ج 10 - ص 244
 - 2- (2) تفسير ابن أبي حاتم الرازى - ج 5 - ص 1716
 - 3- (3) معانى القرآن - النحاس - ج 5 - ص 330
 - 4- (4) تفسير السمرقندی - ج 2 - ص 26
 - 5- (5) تفسير ابن زمين - ج 2 - ص 182
 - 6- (6) تفسير الثعلبي - ج 4 - ص 366
 - 7- (7) أسباب نزول الآيات - الواحدى النيسابورى - ص 65
 - 8- (8) زاد المسير - ابن الجوزى - ج 6 - ص 185
 - 9- (9) تفسير القرآن - ابن عطية الأندلسى - ج 1 - ص 95
 - 10- (10) تفسير الرازى - ج 10 - ص 158

وغيرهم من المفسرين ممن تركنا آراءهم. علما أن بعض هؤلاء الذين سردنا أسمائهم لم يقتصر على هذا الرأي بل أنه احتمله مضموماً لآراء أخرى ولم يبت في الرأي الخاص به، مما جعلنا نحمله مسؤولية هذا الرأي لكونه لم ينفه.

وباقى المفسرين - ممن لم يحملوا مرض القلب على النفاق - اختلفوا، فمنهم من قال إنه الشك والريب، ومنهم من قال إنه الزنا.

فأما الشك والريب فهو احتمال منفي طبعاً لنفس علة نفي معنى (النفاق) عن معنى (المرض)، إذ يقول سبحانه وتعالى:

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ اذْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (النور: 50)

فلو كان مرض القلب هو الريب لما كان هناك داع لهذا الاستفهام من العالم المتعال؟ رأيت لو قال لك رجل عاقل (أفي قلوبهم مرض أم في قلوبهم مرض)!! وهو يقصد التفصيل رأيت هذا الكلام معقول ويؤدى غرضه؟! طبعاً كلا، وهذا ما نقوله.

قال تعالى:

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ

ص: 284

إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْبَشَرِ (المدثر: 31)

وهنا كذلك نفس الإشكال، فلو كان للذين (في قلوبهم مرض) معنى المرتاب والشاك لم يكن هناك داعٍ لتغيير اللفظ! فلماذا استعمل اليقين في مقابل الريب علمنا بالمعنى الواضح لهذين المصطلحين، ولكنه لما جعل (الذين في قلوبهم مرض) في مقابل (الذين أوتوا الكتاب) وبمقابل (زيادة إيمان الذين آمنوا) صار لعدم المطابقة معنى، إذن فمرض القلب لا يعنى الريب وإلا لذكره بهذا اللفظ كما ذكر مصطلح (الريب) قبله.

ثم إن الذين قالوا بأن (مرض القلب) هو الشك والريب فهل أن (الشك والريب) أمرٌ واحد وشعور واحد؟! طبعا كلا، فلو كان أمرا واحدا لما قال تعالى:

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (هود: 62).

وقال تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (هود: 110).

وقال تعالى:

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا

ص:

بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (ابراهيم: 9).

فزيادة الريب على الشك وكونه صفة له يفيد كونهما متباينين، فمرة يكون الشك مريباً ومرة يكون خالياً من هذه الصفة. لهذا قال أبو هلال العسكري (1) (الفرق بين الريب والشك: الشك: هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء. وأما الريب فهو شك مع تهمة. ودل عليه قوله تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ . وقوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا . فإن المشركين - مع شكهم في القرآن - كانوا يتهمون النبي بأنه هو الذى افتراه وأعانه عليه قوم آخرون!). وهو كلام نفيس لم أجد أحداً تطرق له، والله اعلم.

والملاحظ أن أغرب الأقوال هو قول قتادة الذى نقله ابن عطية الأندلسى من أنهم (الذين أعلنوا النفاق)!! فهو أراد أن يهرب من القول بترادف النفاق والمرض فسقط بالأدهى! فكيف يعلن عن النفاق والنفاق لا يكون إلا عن طريق إسرار الكفر وإظهار الإيمان؟! فإعلان الكفر هو مرحلة لاحقة لإسراجه، ونفاق الناس به، أما إظهار النفاق فليس له موضوع أصلاً فكيف كان هو مرض القلوب؟!

والسؤال الذى يوجه إلى الذين قالوا بأن مرض القلب هو النفاق: لماذا قال الله (المنافقون والذين فى قلوبهم مرض)؟! فلو كان المعنى واحداً فهل يقول العاقل (المنافقون والمنافقون)؟! أليس هم يقولون بأن الأصل فى

ص: 286

العطف أن يقتضى المغايرة؟!

والآن لنحاول الاستدلال على معنى (مرض القلب) قرآنيًا:

فلقد ذكر مصطلح (المرض) مرتبًا (بالقلب) في القرآن في اثني عشر مورداً، منها قوله تعالى:

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (البقرة: 10).

وقوله تعالى:

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (المائدة: 52).

وقوله تعالى:

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَآمَنُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (التوبة: 125).

وقوله تعالى:

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (الحج: 53).

وذكر النفاق مع اشتقاقاته في سبعة وثلاثين مورداً، وذكر الشك في خمسة عشر مورداً، وذكر الريب مع اشتقاقاته في ستة وثلاثين مورداً.

ص: 287

إن المتتبع للآيات التي ذُكر فيها (مرضى القلوب) يرى أن الله سبحانه نفى عنهم صفة (الإيمان) وجعلهم مجموعة في قبيل الذين آمنوا فقال:

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (32) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ وَلَتَعَرَّفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ سِينًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ (32) (محمد 20-32).

وقد تطرق سبحانه لقضية هؤلاء الذين ينتظرون نزول سورة القتال أيضا في سورة التوبة بقوله سبحانه:

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوْ لَا يَرُونَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ
ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127) (التوبة 124-127).

وقد وصفهم في سورة البقرة فقال سبحانه:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (9)
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
(11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَ لَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13) وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ
يَمُدَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَاحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (17) صُمُّ بَكُمْ عُمَىٰ فَهَمٌّ لَّا يَرِجُونَ (18) أَوْ كَصَيْبٍ
مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ
يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ

بِسْمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) .

وإذا تتبعنا مصطلح (الذين فى قلوبهم مرض) فى باقى الموارد مع هذه الموارد لوجدنا أنهم:

مجموعة فى قبائل المنافقين والمؤمنين والكافرين والشاكرين والمرتابين.

إنهم يدعون الإيمان ظاهراً.

يدعون الإصلاح مما يجعلهم مجموعة متنفذة لها مشاريعها الخاصة لا مجموعة هامشية.

يجعلون لأنفسهم جاه وسلطة فلا يريدون أن يكونوا مؤمنين (مثل السفهاء) كما يقولون مما يجعلنا نقول أنهم شخصيات بارزة وأسماء معروفة.

كانوا يكرهون القتال مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

كانوا يضمرون العدا لأرحامهم عندما يتولون فى الأرض (بعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم طبعاً).

إنهم ملعونون وحكم عليهم بالصمم والعمى عن الهدى جزاء لعملهم الشنيع.

قلوبهم المريضة مقفلة بالضلال.

عملهم السابق مُحَبَّب لكونهم يكرهون رضوان الله ولا يطيعون أوامر النبى صلى الله عليه وآله وسلم الإلهية ويُسرِّون غير ما يظهرون.

إنهم يبغضون أناساً لم يذكرهم القرآن صريحاً ويحملون الضغينة والحقد لهم.

ص: 290

إنهم كفروا وصدوا عن السبيل وشاقوا النبي ولكن بقيد مهم وهو (من بعد ما تبين لهم الهدى)

إنهم رجس ولا يموتون إلا وهم كافرون (فى النهاية)

إنهم كاذبون فى حياتهم

إن هؤلاء كانوا يتمركزون فى المدينة بشهادة قوله سبحانه:

لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (الأحزاب: 60)

إنهم كانوا يتصلون بأهل الكتاب سرًا ليأمنوهم على أنفسهم كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51)
فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ المائدة 51-52.

ولوراجعت ما كتبه المؤرخون حول بعض المسلمين الذين اتصلوا بالمشركين بعد موقعة أحد ليتوسطوا لهم برجوعهم إلى مكة (بعدما قُتل النبي!! لعرفت من هم! إنهم كانوا يتعاونون مع المنافقين ويمثلون طابوراً خامساً للعدو كما قال تعالى:

إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ

عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: 49).

إذ ورد بأن القائلين قالوا هذه العبارة عند خروج المسلمين إلى بدر، فرأى المنافقون ومرضى القلوب أن الخروج بهذا العدد الضئيل إنما غرور ليس بعده نجاة، وانتبه لقوله تعالى غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ إذ أن القائل لا ينسب دين الإسلام لنفسه بل للمسلمين مما يفيد خروجه من جماعتهم.

ولوراجعت ما كتبه المؤرخين عن استشارة البعض وما ردوا به مما سبب الإحباط عند بعض المسلمين لعرفت من هم!

إنهم كانوا على شكل مجموعة مُنظمة تخترق المسلمين، تتلاقى فيما بينها وتنسق جهودها ويدل عليه قوله تعالى:

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (125) أَوْ لَا- يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127) التوبة 125-127.

من هذه الآيات وغيرها نرجح بأن (مرضى القلوب) هو الذين اسلموا وارتدوا سراً، ولم يعلم بهم في حياتهم حتى النبي صلى الله عليه وآله، وقد يكون قد علم إجمالاً ولم يعلم تفصيلاً من الله تعالى، ولكن الله أرشده إلى أنه ممكن أن يعلمهم من خلال سلوكهم المنحرف، ويدل عليه قوله تعالى:

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (محمد: 30)

ص:

فلا هم بالمنافقين والذين نافقوا (فهم يفترون عن المنافقين بأنهم آمنوا بالنبى فى البداية ثم ارتدوا سرا ولجئوا للنفاق بينما استعمل المنافقون النفاق من البداية)، ولا بالمشركين والذين أشركوا، ولا بالكافرين والذين كفروا، ولا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فلم يبق غير أنهم جماعة أسلمت وارتدت سرا، وما أدل الآية على ذلك التى تقول:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ البقرة 17

فهم استوقدوا فلما أضاءت النار ما حوله وأنارت ذهب الله بنورهم جزاء على ضلالتهم وارتدادهم سرا.

ومن نكت القرآن الطريفة أن ارتباط المرض بالقلب - وهى علامة هؤلاء - قد جاءت باثنى عشر موضعا فى القرآن، وهى قيمة تمثل عدد مرضى القلوب فى المسلمين وهى تقابل عدد المعصومين من الأئمة وهم اثنى عشر إماما. وهو العدد نفسه للمتأمرين فى ليلة العقبة!! والواردة فى روايات عديدة من السنة والشيعية:

روى ابن سعد فى طبقاته الكبرى (قال محمد بن عمر قال حمزة بن عمرو لما كنا بتبوك وأنفر المنافقون بناقة رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم فى العقبة حتى سقط بعض متاع رحله قال حمزة فنور لى فى أصابعى الخمس فأضئى حتى جعلت القط ما شد من المتاع السوط والحباء وأشباه ذلك).⁽¹⁾

ص: 293

وقال المقرئى فى الإمتاع (ثم ارتحل رسول الله (صلى الله عليه - وآله - وسلم) متوجهاً لماء تبوك فأصبح فى منزل، فضلت ناقة النبى (صلى الله عليه - وآله - وسلم) القصواء، فخرج أصحابه فى طلبها، وعند رسول الله (صلى الله عليه - وآله - وسلم) عمارة ابن حزم عَقَبَى بدرى قُتِل يوم اليمامة شهيداً، وكان فى رحله زيد بن أبى اللصيت أحد بنى قينقاع، كان يهودياً فأسلم وناقق، وكان فيه خبث اليهود وغشهم - وكان مظاهراً لأهل النفاق - فقال زيد وهو فى رحل عمارة، وعمارة عند النبى (صلى الله عليه - وآله - وسلم): أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء؟ وهو لا يدرى أين ناقته!!

فقال رسول الله (صلى الله عليه - وآله - وسلم): إن منافقاً يقول: إن محمداً يزعم أنه نبى وهو يخبركم بأمر السماء؟ ولا يدرى أين ناقته!! وإنى والله لا أعلم إلا - ما علمنى الله، وقد دلّنى عليها، وهى فى الوادى فى شعب كذا وكذا - أشار لهم إليه - حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوا بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: العجب من شئ حدثناه رسول الله (صلى الله عليه - وآله - وسلم) أنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه، قال: كذا وكذا للذى قال زيد، فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله (صلى الله عليه - وآله - وسلم) قائل هذه المقالة زيد قبل أن يطلع علينا، قال: فأقبل عمارة على زيد بن اللصيت يجأه فى عنقه ويقول: والله إن فى رحلى لداهية، وما

أدرى، أخرج يا عدو الله من رحلى. وكان الذى أخبر عمارة بمقالة زيد أخوه عمرو بن حزم، وكان فى الرحل مع رهط من أصحابه، والذى ذهب فجاء بالناقة من الشعب الحارث بن خزيمة الأشهلى، وجدها وزمامها قد تعلق فى شجرة، فقال زيد بن اللصيت: لكأنى لم أسلم إلا اليوم، قد كنت شاكاً فى محمد، وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة، فأشهد أنه رسول الله، فزعم الناس أنه تاب، وكان خارجة بن زيد بن ثابت ينكر توبته ويقول: لم يزل فسلاً (1) حتى مات (2)!!

وقيل بأنه نزلت فى تلك الحادثة آيات تتلى، قال تعالى:

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخْرِضُوا اللَّهَ مَخْرَجٌ مَا تَحَذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَلَيْسَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66) (التوبة 64-66).

وقد روى نزولها فى ليلة العقبة ومنافقيها الاثنى عشر العديد من مفسرى أهل السنة منهم ابن الجوزى (3) والرازى (4) والعز بن عبد السلام (5)

ص: 295

1- (1) الفسل: الرذل النذل الذى لا مروءة له ولا جلد / العين - الفراهيدى - ج 7 - ص 260

2- (2) إمتاع الأسماع - المقرئى - ج 5 - ص 116-117

3- (3) زاد المسير - ابن الجوزى - ج 3 - ص 314

4- (4) تفسير الرازى - ج 16 - ص 120

5- (5) تفسير العز بن عبد السلام - ج 2 - ص 31

والبيضاوى(1) وأبو حيان الأندلسى(2) وابن كثير(3) والسيوطى(4) والكثير غيرهم، ومن الملفت للنظر ان بعض من ورد اسمه فى أسماء مرضى القلوب فى ليلة العقبة ظل يعيش هاجس الفضيحة طول عمره إذ انه ورد أحدهم كان يسأل حذيفة ابن اليمان صاحب سر النبى على المنافقين (هل أنا من المنافقين)(5) يعنى الذين ذكرهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم له!! بل إن جملة من الصحابة كانوا يعيشون هاجس الفضيحة يربو عددهم على ثلاثين كما روى البخارى عن ابن أبى مليكة (أدرت ثلاثين من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه) والأحرى أن يقول (كلهم يخاف الفضيحة على نفسه!!)

وكون حذيفة بن اليمان رضى الله عنه كان صاحب سر النبى على المنافقين شىء متسالم عليه عند أصحاب السير، قال ابن الأثير (وحذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنافقين لم يعلمهم أحد إلا حذيفة، أعلمه بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسأله عمر أفى عمالى أحد من المنافقين قال نعم واحد قال من هو؟ قال لا أذكره.

ص:296

-
- 1-1 (1) تفسير البيضاوى - ج 3 - ص 155
 - 2-2 (2) تفسير البحر المحيط - ج 5 - ص 76
 - 3-3 (3) تفسير ابن كثير - ج 2 - ص 381
 - 4-4 (4) الدر المنثور - السيوطى - ج 3 - ص 254
 - 5-5 (5) الهجوم على بيت فاطمة - عبد الزهراء مهدى - ص 467 / الغدير للأمينى نقلا عن الباقلانى فى التمهيد - ج 6 - ص 241

قال حذيفة: فعزله كأنما دل عليه، وكان عمر إذا مات ميت يسأل عن حذيفة فان حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر وان لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر(1).

ولما كان هؤلاء المرضى يعيشون خوف الفضيحة ليل نهار ولما لم يكن الزمان يمر بعيدا بغزوة تبوك، ولما حج النبي حجة الوداع نرى أن أحدهم يسأل النبي: أنزل فيّ شيء (2)؟!

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم نفى نزول شيء فيه ولم ينفِ كونه من مرضى القلوب!! ومن الملاحظ إن محاولة اغتيال النبي الفاشلة تلك في تبوك جاءت بعد وقت بسيط بعد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشهور لعلي بن أبي طالب (أنت منى كهارون من موسى لولا انه لا نبي بعدى) إذ أجمعت المصادر الإسلامية على قوله هذا انه كان عند تأهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم للخروج إلى تبوك، لذا فقوله سبحانه:

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (محمد: 22).

يكشف عن اتفاق للغدر بعلي بعد النبي وقطع رحم النبي به، وقد غاب عن الشيخ القمي (قدس سره) هذا المعنى فظن أن الآيات نازلة في الذين يعملون ذلك بعد رحيل النبي عن الحياة فقال (بسم الله الرحمن الرحيم الذين

ص: 297

1- (1) أسد الغابة - ابن الأثير - ج 1 - ص 391

2- (2) عمدة القارى - العينى - ج 18 - ص 260

كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) نزلت في الذين ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وغضبوا أهل بيته حقهم وصدوا عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن ولاية الأئمة عليهم السلام أضل أعمالهم أى أبطل ما كان تقدم منهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله من الجهاد والنصرة(1).

لهذا نفهم الآن لم سُمّيت سورة التوبة بأسماء كثيرة مثيرة منها براءة والمقشقة والمبعثرة والمخزية والفاضحة والحافرة والمنكلة والمدممة وسورة العذاب والمشرّدة إلى آخر الأسماء، وحتى سورة المنافقين لم تُسمَّ بهذه الأسماء، فهي بعثت المرتدين المرضى وشردتهم وحفرت عنهم ونكلت بهم وعذبتهم لذا فلما سمع بعض الأعراب هذه السورة بعد وفاة النبي بوقت طويل قال(2) (هذه السورة أظنها آخر ما أنزلت، فقلت له: ولم؟ فقال: أرى عهداً تنبذ، وعقوداً تنقض) فهذا الأعرابي مع انه لم ير النبي ولم يسمع منه لكنه ولأول وهلة من سماعه الآية عرف أنها كذلك، وأنها سوف تكون سيفاً مشهوراً على مرضى القلوب تقضحهم وتبعثرهم، ولسبب ما جاء في المأثور تلميح إلى أنها قد لا تكون كاملة إذ نقل مفسرو أهل السنة عن سعيد بن جبير قوله (أن هذه السورة كانت تعدل سورة البقرة في الطول)(3) فإذا كان كل ذلك في سورة التوبة وهي مئة وتسع وعشرون آية في المصحف! فما الذي كانت تضم إذا كانت تعدل سورة البقرة وسورة البقرة كما نعلم متين وست وثمانين آية؟!

ص: 298

1- (1) تفسير القمّي - على بن إبراهيم القمّي - ج 2 - ص 300

2- (2) تفسير السمعاني - السمعاني - ج 2 - ص 284

3- (3) تفسير السمعاني - السمعاني - ج 2 - ص 284

وانشق القمر!

قال تعالى:

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُذْذِرٌ (4) سورة القمر 1-4.

اختلف المفسرون في انشقاق القمر هل حصل في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم أنه أمر مستقبلي سيحصل في المستقبل، وإن كان الغالب بصورة واضحة هو القول بحدوث الانشقاق في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والسند لهذا هو الأحاديث العديدة التي رويت في ذلك، والغريب أن الشيعاء الذى أفاده المفسرون من خلال الروايات وادعائهم التواتر لهذه الحادثة قابله إهمال شديد من قبل البعض الآخر ولم ينقل ولا رواية صحيحة!! كما هو الحال مع امثال:

الثعلبي إذ قال: (وانشق القمر) قال ابن كيسان: فى الآية تقديم وتأخير، مجازها: انشق القمر واقتربت الساعة، يدل عليه قراءة حذيفة (اقتربت الساعة

ص: 299

وقد انشق القمر)، وروى عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه: (وسينشق القمر)، والعلماء على خلافه والأخبار الصحاح ناطقة بأن هذه الآية قد مضت(1). والهدف هنا قول عثمان بن عطاء.

وقال النسفي (اقتربت الساعة) قربت القيامة (وانشق القمر) نصفين وقرئ وقد انشق أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق، كما تقول اقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدمه قال ابن مسعود رضى الله عنه رأيت حراء بين فلقتى القمر وقيل معناه ينشق يوم القيامة والجمهور على الأول(2) والهدف من إدراج النص نقل النسفي لل - (قيل)!

قال العز بن عبد السلام ((اقتربت) دنت، سَمَّيت ساعة لقرب الأمر فيها، أو لمجيئها فى ساعة من يومها (وانشق القمر) اتضح الأمر وظهر يضربون المثل بالقمر فيما وضح وظهر، أو انشقاؤه انشقاق الظلمة عنه بطلوعه فى أثنائها كما سُمى الصبح فلما لانفلاق الظلمة عنه، أو ينشق حقيقة بعد النفخة الثانية، أو انشق على عهد رسول الله (صلى الله عليه - وآله - وسلم) عند الجمهور، قال ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - رأيت القمر منشقا شقتين مرتين بمكة قبل مخرج الرسول (صلى الله عليه - وآله - وسلم) إلى المدينة شقة على أبى قبيس وشقة على السويداء فقالوا سحر القمر(3) لاحظ أن

ص:300

1- (1) تفسير الثعلبي - الثعلبي - ج 9 - ص 160

2- (2) تفسير النسفي - النسفي - ج 4 - ص 193

3- (3) تفسير العز بن عبد السلام - الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمى الدمشقى الشافعى - ج 3 - ص 254

العزّ بن عبد السلام قد فسّر الآية بدون الروايات واعتمد على التفسير الرمزي لها ثم أعطى المعنى الشائع لها!!

ولكن الطباطبائي نقل مخالفة ثلاثة من كبار المفسرين، قال الطباطبائي (لم يخالف فيه منهم إلا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا: معنى قوله: (انشق القمر) سينشق القمر عند قيام الساعة وإنما عبر بلفظ الماضي لتحقق الوقوع)(1).

وفي الجانب الشيعي نجد أن المجلسي نقل عن البعض قولهم بأن انشقاق القمر في المستقبل ولم يقع(2) وكذلك فقد شكك السيد محمد حسين فضل الله في أصل وقوع الحادثة من ناحية ثبوتها من عدمه وليس من ناحية إمكانها طبعاً، قال السيد فضل الله (ولكننا لا نستطيع إحراز التواتر من خلال هذه الأخبار التي لم يكن رواة بعضها موجودين في زمن الانشقاق المفروض ليكونوا شهوداً عليه، مما يعني أنهم نقلوه عن أشخاص آخرين لا نعرف وثقتهم، الأمر الذي قد يجعل منها أخبار آحاد لا تثبت بها مثل هذه الأمور كما قرّر في علم الأصول.. وقد يكون التسالم على قبولها ناشئاً من الاجتهاد التفسيري في معنى الآية على أساس أن الآية الثانية تفسر ذلك فيكون الاعتماد على القرآن في توثيق المضمون الخبري لا على طبيعة الخبر. فإذا تجاوزنا ذلك، إلى موضوع الإمكان، فلا بد أن نسلم بأنه من الأمور الممكنة

ص: 301

1- (1) تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج 19 - ص 55

2- (2) بحار الأنوار - المجلسي - ج 7 - ص 57

فى ذاتها، وقد حدثنا القرآن عن انشقاق السماء ونحو ذلك من الحوادث التى تتصل بتبدل الظواهر الكونية وتغيرها عما هى عليه، فإذا صح الخبر فيها ثبت وقوعها(1).

وهذا ملفت للنظر حقاً! ن يكون للباحث هذه الشجاعة ليقابل كل هذه الآراء!

وعمد القائلين بحدوث الانشقاق عند أهل السنّة هى رواية عبد الله ابن مسعود فى صحيح البخارى وباقى المجاميع الحديثية إذ قال البخارى (حدثنا صدقة بن الفضل أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن أبى معمر عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم شقتين فقال النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم اشهدوا.) (2)

ولهذه الرواية رواية مشابهة عن ابن عباس ولكنها تصرّح بالكسوف وليس بالانشقاق نقلها ابن كثير فى البداية والنهاية قال ابن كثير (قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن عمرو الرزاز، حدثنا محمد بن يحيى القطعى، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم فقالوا سحر القمر فنزلت الساعة وانشق القمر وإن

ص: 302

1- (1) خلفيات كتاب مأساة الزهراء عليها السلام - السيد جعفر مرتضى - ج 1 - ص 414

2- (2) صحيح البخارى - البخارى - ج 4 - ص 186

يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر). (1)!!

إن الروايتين تستحقان الوقوف عندهما لمعرفة عن كانت أحدهما قد نُسخت من الأخرى!!

و (الحسن) الذى نقل الطباطبائي مخالفته وعدم قوله بوقوع الحادثة هو الحسن البصرى (ت 116) وقد أدرك العديد من الصحابة ويعتبره أهل السنة من أئمة المسلمين.

و (عطاء) تابعى (ت 136) وهو من أئمة المسلمين عند أهل السنة ومن كبار المفسرين.

و (البلخي) هو مقاتل بن سليمان المفسر المعروف.

ومن النافين لحدوث (الانفلاق) فى القمر الإمام هشام بن عمر الفوطى وأبو إسحاق الأشعري

وإمام الحلیمی، وهو قول القشيري والماوردي ونسبه الى (الجمهور) (2).

وقد نُقل عن النّظام المعتزلى نفى انشقاق القمر وتكذيبه لعبد الله بن مسعود فى ذلك (3)

والنّظام المعتزلى (ت 213) احد كبار أئمة هذه الفرقة سُمى بالنّظام لحسن نظمه للكلام.

ص: 303

1- (1) البداية والنهاية - ابن كثير - ج 3 - ص 148-149

2- (2) تفسير القرطبي - ج 17 - ص 126

3- (3) تأويل مختلف الحديث - ابن قتيبة - ص 29

إذن فالقول بعدم تحقق هذه الآية ليس شاذاً وإن كان قليلاً عند العلماء، لكن المنهج القرآني يُعزِّفنا أن الكثرة ليست دليلاً على الحق، وأن القلّة ليست دليلاً على الباطل، كيف وإبراهيم الخليل كان أمة، مع انه كان الموحد الوحيد في قومه! لذا فسنقوم بمحاولة لاستقراء ألفاظ الآية في القرآن لنقوم بمعرفة معنى الآية.

ولكننا قبل ذلك نتساءل لماذا ترك المفسرون ما قاله اللغويون في (الشق) وذهبوا الى معنى آخر غريب عنه؟! فنحن عندما نراجع كتب أهل اللغة نجدهم يُصرِّحون بأن الشق هو الصدع والأخدود، أي انه الفتح الذي لا يؤدي إلى الانفصال بين أجزاء الجسم! قال الجوهرى: اللحد بالتسكين: الشق في جانب القبر(1) والضحاح: الشق في وسط القبر.(2) وقال ابن قتيبة: الأخدود: الشق. ويقال: خد في الأرض خدا، إذا شق فيها، واسم الشق الأخدود. قال الله جل وعز: قتل أصحاب الأخدود.(3) وقال ابن السكيت الأهوازي: الشق: الصدع في عود أو حائط أو زجاجة.(4)

فإذن هذا هو الشق وليس غيره! أما ما قالوه عن كون القمر قد انشق ونزلت فلقتاه حتى رأى ابن مسعود جبل حراء (وفي رواية: جبل أبي قبيس) بين فلقتيه فالمفروض أن يقال: انفلق القمر وليس (انشق) لكون الفلق هو

ص:304

1- (1) الصحاح - الجوهرى - ج 2 - ص 534

2- (2) الصحاح - الجوهرى - ج 1 - ص 386

3- (3) غريب الحديث - ابن قتيبة - ج 2 - ص 209

4- (4) ترتيب إصلاح المنطق - ابن السكيت الأهوازي - ص 215

انفصال الشيء إلى جزأين، قال الجوهري: الفلقة: الكسرة (1)، خصوصاً وأن الروايات مضطربة في تحديد من هو الذى طلب انشقاق القمر واستجاب له النبي صلى الله عليه وآله وسلم فبعضها تصرّح بأن المشركين هم من طلب ذلك، وبعضها يصرّح بأن اليهود هم من طلب ذلك، والمعروف أن اليهود لم يكن لهم أى حوار مع النبي إلا بعد الهجرة وفى المدينة بالذات.

ولوراجعنا الآيات القرآنية لوجدنا أنه سبحانه استعمل هذا اللفظ (أى الفلق) فى آية مشابهة للقمر (لوصحت الروايات) فاستعمل الفلق ولم يستعمل الشق، قال تعالى:

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (الشعراء: 63).

فلو كان القمر قد انفلق لكان الأمر فى سورة القمر كما هو الأمر هنا فلم عبر هناك بالشق وفسره (الصحابة) بانفلاق القمر! وعبر هنا (بالفلق)؟!

وقال تعالى:

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ تُوْفِكُونَ (الأنعام: 95).

وقال تعالى:

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ

ص: 305

وقد يكون تفسير الآية بهذا الشكل راجع لما قاله بعض المفسرين من كون الفلق في القرآن هو الشق!! ونحن نقول إن القرآن أدق مما تذهب إليه ظنونهم!

قال تعالى:

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) عبس 26-27

وقال تعالى:

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (الفرقان: 25).

وقال تعالى:

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (ق: 44).

وقال تعالى:

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (الرحمن: 37)

وقال تعالى:

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (الانشقاق: 1)

وقال تعالى:

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (مريم: 90)

وفى كل هذه الموارد القرآنية جاء (الشق) بأنه (منفذ أوأخدود) غير

مكتمل الانصداع، أى بأنه أخذود محدود لكى ينفذ منه شىء من جهة إلى جهة أخرى. ففى مورد (عبس) نرى أن الشق يحدث بفعل النبات فالنبات وعند نموّه باتجاه الأعلى يقوم بإحداث منافذ فى أعلى التربة يخرج من خلالها إلى الأعلى.

وفى مورد (الفرقان) تتشقق السماء بفعل الغمام حتى تنزل الملائكة منها.

وفى مورد (ق) نرى بأن تشقق الأرض يكون بفعل خروج الموتى من قبورهم، وهذا يؤدي طبعاً لأحداث منافذ فى سطح التربة حتى يخرجوا منها.

وكذلك الأمر فى (الرحمن) و (الانشقاق) و (مريم).

فانشقاق القمر وفق المفهوم القرآنى ليس انفصاله إلى جزأين ونزولهما حتى يرى الجبل بين فلقتهما! ولو كان كذلك لعبر عنه بأنه (انفلاق) وليس (انشقاق)، وأما ما قالوه بأن الآيات التى تلى الآية الأولى فى سورة القمر تؤكد حدوث الانشقاق فكيف ذلك والآية تعبر عن قضية شرطية؟! فهو يقول سبحانه:

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (القمر: 2)

فهم: إن يروا آية

ماذا يفعلون: يُعْرِضُوا

وماذا يقولون: ويقولوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ

فهذه الآية لا علاقة لها بالآية الأولى إلا من حيث كون انشقاق القمر لو

حصل فهو آية ولا تعنى بأى حال من الأحوال بان الانشقاق قد حصل، وهذه الآية بقوة قوله تعالى:

وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (الأنعام: 116)

فإذا حصلت الطاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأكثر من فى الأرض حصل الضلال، فهل ياترى أطاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من فى الأرض؟!!!

بل إن الآية التى تليها قرينة على هذا الفهم:

يقول تعالى:

وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النَّذُرَ (5) القمر 4-5

فهو سبحانه يقول بأن ما جاءهم من الأنباء يكفى لإقامة الحججة، أى إن انشقاق القمر آية ولكن ما سبقها كافٍ لمن يريد الهداية، وبعدها يقول سبحانه:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ (القمر: 6)

وقد يكون هذا عند ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف (1) كما جاءت به الروايات. والداعى هو الإمام القائم عجل الله تعالى

ص: 308

فرجه الشريف(1) وهذا هو المفهوم من كلام الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف عند لقائه ابن مهزيار (على تقدير صحته), إذ روى أن الإمام سأل ابن مهزيار(2) (يا ابن مهزيار كيف خلفت إخوانك في العراق؟ قلت: في ضنك عيش وهناة، قد تواترت عليهم سيوف بنى الشيصبان فقال: قاتلهم الله أنى يؤفكون، كأنى بالقوم قد قتلوا في ديارهم وأخذهم أمر ربهم ليلاً ونهاراً، فقلت: متى يكون ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: إذا حيل بينكم وبين سبيل الكعبة بأقوام لا خلاق لهم، والله ورسوله منهم براء، وظهرت الحمرة في السماء ثلاثاً فيها أعمدة كأعمدة اللجين تتلألاً- نورا ويخرج السروسى من إرمنية وأذربيجان يريد وراء الرى الجبل الأسود المتلاحم بالجبل الأحمر لزيق جبل طالقان، فيكون بينه وبين المروزي وقعة صيلمانية يشيب فيها الصغير ويهرم منها الكبير، ويظهر القتل بينهما. فعندها توقعوا خروجه إلى الزوراء، فلا يلبث بها حتى يوافى باهات. ثم يوافى واسط العراق، فيقيم بها سنة أو دونها، ثم يخرج إلى كوفان فيكون بينهم وقعة من النجف إلى الحيرة إلى الغرى، وقعة شديدة تذهل منها العقول، فعندها يكون بوار الفئتين، وعلى الله حصاد الباقيين. ثم تلا قوله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس). فقلت: سيدى يا ابن

ص:309

1- (1) التفسير الصافي - الفيض الكاشاني - ج 5 - ص 100

2- (2) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام - الشيخ على الكوراني العاملى - ج 4 - ص 452-453

رسول الله ما الأمر؟ قال: نحن أمر الله وجنوده، قلت: يا سيدي يا ابن رسول الله حان الوقت؟ قال: (اقتربت الساعة وانشق القمر).. فانشقاق القمر على هذا من علامات الظهور ويوم القيامة لكونه يسبقهما، فهو حدث يحصل على سطح القمر يؤدي إلى نشوء صدع أو أخدود على سطحه، ولما كانت علامات الظهور والساعة كلها علامات نوعية تشكل ظواهر ملفتة في زمانها فيجب أن يكون هذا الأمر بيّناً واضحاً للجميع، فقد يكون الانشقاق عبارة عن بناء يقام على سطح القمر - كما تروّج اليوم بعض الدول المتقدمة - مما يتطلب شق سطح القمر، أو قد يكون الانشقاق جزءاً تجارب لبعض الأسلحة تكون على سطحه تؤدي إلى نشوء ذلك الشق.

وأما تأكيد المفسرين لوقوع انشقاق القمر بحجة قوله تعالى (وانشق القمر) ولما كان الفعل (انشق) فعلاً ماضياً كان هذا يدل على مُضَى الآية! فأين هم عن موارد شبيهة في القرآن قالوا عنها بأنها تحدث في المستقبل مع أنها أتت بصيغة الماضي كقوله تعالى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (الكهف: 99)

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (ي - س: 51)

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (الزمر: 68)

لذا فالإتيان بالفعل الماضي ليفيد المستقبل على تقدير الجزم بالوقوع معترف به من كافة المفسرين حتى قد قال الطباطبائي (... إن الإتيان بصيغة

الماضى فى الأمر المستقبل للعلم بتحقيق وقوعه، وهو شائع فى اللغة(1).. وقد يكون لغاية أخرى وهو تبين أن الانشقاق قد بدأ فى تلك الفترة وهو مستمر الى الآن! وذلك مثل الانشقاقات التى تحدث فى الطبقة التكتونية فى الكرة الأرضية، التى أدت إلى أن تكون اليابسة بشكلها الحالى، فهى انشقاقات هادئة ومستمرة لا تُرى آثارها إلى بعد آلاف السنين بل ملايين السنين.

و (انشقاق القمر) قد يرتبط من جهة كونه من علامات ظهور الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف بالمروى عن (الوجه) الذى يظهر فى القمر فى قول الإمام عليه السلام (العام الذى فيه الصيحة، قبله الآية فى رجب، قلت: وما هى؟ قال: وجه يطلع فى القمر، ويد بارزة)(2) أو فى قوله عليه السلام(3) (يا أم سعيد إذا انكسف القمر ليلة البدر من رجب وخرج رجل من تحته، فذاك عند خروج القائم).

وهذا الحديث واضح فى أن هناك خسف غير طبيعى، بل هو مصطنع يحدث بوساطة الإنسان وقد يكون ذلك جرّاء حَجَب القمر بمحطة فضائية ضخمة تكون بين الأرض والقمر وهذا الرجل يكون فيها، وقد تكون هى التى تسبب الانشقاق.

والقمر جرم فضائى يبلغ محيطه 10927 كلم، ومن المثير أن وكالة

ص:311

1- (1) تفسير الميزان - السيد الطباطبائى - ج 6 - ص 253

2- (2) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام للشيخ على الكوراني العاملى - ج 3 - ص 487-488.

3- (3) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام للشيخ على الكوراني العاملى - ج 3 - ص 461.

الفضاء الأمريكية نشرت صوراً لسطح القمر تمثل شقاً على ظهره بطول يقرب من 300 كلم ويعرض يصل لعشرة كيلومترات، وهو في الصورة أدناه:

ولو صحّت الروايات فالحادثة التي حصلت في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن (انفلاقاً) بل (شقاً) وإن كانت هكذا حادثة لم يرها أحد في العالم، ولم يؤرخها المسلمون بشكل جاد لا تصلح لأن تكون آية، لكون الآية يجب أن تكون واضحة للجميع حتى تؤدي الغرض منها!

ولكن الكلام في مفهوم (الآية) فسبحانه يقول:

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (القمر: 2)

فكلما رأوا آية يقولوا إنها سحر مستمر، وهذا تقرير من الله بعدم الفائدة من إرسال الآيات إضافة لكون الآيات مُكذّبة، قال تعالى:

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59) الإسراء 59

ص: 312

لم يختلف المفسرون في كون آيات سورة الإسراء نازلة في فترتين لبنى إسرائيل يبلغ بهما هؤلاء علوَّ الشأن بشكل استثنائي في التاريخ مع إفسادهم فيهما، قال تعالى:

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنَّ أَحْسَنَ نَسَمٍ أَحْسَنُ نَسَمٍ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَبُيِّنُوا مَا عَلَّمُوا تَنْبِيرًا (7) الإسراء.

وقوله تعالى: لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا يربط

العلو بالإفساد فالعلو هنا العتو والطغيان وهو مرتبط بالإفساد لكونهما لا يفترقان، وإنما هما علوان بإفسادين. والعلو جاء في القرآن في ثلاثة مواضع بمعنى العتو والطغيان: فإضافة لمورد سورة الإسراء:

قال تعالى:

قول سليمان عليه السلام لقوم بلقيس أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ (النمل: 31) وقول موسى لقوم فرعون وَ أَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (الدخان: 19) فقولته تعالى: وَ لَتَعْلَمَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا العلو هنا طغيان وعتو على الله وليس هو بروز وقوة مجردة عن الإيجاب والسلب.

قال في تفسير الأمثل (1) جامعاً أهم الأقوال في الآيات والعلويين المُفسِدِينَ (أولاً: يستفاد من تاريخ بني إسرائيل بأن أول من هجم على بيت المقدس وخربه هو ملك بابل (نبوخذ نصر) حيث بقى الخراب ضاربا فيه لسبعين عاما، إلى أن نهض اليهود بعد ذلك لإعماراه وبنائه. أما الهجوم الثاني الذي تعرض له، فقد كان من قبل قيصر الروم (أسيانوس) الذي أمر وزيره (طرطوز) بتخريب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل. وقد تم ذلك في حدود مائة سنة قبل الميلاد. وبذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتي (نبوخذ نصر) و (أسيانوس)..

ثانيا: أما الطبرى فينقل في تفسيره عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن المراد في الفساد الأول هو قتل بني إسرائيل لذكريا (عليه السلام) و

ص:314

مجموعة أخرى من الأنبياء (عليهم السلام)، وأن المقصود من الوعد الأول، هو الانتقام الإلهي من بنى إسرائيل بواسطة (نبوخذ نصر) وأما المراد من الفساد الثاني فهو الفوضى والاضطراب الذي قام به (بنو إسرائيل) بعد تحريرهم من بابل بمساعدة أحد ملوك فارس، وما قاموا به من فساد. أما الوعد الثاني، فهو هجوم (أنطياخوس) ملك الروم عليهم.

ثالثا: وقال آخرون: إن بيت المقدس شيد في زمن داود وسليمان (عليهما السلام)، وقد هدمه (نبوخذ نصر) وهذا هو المقصود من إشارة القرآن إلى الوعد الأول. أما المرة الثانية، فقد بنى فيها بيت المقدس على عهد ملوك الأخمينيين ليقوم بعد ذلك (طيطوس) الرومي بهدمه وخرابه... وقد بقي على خرابه إلى عصر الخليفة الثاني عندما فتح المسلمون فلسطين.

رابعا: في مقابل التفاسير الأنفة والتفاسير الأخرى التي تتشابه في مضمون آرائها مع هذه التفاسير، نلاحظ أن هناك تفسيراً آخر يورده (سيد قطب) في تفسيره (في ظلال القرآن) يختلف فيه مع كل ما ورد، حيث يرى أن الحادثتين لم تقعا في الماضي، بل تتعلقان في المستقبل

خامسا: الاحتمال الأخير الذي ورده البعض في تفسير الإفسادين الكبيرين لبنى إسرائيل، يرتبط بأحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث يقول هؤلاء: إن قيام الحزب الصهيوني وتشكيل دولة لليهود باسم (إسرائيل) في قلب العالم الإسلامي مثل الإفساد والطغيان والعلو الأول لهم.... أما المقصود من الإفساد الثاني حسب هذا التفسير، فهو احتلال اليهود مجددا

للمسجد الأقصى بعد أن حشدت (إسرائيل) قواها واستعانت بالقوى الدولية الاستعمارية في شن هجومها الغادر (عام 1967)..... بالطبع هناك تفاسير وآراء أخرى في الموضوع صرفنا النظر عنها..... ولكن يستفاد من ظاهر قوله تعالى: ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا إن الإفساد الأول على الأقل والانتقام الإلهي من بني إسرائيل كان قد وقع في الماضي. وإذا أردنا أن نتجاوز كل ذلك، فينبغي أن نلتفت إلى أن قوله تعالى: بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد تقيده في أن الرجال الذين سيؤدبون (بني إسرائيل) على فسادهم وعلوهم وطغيانهم، هم رجال مؤمنون، شجعان حتى استحقوا لقب العبودية. ومما يؤكد هذا المعنى الذي غفلت عنه معظم التفاسير، هو كلمة (بعثنا) و (لنا). ولكننا مع ذلك، لا نستطيع الادعاء أن كلمة "بعث" تستخدم فقط في مورد خطاب الأنبياء والمؤمنين، بل هي تستخدم في غير هذه الموارد أيضا، ففي قصة هابيل وقابيل يقول القرآن الكريم: فبعث الله غرابا يبحث في الأرض. وكذلك الحال في كلمة (عباد) أو (عبد) فهي تطلق في بعض الأحيان على الأفراد غير الصالحين من المذنبين وغيرهم...)

وعملية (البعث) هي عملية التسبب المباشر في المجيء، لا مجازا كما قال بعضهم ولا بشكل غير مباشر، قال تعالى:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ (البقرة: من الآية 213).

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ (لأعراف: من الآية 103)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ (يونس: من الآية 74).

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا (النحل: من الآية 36).

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا (البقرة: من الآية 247).

والأمر مطرد في اللفظ في كل القرآن سواء الباعث هو الله او غيره إذ جاء اللفظ في ثلاثة وخمسين مورداً.

والغريب من صاحب الأمثل لماذا استبعد (الغراب) من قوله (لا نستطيع الادعاء أن كلمة (بعث) تستخدم فقط في مورد خطاب الأنبياء والمؤمنين) فإن كان الإيمان منحصرافاً في الآدميين كان هذا من الخطأ وإن اعترف بأن الإيمان غير منحصر فيهم فلم الاستبعاد والله تعالى يقول:

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الإسراء: 44).

فالسماوات والأرض تسبحان وكل شيء يسبح والتسبيح قمة التنزيه فكيف لا يكون الغراب مخلوقاً مؤمناً بالله مسبحاً؟! ومن يقول بمجاز التسبيح على (الجمادات! كما قالوا) يجب أن يأتي بدليل، ولا دليل!

لذا ف - (البعث) جاء في القرآن مطرداً في كون إلجائي به مسبباً عن إرسال

الله غالباً فيكون صاحب رسالة بغض النظر عن ماهية الرسالة فقد تكون رسالة إيمان وقد تكون رسالة تمثيل وتعليم من نوع آخر كما فعل الغراب في قصة هابيل وقايل. أما (العباد) وعطفها عند الأمل على ((عبد) فهذا خلط بين مصطلحي (العباد) و (العبيد) سيتضح في نهاية البحث.

وأما ما تناوله عن المفسرين فهو المشهور الخاطيء وكم من مشهور لا أصل له! وسنثبت أن العلو الأول مضى في زمان خاتم النبیین وخاتم الأوصياء عليهما الصلاة والسلام. ففي زمان النبي صلى الله عليه وآله كان علو بني إسرائيل في حصونهم في جزيرة العرب وأبرزها الحصون الستة وقيل سبعة في خيبر نقل نجاح الطائي عن سيرة الحلبي (كانت حصون اليهود: النطاة والشق والصعب والقموص والوطيح والسلالم، والحصون الأربعة الأولى فتحت عنوة والخامس والسادس فتحا صلحا)⁽¹⁾.

إذ لم تكن اليهود تحكم نفسها في تلك الفترة إلا في جزيرة العرب. وإلا ففي إسبانيا وشمال إفريقيا والحبشة كانوا في ذل حكم النصارى الذين يتهمونهم بقتل المسيح عليه السلام وأذقهم الرومان سوء العذاب في أوروبا لذا ساعدوا المسلمين في تحرير تلك الأراضي من الروم ولم يثبت لهم وجود عسكري في غير تلك المناطق من العالم غير جزيرة العرب لقربها من موطنهم الأصلي مصر وفلسطين. وإفسادهم معلوم في جزيرة العرب فقد كانوا يتزعمون رؤوس الأموال الربوية ويديرون عمليات الربا الفاحش في جزيرة

ص: 318

العرب إضافة لخبثهم وتعمدهم الوقعة بين العرب ليبقوا فى منجاة من قوة القبائل العربية.

نعم يسكون النقض على كون العلو الأول فى خبير انه تعالى قال:

وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الإسراء: من الآية 7).

ولكنه ذكر فى العلو الأول: فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ

فسمّى مكانهم (ديارا) فى العلو الأول وسمّاه (المسجد) فى الثانى فأى مسجد هو الذى سيدخله الرجال أنفسهم أو من سنخهم الذى دخلوه أول مرة؟! فلو كانوا فى العلو الثانى فى فلسطين فالمؤمنون سيدخلون المسجد الأقصى ولكن العلو الأول كانوا فى ديارهم ولم يذكر الله أنهم فى مسجد أو قرية ولكنه قال تعالى: كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وهذا يفيد أنهم فى العلو الأول سيكونون فى مسجد أيضا! بل ويفيد أن القوم الذين يحاربون بنى إسرائيل فى العلو الثانى هم أنفسهم من يحاربونهم فى علوهم الأول.

و (المسجد) هنا محلى بأل العهديّة بالعهد الذكري وهو احد المسجدين المذكورين فى بداية السورة سُبحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (الإسراء: من الآية 1

وعند تحليل لفظ (العباد) سيظهر أن الذى قضى على العلو الأول هو النبى وعلى عليهما الصلاة والسلام والذى سيقضى على العلو الآخر هو الإمام المهدي وعيسى عليهما السلام.

إذ جاء لفظ (العباد) باستعمالاته وإضافاته في القرآن في 119 مرة في القرآن وحسب التوزيع التالي:

عبده: 7 وقد وصف الله النبي محمد صلى الله عليه وآله بأنه (عبده) خمس مرات وذكريا عليه السلام مرة واحدة

وعبدا: 6

العبد وعبدنا: 7 (مشتق العبادة لله وحده)

عباده: 34 مرة

عبادى: 17 مرة

عبادنا: 12 مرة

العباد: 20

عبدين: 2

عباد: 4

عبادا: 2

عبادك: 7

عبادكم: 1

ويمكن تقسيم اللفظ إلى مجموعات حسب الضمير فالألفاظ التي أضيفت إلى الخالق جلّ وعلا هي:

عبده: 7 وقد وصف الله النبي محمد صلى الله عليه وآله بأنه (عبده)

ص: 320

خمس مرات وذكريا عليه السلام مرة واحدة

عباده: 34 مرة وقد جاء اللفظ أما مع الأنبياء والرسل وغما مع الصالحين من الناس الا فى لفظين قد يكونان ضد الفرض وهما فى الآيتين:

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (الإسراء: 17) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَى بِهِ ذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (الفرقان: 58).

ومن الممكن ان نحتمل أنهما مع العباد الصالحين غير المعصومين وهم ممن يذنبون ويتوبون

عبادى: 17 مرة وهى واضحة فى كونها مع الصالحين: قال تعالى:

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر: 42) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (الإسراء: 65).

وهما ظاهران فى كون العباد لا سلطان للشيطان عليهم ولكن جاء فى موضعين وهما قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَصَدُّ لِمَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَدُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سَبَّحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) الفرقان. قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ

ص: 321

اللَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر: 53).

وقد ورد أن آية الزمر نزلت في شيعة آل البيت خاصة، عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام انه قال (وقوله يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قال: نزلت في شيعة أمير المؤمنين عليه السلام خاصة(1)).

وبالتالي فمآل هؤلاء إلى صلاح فتبقى آية الفرقان مستعصية على الفهم لم جاءت خلاف كل الألفاظ فظاهاها أن هؤلاء (العباد) ضالون! وإن كان ما نقل عن قراءة أهل البيت وجمع من القراء والنحويين يعطى احتمالاً آخر لكن لا يحل الإشكال فقد نقل ابن الجوزي(2) عن جمع فيهم الإمام الباقر عليه السلام فقال (وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى، وابن جبیر، والحسن، وقتادة، وأبو جعفر، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: (أَنْ تَتَّخِذَ) برفع النون وفتح الخاء) زاد القرطبي(3) (وقال أبو عمرو: لو كانت "تَتَّخِذُ" لحذفت "من") الثانية فقلت: أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ أَوْلِيَاءَ. كذلك قال أبو عبيدة: لا يجوز "تَتَّخِذُ" لان الله تعالى ذكر (من) مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ أَوْلِيَاءَ.) وعندها يكون القائلون بالتسبيح قائلوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمَعْبُودُونَ وليس

ص:

1- (1) تفسير القمى - على بن إبراهيم القمى - ج 2 - ص 249-250

2- (2) زاد المسير - ابن الجوزي - ج 6 - ص 8

3- (3) تفسير القرطبي - القرطبي - ج 13 - ص 10-11

العابدون أى أن العباد هنا سيكونون هم المعبودون وهم الصالحون وليس العابدين الضالين!. فالقراءة السابقة تدل على خلاف المفهوم منها وبدون القراءة الثانية لا يمكن اخذ ما فهم منها.

عبادنا: 12 مرة وجاءت مع المعصومين فقط فقد جاءت مع يوسف وإبراهيم ويعقوب وإسحاق ولوط ونوح والخضر وإلياس ومع المتقين.

وعبادك: 7 وهو لفظ أضاف به بعض العباد بعضا إلى الله تعالى ولم يصفهم الله إلى نفسه

وبعض أفاضه ورد في المعصوم كقوله تعالى:

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (الحجر: 40).

والذى يظهر بعد التأمل أن العباد يختلفون عن العبيد فى المصطلح القرآنى إذ ورد مصطلح (العبيد) فى خمسة مواضع هى:

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ آل عمران: 182

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ الأنفال: 51

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ الحج: 10

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ فصلت: 46

مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ق: 29

ص: 323

وهي وان لم تكن صريحة في الذم ولكنها مرتبطة بالحساب وبالتالي العدل الرباني من العقاب وهي إشارة إلى هوية هؤلاء.

أما لفظ (عباد) العام بما يشمل كل استعمالاته السابقة فقد اختص المصطلح بالاصطفاء لمرتين قال تعالى:

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ النمل: 59

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ يُؤْتُونَ اللَّهَ بِذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرًا هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ فاطر:

32

ثم ثنى الله بدخولهم الجنة فقال:

جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35) فاطر.

وقد وصف به أنبياء الله نوح وداود وأيوب ومحمد (لمرتين) صلى الله عليهم أجمعين بأن أطلق لفظ (عبادنا) على كل واحد منهم.

وجاء لفظ (عبادنا) اثنتي عشرة مرة في القرآن، وكلها مع المعصومين أو المتقين، فهؤلاء العباد داخلون للجنة كلهم وهذا لا ينطبق على الصحابة (كما يدعى) الذين روى محدثو أهل السنة روايات ارتداد بعضهم ومنع بعضهم من

ص: 324

الحوض كما فى البخارى (عن سهل بن سعد قال قال النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم إنى فرطكم على الحوض من مر على شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم قال أبو حازم فسمعتنى النعمان بن أبى عياش فقال هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: اشهد على أبى سعيد الخدرى لسمعتة وهو يزيد فيها فأقول إنهم منى فىقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقا لمن غير بعدى، وقال ابن عباس سحقا بعدا يقال سحيق بعيد سحقه واسحقه أبعده)(1)

فكيف يرثون الكتاب ويختم لهم بالجنة ووفى رواية أخرى فى البخارى (حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال هلم فقلت أين قال إلى النار والله قلت وما شأنهم قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال هلم قلت أين قال إلى النار والله قلت ما شأنهم قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)(2)(3)

وفى رواية أخرى للبخارى (عن ابن شهاب عن ابن المسيب انه كان يحدث عن أصحاب النبى صلى الله

ص:325

1- (1) صحيح البخارى - البخارى - ج 7 - ص 207-208

2- (2) قال ابن الأثير (حديث الحوض (فلا يخلص منهم إلا مثل همل النعم) الهمل: ضوالّ الإبل، واحدها: هامل. أى إن الناجى منهم

قليل فى قلة النعم الضالة) / النهاية فى غريب الحديث - ابن الأثير - ج 5 - ص 274

3- (3) صحيح البخارى - البخارى - ج 7 - ص 208-209

عليه - وآله - وسلم ان النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم قال يرد على الحوض رجال من أصحابي فيحلون عنه فأقول يا رب أصحابي فيقول انك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أديبارهم القهقري(1).

فكيف ولم يبق منهم إلا مثل همل النعم؟! علما إن بعض الصحابة شرب الخمر وبعضهم قتل النفس المحترمة وبعضهم ارتد ولحق بالنصاري..

بينما العباد المصطفون داخلون للجنة وممدوحون في كل القرآن ولو أخذنا موارد (عبادنا) لوجدنا قوله تعالى:

لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ يوسف: 24

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا الكهف: 65

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا مريم: 63

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ فاطر: 32

ووصف تعالى نوح فقال: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ الصافات: 81

ووصف تعالى إبراهيم فقال: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ الصافات: 111

ص: 326

ووصف موسى وهارون فقال: إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ الصافات: 122

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ الصافات: 171

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ص 45

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ الشورى: 52

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ التحريم: 10

لذا فارتباط (عبادنا) بالرسول فقط في القرآن يشير الى كون (عبادنا) خاصة للمعصومين فقد اضافهم الله لنفسه لذا فقله تعالى:

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصَّ طَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ [النمل: 59] عندما وردت في أهل البيت في التفاسير فقد تكون مصداق المعصوم لا انحصارها به وكذلك ما ورد ان آية فاطر نازلة في الأئمة عليهم السلام:

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصَّ طَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (فاطر: 32) وإن كانت الروايات دالة على انحصارها بهم وقد يُطعن بهذا الفهم (للعباد) بالآية القرآنية:

ص: 327

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (يس: 30)

وسيقال بأن (العباد) هنا مُتَحَسِّرٌ عليهم لكونهم في انحراف! فكيف يُمدح هؤلاء!؟

والجواب:

إن جمعا من الصحابة إضافة لقراءة أهل البيت عليهم السلام هي (يا حسرة العباد) وعُدَّ منهم أبي بن كعب وابن عباس وقتادة والإمام زين العابدين عليهم السلام (1) وبالتالي يكون العباد هم المتحسرون لا المتحسرين عليهم! فيسقط الاعتراض.

أما قوله تعالى: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فهي قد لا تكون راجعة على العباد بل على ما قبلها.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام عن أبيه زين العابدين عليه السلام قال:

(ما بعث الله نبيا إلا أعطاه من العلم بعضه ما خلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنه أعطاه من العلم كله فقال: تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ ۖ (النحل: من الآية 89) وقال (لموسى): وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ (الأعراف: من الآية 145) وقال: قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ

ص: 328

1- (1) تفسير جوامع الجامع - الشيخ الطبرسي - ج 3 - ص 138 و تفسير الطبري ج 23 ص 4 وغيره من تفاسير أهل السنة

(النمل: من الآية 40) ولم يخبران عنده علم الكتاب، والمن لا يقع من الله على الجميع وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ثُمَّ أُورَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (فاطر: من الآية 32) فهذا الكل ونحن المصطفون، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: رب زدنى علما، فهي الزيادة التي عندنا من العلم الذي لم يكن عند أحد من الأوصياء والأنبياء ولا ذرية الأنبياء غيرنا، فبهذا العلم علمنا البلايا والمنايا وفصل الخطاب(1)

لذا فكون العلوّ الأول مرتبط بكون العباد (أولى بأس شديد) ولم يأت هذا المركّب اللغوي مع العباد في العلو الثاني لليهود قد تكون إشارة قوية لما حدث من فعل استثنائي بقلع باب خيبر كما قال أمير المؤمنين عليه السلام (والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية ولكن بقوة إلهية). (2)

ومن الملاحظ أن المؤرخين لم يوردوا تفاصيل بعد فتح الحصون الخيرية وكان فتح الحصن عنوة كان يؤدي الى الاستسلام من قبل اليهود لذا جاء في الآية في مورد العلو الأول وإرسال العباد الأول بلا ذكر للتبشير (وهو شدة التدمير) قال الطوسي (قوله "فجاسوا خلال الديار" أي ترددوا وتخللوا بين الدور، يقال: جست أجوس جوسا وجوسانا.... وقيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء)(3) ففي المورد الأول كان هناك جوس خلال الديار وفي المورد الثاني كان هناك تبشير، والفرق واضح.

ص: 329

1- (1) تفسير فرات الكوفي - فرات بن إبراهيم الكوفي - ص 145

2- (2) كتاب الأربعين - محمد طاهر القمي الشيرازي - ص 430

3- (3) التبيان - الشيخ الطوسي - ج 6 - ص 448-449

أما المورد الثاني للعلو فقال تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوفُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَّبِعُوا (الاسراء: 7) ومن لطيف الإشارات الدالة على ذلك هو قراءة الصحابي الجليل عبد الله بن أبي (ليسوءا)(1) في مورد النصر الثاني على اليهود وهي قد تكون إشارة للقائمين بالفتح وهما اثنان من المعصومين (الإمام المهدي وعيسى المسيح عليهما السلام) كما تضافرت روايات الشيعة(2) ولمحت روايات الجمهور عبر إشارتها لقيادة المهدي والمسيح للأمة وربطها بمحاربة اليهود في آخر الزمان(3).

وقوله تعالى: إِنَّ أَحْسَنَ نَتْمٍ أَحْسَنَ نَتْمٍ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوفُوا وُجُوهَكُمْ يدل إضمار المرسلين هنا على أنهم هم أنفسهم في العلو الأول او من جنسهم وسنخهم فاستعاض عن ذكرهم في الإرسال الثاني بذكرهم في الإرسال الأول.

ومن المعلوم أن في المورد الثاني سيكون هناك اثنين من المعصومين يقودان الفتوح وتحرير الأرض وهما الإمام المهدي عجل الله فرجه وعيسى المسيح عليه السلام، واليهود في زماننا بلغوا شأوا لن يبلغوا مثله لكون أمرهم مرتبط دائما بشكل طفيلي بالقوة التي تحكم العالم فهم بعددهم القليل لا يمثلون امة قوية لكن بخبثهم واستغلالهم الإمبراطوريات الحاكمة يتسلطون

ص:330

1- (1) تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج 6 - ص 220

2- (2) معجم أحاديث الامام المهدي - الكوراني - ج 1 - ص 311

3- (3) المصنف - ابن ابي شيبة - ج 15 - ص 144

على غيرهم ولما كانت الولايات المتحدة في أفول منذ العام 1991 م (كما يؤكد ايمانويل تود في كتابه حول أفول قوة أميركا) لن يبق لليهود تلك القوة بعد أفول قوة أميركا ومع أن الولايات المتحدة ستبقى القوة الكبرى حتى المستقبل القريب لذا فالتبوير وهو قمة التدمير سيطل بنى اسرائيل في الفتح الثاني لكون سمة الفتوحات المهدوية سيكون استئصال الحالات الشاذة التي لا صلاح فيها كما تفيد الروايات فسيكون استئصال النظام المنحرف الصهيوني في فلسطين على يد الإمام المهدي وقائده على الجيش عيسى المسيح عليهما السلام ومن لطائف الإشارات ما ورد في قوله تعالى (1) وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا (يعنى إن عدتم بالسفياىى عدنا بالقائم من آل محمد صلوات الله عليهم).

من هنا يتبين أن العلوّ الأول حدث في زمان النبي صلى الله عليه وآله وكانوا قادة الفتح فيه النبي وعلى عليهما الصلاة والسلام وان الفتح الثاني بعد العلوّ الثاني سيكون في زمان الإمام المهدي وعيسى المسيح عليهما السلام وسيتمّ فيه ما علو تبيرا.

ص: 331

على من تنزل السكينة ؟

ورد مصطلح (السكينة) في ستة مواضع من القرآن:

منكرة مرّة ومعرفة مرتين لكنها غير مضافة اليه تعالى كما في قوله تعالى:

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (248) سورة البقرة.

وقوله تعالى:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) سورة الفتح.

وقوله تعالى:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) سورة الفتح

ص: 332

ولثلاث مرّات أخرى مضافة الى الذات الإلهية كقوله تعالى:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِيبًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ
(25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) التوبة.

وفي قوله تعالى:

إِلَّا تَتَصَدَّقُوا فَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ
أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) التوبة

وفي قوله تعالى:

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ
بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) الفتح

ولو تأملنا بم ارتبطت السكينة في المواضع الستة لكان الجواب واضحا أن السكينة في المورد الأول تختلف عن الموارد الخمسة الباقية، وقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام حديث ابن اسباط (قلنا له: أصلحك الله، ما السكينة؟ قال: ريح تخرج من الجنة، لها صورة كصورة الانسان، ورائحة طيبة، وهي التي أنزلت على إبراهيم صلوات الله عليه، فأقبلت تدور حول

ص: 333

أركان البيت وهو يضع الأساطين. قلنا: هي من التي قال (فيه سكينه من ربكم وبقيه مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة)؟.

قال: تلك السكينه كانت فى التابوت، وكانت فيها طست تغسل فيها قلوب الأنبياء، وكان التابوت يدور فى بنى إسرائيل مع الأنبياء عليهم السلام.(1)

فالسكينه فى الآية الأولى مختصة بتابوت بنى إسرائيل وقد يكون لهذا السبب أنها الوحيدة التى جاءت منكرة فى السياق!

وأما الموردان الثانى والثالث فالثانى يختص بانزال السكينه فى قلوب المؤمنين ومورد نزول الآية كان فى الحديدية(2) بعد الهدنة على الأصح، ووقت انزال السكينه هذا جاء بعد وقت زلزلة وارجاف وشائعات حول مقتل من أرسل الى مكة للتباحث مع قريش فكان ان أنزل الله السكينه فى قلوب المؤمنين.

وأما المورد الثالث فكان بالاتفاق فى بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة عند الحديدية بعد البيعة.

وتخصيص السكينه بالمؤمنين وليس من كان مع النبى صلى الله عليه وآله فيه كشف عن وجود أناس كانوا يضمرون خلاف ما يظهرون وهم المنافقون كأبى بن أبى سلول، ومنهم الذين نقضوا بيعتهم للنبى صلى الله عليه وآله

ص:334

1- (1) قرب الاسناد ص 373

2- (2) تفسير القرآن / المفيد / ص 491

وعصوه فى أمر الصلح وأمر الرجوع من مكانهم وعدم دخولهم مكة وهذا ما روته كتب الحديث إذ روى البخارى (قال الزهري فى حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم الكاتب فقال النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم اكتب بسم الله الرحمن الرحيم قال سهيل اما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا نكتبها الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم اكتب باسمك اللهم ثم قال هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم والله انى لرسول الله وان كذبتمنى اكتب محمد بن عبد الله قال الزهري وذلك لقوله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة الله الا - أعطيتهم إياها فقال له النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل والله لا تتحدث العرب انا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل وعلى انه لا يأتىك منا رجل وإن كان على دينك الا رددته الينا قال المسلمون سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما فيبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه ان ترده إلى فقال النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم انا لم نقض الكتاب بعد

قال فوالله إذا لم أصلحك على شىء ابدا قال النبي صلى الله عليه - وآله - وسلم فأجزه لى قال ما انا بمجيزه لك قال بلى فافعل قال ما انا بفاعل قال مكرز بل قد أجزناه لك قال أبو جندل أى معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما الا ترون ما قد لقيت وكان قد عذب عذبا شديدا فى الله فقال عمر بن الخطاب فأتيت نبى الله صلى الله عليه - وآله - وسلم فقلت الست نبى الله حقا قال بلى قلت السننا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم نعطى الدنيا فى ديننا إذا قال إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى قلت أوليس كنت تحدثنا انا سنأتى البيت فنطوف به قال بلى فأخبرتک انا نأتیه العام قال قلت لا قال فإنک آتیه ومطوف به قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا قال بلى قلت السننا على الحق وعدونا على الباطل قال بلى قلت فلم نعطى الدنيا فى ديننا إذا قال أيها الرجل انه لرسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله انه على الحق قلت أليس كان يحدثنا انا سنأتى البيت ونطوف به قال بلى أفأخبرک انک تأتیه العام قلت لا قال فإنک آتیه ومطوف به قال الزهرى قال عمر فعملت لذلك اعمالا قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة يا نبى الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو

حالتك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما...)(1)

لذا فهل هؤلاء من المؤمنين؟! فيه نظر!

وفي المورد الرابع أنزل الله سكينة على الرسول والمؤمنين في غزوة حنين وليس على الرسول والصحابة لكون الصحابة في هذا الوقت (على الأقل) بالاتفاق كان فيهم المنافق ومريض القلب، حسبك منهم من قال (بطل سحر ابن أبي كبشة اليوم)(2)!!

والمؤمنون الذين نزلت عليهم السكينة هنا هم سبعة فقط أولهم امير المؤمنين عليه السلام وهم السبعة الذين لم يفروا أما الباقون فقد فروا في الشعاب والودية المجاورة تاركين رسول الله صلى الله عليه وآله يحارب هو وثلة من المؤمنين!

وفي المورد الخامس وهو مورد آية الغار فلها كلام آخر سيأتي في ذيل البحث.

والمورد السادس ارتبط في انزال السكينة على النبي والمؤمنين فقط.

يتحصل من هذا:

أن السكينة في القرآن تنزل على الرسول وحده (في مورد واحد) وعلى

ص:337

1- (1) صحيح البخارى ج 3 ص 182

2- (2) الاستيعاب ج 3 ص 1333

المؤمنين وخدمهم (وذلك في موردين) وعلى الرسول والمؤمنين في وقت واحد (وذلك في موردين).

من هنا يأتي السؤال حول آية الغار! فالذى كان فى الغار هو النبى صلى الله عليه وآله وصاحبه (وقد اختلف المسلمون فى من هو صاحب هنا) ولكن لتكلم فى الرجل بدون أن نشخصه:

فلورجعنا لسباق الآيات قبل آية الغار لوجدنا الآية لما نزلت قالت

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) .

ثم يواصل الله توبيخهم وتبكيتهم فيقول سبحانه:

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) .

وتواصل الآيات العتاب والتبكيته وإظهار السخط والغضب الإلهي على المعنيين الى نهاية السورة وهي التوبة والتي ورد ان لها عدة أسماء كلها تكشف عن محتوى السورة العام.

ص:338

قال الزمخشري في سورة التوبة: لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدممة، سورة العذاب. لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشش من النفاق أى تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمم عليهم(1).

ففى الآيات أسماء غير معروفة ولكنها رؤوس فى النفاق ومرض القلب!؟

فآيات تعاتب (الذين آمنوا) ويدخل تحت الذين آمنوا حتى المنافقون ومرضى القلوب وذلك بنص من الامام الكاظم عليه السلام تناولناه سابقا. وباستخراج لمعنى مركب (الذين آمنوا) فى بحث سابق.

ومن هنا فالمؤمنون غير داخلين تحت هذا التبكيت والعتاب والتهديد.

فلم يبق غير المنافقين ومرضى القلوب ثم يقول تعالى (الا تنصروه) فهنا يوجه سبحانه الكلام الى هؤلاء أصحاب المستويات المتدنية من الإيمان ومعهم المنافقين وغيرهم، والآية تحمل عناصر ثابتة وأخرى متحركة والثابتة هى السياق العام للآية والمتحركة هى العناصر الفعالة فى تحريك النص باتجاه معين والدلالة على المراد منه وهذه العناصر هنا:

ص:339

(الذين آمنوا) وهم الذين لم ينصروا النبي عليه الصلاة والسلام

النبي (صلى الله عليه وآله) وهو المُخرج في الآية

(الذين كفروا) وهم الذين أخرجوا النبي عليه الصلاة والسلام

الرجل الآخر (ثاني اثنين) (صاحبه)

الله (ان الله معنا)

السكينة (سكينته)

الجنود المؤيدين (وأيدته بجنود)

وهذه العناصر السبعة هي التي تكشف عن المراد من السياق ومستوى الواردين فيه إيماناً وغيره، والسكينة نزلت على النبي صلى الله عليه وآله فقط من بين هؤلاء (الذين آمنوا والذين كفروا) مما يشير الى عدم دخول أحدهم تحت مسمى المؤمنين باستثناء امير المؤمنين عليه السلام فهو في هذه الأثناء قد نصر النبي عليه الصلاة والسلام بنومه في فراشه كما اتفق المسلمون على ذلك فهو مستثنى من قوله تعالى (الا تنصروه).

ومن هنا فالسكينة التي تنزل على الرسل والمؤمنين لم تنزل على هذا الرجل الآخر (الصاحب) بل نزلت على النبي عليه الصلاة والسلام فقط مما يدخل هذا الصاحب تحت مسمى (الذين آمنوا)، والذين مرّ علينا أنهم المسلمون ظاهراً وفيهم المنافق والمؤمن ومريض القلب وبالتالي الى هنا ليس هناك أى مقام إيماني يشمل الرجل الآخر الذي كان في الغار تلك اللحظة التاريخية. ومن مبحث (الكلمة) سنتعرف على وجه آخر للبحث.

(الكلمة) في القرآن!

ص:340

قال تعالى:

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) ال عمران.

ويقول تعالى:

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَةٌ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (171) النساء.

فالكلمة في هذين الموضعين واشباههما هي مخلوقات كاملة في الصفات الإيجابية يرسلها ربك الى خلقه ويسلطها على نظامه الكونى تحت قدرته لذا فإنه تعالى يجيب عنهم إذا اعترض البعض على أشخاص هذه الكلمات بقوله (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) يونس

ولقد ورد في قوله تعالى:

وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) سورة البقرة.

أنهم الأئمة الكمل من أهل البيت عليهم السلام روى البحرانى فى تفسيره (عن المفضل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام)، قال: سألته عن قول الله عز وجل: وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ؟

قال: «هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، وهو أنه قال:

ص: 341

يا رب، أسألك بحق محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت على فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم).

فقلت له: يا بن رسول الله، فما يعنى عز وجل بقوله: فَأَتَمَّهُنَّ؟

قال: «يعنى فأتَمهن إلى القائم (عليه السلام) اثني عشر إماما، تسعة من ولد الحسين (عليه السلام)».

قال المفضل: فقلت له: يا ابن رسول الله، فأخبرني عن قول الله عز وجل: وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ؟

قال: «يعنى بذلك الإمامة، جعلها الله في عقب الحسين إلى يوم القيامة»(1).

فالكلمات في هذه الموارد وأمثالها هي شخوص بشرية وصلت إلى القمة في الكمالات الروحية، لذا فقوله تعالى في آية الغار وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) التوبة

فالأمر هنا قد لا يكون كلاماً عاماً عن مبدأ مقابل مبدأ، مبدأ الذين كفروا ومبدأ الله جلّ جلاله، بل شخص يمثل كل المبادئ الجاهلية مقابل شخص يمثل كل المبادئ الإلهية فكلمة الله العليا هنا هي خير البشر نبينا عليه الصلاة والسلام، وكلمة الذين كفروا هنا هو من راهن عليه هؤلاء (الذين كفروا) بمخطط معين رسموه فأبى الله إلا ان يخيب ظنهم ويرجعهم الى مكة بدون أن يستطيعوا العثور على النبي صلى الله عليه وآله يقول تعالى يدون

ص: 342

أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) التوبة.

دفع توهم: قد يقال: - إن مفاد قوله تعالى: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا يفيد بالضرورة أن الله راض عن الاثنين وهذا كافٍ بإثبات إيمان الرجل المجهول الموجود في الغار مع النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

والجواب:

إن هذا قد يثبت لو أثبتنا أن المعية هنا معية في المبدأ والهدف والعقيدة المشتركة بين النبي وصاحبه الذي في الغار، وأنى لنا هذا؟!!

بل الظاهر والراجح خلافه، وهو قرينة إنزال سكينته تعالى على النبي فقط ولو كان الرجل الآخر من المؤمنين لشملته السكينة ولم تستشه!

هذا مع احتمال معتد به أن المعية هنا هي من جنس ما قاله تعالى في غيرها من الآيات قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) سورة الشعراء

وقوله تعالى: وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) سورة الحديد

وقوله تعالى: يَسَّ تَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسَّ تَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (108) النساء

ص: 343

وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7) سورة المجادلة.

والمعيّة هنا مكانيّة، وقد جاءت مع الرسل تارة ومع غيرهم من البشر تارة أخرى وبالتالي فالمعيّة لا مزيّة لها فالله مع خلقه مطّلع على سرّهم وجهرهم.

ثم إن قوله تعالى وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا واضحة في إفراد التأييد للنبي عليه وآله الصلاة والسلام فلو كان الرجل الآخر في الغار مشترك في العقيدة مع النبي عليه وآله الصلاة والسلام لما أيد الله النبي وترك ذلك الرجل!

الا ترى انه سبحانه لما أراد أن يقص على المسلمين ما حصل في وقعة بدر من المغيبات قال جلّ وعلا: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّدٌ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) الأنفال.

فلما كان النصر بالملائكة شاملا كل من كان في صف النبي صلى الله عليه وآله شامل الله الإمداد لجميعهم (بمن فيهم من أهل النفاق ومرضى القلوب) فكانت الملائكة تقاتل والنتيجة تصبّ في صالح كل من وقف ظاهرا ضد المشركين، ولو كان التأييد في الغار كالإمداد في بدر لذكر الله ذلك فلما لم يذكره كان التأييد في الغار مقتصرًا على النبي صلى الله عليه وآله مستثنيا الرجل الآخر.

وقرينة أرى فى المقام هو قوله تعالى (فقد نصره الله) فلو كان النصر لكلا الموجودين فى الغار لصرح سبحانه بذلك ألم تر أنه قال سبحانه:

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَذِلَّةً فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) آل عمران.

وقوله تعالى:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِدَائِنَا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّبْرِينَ (25) سورة التوبة.

فلو كان النصر الإلهى فى الغار شاملاً لغير النبى بصورة قصديّة لا عرضية لكان التصريح واضحاً بذلك كما صرح جلّ وعلا بنصره لكل من كان تحت راية النبى صلى الله عليه وآله فى بدر وغيرها، ولما كان المقام (فى آية الغار) يستدعى استثناء ذلك الرجل وإظهار ذلك لم تشمله رحمة الله لا بالنصر ولا بالسكينة ولا بالتأييد!

ثم تأمل فى قوله تعالى (لصاحبه) ولفظ (صاحبه) بهذه الصيغة لم يأت فى القرآن الا بين المختلفين فى المنهج والمبدأ!!

فقد جاءت فى ثلاثة مواضع فقط واحد منها مورد آية الغار (الذى قامت القرائن أن لم تكن دلائل على كزنها ينتميان الى مبدئين مختلفين) والثانى والثالث موردا سورة الكهف اذ يقول تعالى:

ص: 345

وَ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفَرًا (34) الكهف

وقوله تعالى:

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) الكهف.

واما الموارد الباقية فأما موارد مضافة الى النار او الجنة او الاعراف او الى اليمين والشمال او الى المدينة او المصاحبة اللغوية وليس فيها ما يستنبط منه معنى يؤدي الى تقييم صاحبه غير الموارد الثلاثة ولما كان الموردان اللذان فى سورة الكهف يفصحان عن نفسيهما بلا اى اختلاف ولما كانت القرائن بل الدلائل قامت على ان الصحاب الذى فى الغار لا يشارك النبى عليه الصلاة والسلام فى العقيدة والانتماء كان البحث مطردا فى ان الصحبة فى القرآن اما تعنى الاختلاف فى الانتماء مع المصاحبة الزمنية المكانية واما الاضافة الى ما لا علاقة له لا بالصحبة الشرعية ولا اللغوية.

ص: 346

من أخطر القضايا التي تهم الإنسان المؤمن على وجه البسيطة هي قضية الدجال، ومن المؤسف أنها لم تنل استحقاقها من البحث، فحتى وقت قريب كان البحث فيها روائياً بحتاً، فيكفى أن تأتي بالأحاديث التي تناولت الدجال وتسطرها وتفهمها على ظاهرها لتقول: هذا هو الدجال فاحذروه!

وما هو مأثور في (الدجال) يحتاج دراية وفهماً صحيحاً، وقد كان يُعتقد الى وقت قريب بأن الدجال كما هو ظاهر الروايات رجل كذاب، له مواصفات خاصة، وهو عظيم الجسم له قوى خارقة لم تكن حتى لبعض الأنبياء!!!.. ولما كان النبي صلى الله عليه وآله قد روى ما يحدث في العالم الى يوم القيامة كما روى زيد بن أرقم في حديث الغدير (أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشجرات فقَمَّ (1)، ما تحتهن، ورش، ثم خطبنا، فوالله ما من

ص: 347

1- (1) قَمَّ: أى تم كس ما تحتهن وقد ورد بخبر آخر (فَقَمِّمَنَ)

شئء يكون الى يوم الساعة إلا اخبرنا به يومئذ(1) فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله قد اخبر الأمة عن كل ما يكون الى يوم القيامة، فأين ذكر المخترعات الحديثة فى الأخبار على سبيل المثال؟ وهى أمور ملفتة للنظر بل هى زبدة ما أبدعه البشر فى المجال التكنى فى تاريخ الإنسانية الطويل، مثل الطائرة والباخرة والصواريخ والأقمار الصناعية وسائر المخترعات الأخرى والتي غيرت وجه البشرية إلى الأبد؟ وإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول (والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما من فئة تبلغ مائة رجل الى يوم القيامة، إلا وأنا عارف بقائدها وسائقها)(2) فأمر المؤمنين يعرف كل فرقة تبلغ مائة فرد فما فوق (كما هو ظاهر العبارة) ومن هذه الفرق الضالة ما يكون فى الجانب الغربى للكرة الأرضية (فى العالم الغربى)، ومنها ما فى الجانب الشرقى من الكرة الأرضية (فى العالم الأصفر)، ومنها ما فى مجاهل أفريقيا، ومنها ما يكون قريبا من القطب الشمالى، فإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم كل هذا فأين ذكره فى الأخبار؟ وهل يعقل أن الناس تسمع هذا الكلام ولا تسأل عنه أبداً، أو أن أمير المؤمنين تكلم عن هذه الفرق ولم يصلنا عنها شئء؟ أليس هذا هو الأقرب للواقع؟!

وكذلك النبي صلى الله عليه وآله، فقد تكلم عن كل ما يحدث من الأمور الملفتة للنظر، والتي لها إسقاط على حياة الناس إلى يوم القيامة، وتمثل

ص:348

1- (1) خلاصة عبقات الأنوار - حامد النقوى - ج 7 - ص 389

2- (2) كتاب سليم بن قيس الهلالي - ص 462

انعطافاً وعلامة فارقة في مسيرة الإنسان، لكنه النقل!! فكم رواية شوهت معالمها بعدم فهم السامع أو الناقل ولكن قد نجد لهم العذر في بعض الموارد، إذ يقول النبي (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)(1) فالنبي كان يشبه لهم هذه المخترعات، وهي الصواريخ والدبابات والأقمار الصناعية والبواخر الضخمة والغواصات، بما يشاهدونه يومياً من جمال وشياخ وماعز وسائر الأمور الأخرى والتي لا يفقه البدوي غيرها!!.

وهذا له دخل أساسي بموضوعنا (الدجال)، فمصطلح الدجال أصل يضم بين جنبتيه معانٍ، أغلبها جاء مقصوداً بالإشارة إليه في الأخبار، قال ابن منظور (دجال: كذاب، وهو من ذلك لأن الكذب تغطية..... والداجل: المموه الكذاب، وبه سمي الدجال. والدجال: هو المسيح الكذاب، وإنما دجله سحره وكذبه. ابن سيده: المسيح الدجال رجل من يهود يخرج في آخر هذه الأمة، سمي بذلك لأنه يدجل الحق بالباطل، وقيل: بل لأنه يغطي الأرض بكثرة جموعه، وقيل: لأنه يغطي على الناس بكفره، وقيل: لأنه يدعى الربوبية، سمي بذلك لكذبه، وكل هذه المعاني متقاربة، قال ابن خالويه: ليس أحد فسد الدجال أحسن من تفسير أبي عمرو قال: الدجال المموه، يقال: دجلت السيف موهته وطليته بماء الذهب) وكل هذه المعاني صحيحة كما سيتضح.. وقال الزبيدي(2) (قيل: هو من دجل الرجل: إذا قطع نواحي الأرض سيرا. قال أبو العباس: سمي دجالاً لضربه في الأرض، وقطعه أكثر

ص:349

1- (1) تحف العقول - ابن شعبة الحرّاني - ص 37

2- (2) تاج العروس - الزبيدي - ج 14 - ص 228

نواحيها.... أو من الدجال، كسحاب، للسرجين سمي به لأنه ينجس وجه الأرض(1).

وقبل الدخول في تفسير الروايات الواردة في المقام يجب أن نقرر حقيقة مهمة، وهي أن الله أجل وأعظم من أن ينزل إلى الناس مخلوقاً هائلاً اسمه (الدجال) فيأمر الشمس بالسير معه فتستجيب! وكذلك السحاب، ويدعى الربوبية ويتلاعب بالنظام الكوني بالمعجزة، كما تروى الروايات، وبعدها يطلب الله من الناس التمييز بينه من جهة وبين المعصوم والنبى من جهة أخرى! فكيف يستطيع المكلف التمييز بين الصادق والدجال مع مشاهدته أن الطرفين يقومان بنفس المعاجز؟ ومن المعروف أن الإعجاز سمي بذلك لكونه يعجز الكاذب من الإتيان بالمثل، فالمعجزة هي الأمر الخارق المصاحب للدعوى المقرون بالتحدي، فإذا كان الدجال قادراً على المعجزة أتى شاء بطل التكليف، وهذا باطل بداهة، فعلمنا من هذا أن الدجال ليس ما فهموه، وما عليه ظاهر الروايات، بل أن للروايات تأويلاً مقبولاً ولطيفاً، بل هو إعجاز غيبي وفتح في بابه إن ثبت، بعد هذا نقول إن كان الأمر كذلك فيجب ألا تؤخذ الأخبار التي تقول أن النبى صلى الله عليه وآله رأى الدجال رأى عين (كما في بعض الأخبار) لسبب بسيط وهو أنه ليس هناك دجال متجسد يراه النبى! بل أن النبى رأى رؤيا والمعروف أن الرؤيا للصالحين عامة (والأنبياء خاصة) تأتي بعضها في صور مثالية للمجردات، فيرون الموت متجسداً بجسم

ص:350

أو آله، والرزق كذلك، والخير مثله وهو المعروف من العرفاء. وقد جاء فى الأثر أن الموت يتحول الى كبش ويذبح بعد الحساب فى يوم القيامة فىقال لأهل الجنة خلود لا موت ويقال لأهل النار خلود لا موت. وحتى لو لم تكن رؤية الدجال التى رآها النبى فى المنام بل فى اليقظة فإننا لا- ننفى تجسد المعنويات والمجردات فى قوالب مادية كما كان الأمر فى الموت والحياة وأمثالها من الأمور التى رآها النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج.

روى عن النبى انه قال عن الدجال (رأيته بيلمانيا أقرم هجانا، إحدى عينيه كأنها كوكب درى) (1) ولا- يمكن بحال من الأحوال أن يكون الكلام- حقيقة، بل إن الناقلين للروايات افسدوا كثيرا من المعانى الجميلة التى يراد إيصالها من المعصومين عليهم السلام، وذلك لأن هؤلاء الرواة لم يفهموا مراد المعصوم فروى كل راوٍ بما اختلط لديه من عناصر الثقافة الذاتية، والتى نعلم يقينا أنها ستشوه الكلام المنقول، روى ابن سلامة فى مسنده عن (أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه - وآله - وسلم قال ما ينتظر أحدكم من الدنيا، إلا غنى مطغيا، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر) (2)، وروى

ص:351

-
- 1- (1) الفايق فى غريب الحديث - جار الله الزمخشري - ج 1 - ص 115 / النهاية فى غريب الحديث - ابن الأثير - ج 1 - ص 154 / لسان العرب - ابن منظور - ج 12 - ص 54 / تاج العروس - الزبيدي - ج 16 - ص 60
- 2- (2) مسند الشهاب - ابن سلامة - ج 2 - ص 32 / مسند أبى يعلى - ج 11 - ص 422 / تفسير البغوى - ج 4 - ص 182

الشيخ الصدوق (قدس) بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام (وقد قام إليه الأصبغ بن نباتة فقال: يا أمير المؤمنين: من الدجال؟ فقال: ألا إن الدجال صائد بن الصيد)⁽¹⁾، وابن صيد هذا صحابي معروف كان معاصرا للنبي صلى الله عليه وآله واسمه في بعض الكتاب (ابن صياد) أو صائد بن صائد، فلو كان ظاهر الخبر صحيحا فكيف يقول النبي في رواية أبي هريرة (إن الدجال شرٌّ غائبٌ) مع انه يعيش بينهم وهو صائد بن صيد؟!.

روى الشيخ المجلسي (قدس) في البحار عن أبي سعيد الخدرى: أنه قال (صحبت ابن صياد إلى مكة فقال لي: ما لقيت من الناس؟ يزعمون أنى الدجال! ألتست سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إنه لا يُولد له، وقد وُلد لي، أليس قد قال هو كافر؟ وأنا مسلم، أوليس قد قال لا يدخل المدينة ولا مكة وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة!)⁽²⁾ فالمسكين ابن صيد كان معاصرا لقوم لم يفرّقوا بين ألفاظ المعصوم (مع دقتها) فاتهموه بأنه هو الدجال، والراجح أن النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقولوا أن (الدجال هو ابن صائد) كما ذكر المجلسي في روايته، بل إنهما شبها الدجال بصائد ابن صيد لجهة شبه بين ابن صيد وبين القالب المثالي الذي رأوه به، وتشبيه النبي صلى الله عليه وآله بعض الشخصيات الغائبة (أو الأمور

ص:352

1- (1) كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص 526-527 / مختصر بائر الدرجات - الحسن بن سليمان الحلبي - ص 144 / معجم أحاديث الإمام المهدي - الكوراني - ج 3 - ص 132.
2- (2) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج 52 - ص 199

الغائبة) بالصحابة أمر شائع بالأخبار ففي الرواية (فبيعت الله عز وجل عيسى بن مريم (صلى الله عليه - وآله - وسلم) كأنه عروة بن مسعود الثقفي)(1) فهنا شبه النبي صلى الله عليه وآله المسيح عليه السلام بالصحابي عروة بن مسعود، ولكون المقام المقدس للمسيح غير متصور لم يكن هناك داع اجتماعي عند الناس بأن ابن مسعود هو المسيح لكونه غير متصور عند الناس، بخلاف تشبيه الدجال بابن الصيد، إذ كانت هناك دواع اجتماعية منطلقة من الجو الذي يلفه التخلف، وعدم الدقة بالمرئيات بالعصر الأول للإسلام، وإثارة الخبر والتشبيه! إذ لم يعلموا بعد أهمية الروايات التي سمعوها من النبي صلى الله عليه وآله إلا بعد مضي زمن على وفاته، روى مسلم في صحيحه (عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله - وسلم يقول: بينما إنا نائم رأيتني أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر بين رجلين ينطف رأسه ماء أو يهراق رأسه ماء قلت من هذا قالوا هذا ابن مريم ثم ذهب التفت، فإذا رجل احمر جسيم جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية قلت من هذا قالوا الدجال أقرب الناس به شبها ابن قطن)(2) وزاد احمد بن حنبل (ابن قطن رجل من بني المصطلق)(3) فالرواية هنا صريحة بالرؤيا، وهي نص في المقام، وفيها زيادة عن ذلك تشبيه الاعورار الذي رآه النبي في الدجال بخلقه الصحابي ابن قطن (والظاهر انه كان أعورا) وفي رواية

ص:353

1- (1) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام - الشيخ علي الكوراني العاملي: ج 2، ص 111

2- (2) صحيح مسلم - مسلم النيسابوري - ج 1 - ص 108

3- (3) مسند احمد - ج 2 - ص 122

عن النبي (إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأنى أشبهه، بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتيح سورة الكهف)(1) وهنا الراوى لم يصرح بان النبي رأى الدجال فى المنام، واغفل الراوى أهم جزء بالرواية فضاعت معالمها وملاحظتها فلم تعطِ المرجو منها للفهم، على أن ابن قطن هذا قد نال تشبيها آخر بعمر بن لحي وهو أول من غير دين العرب الى الشرك(2)!!

ومرة أخرى شبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عين الدجال بعين الصحابي أبى يحيى فقال (وانه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا آخرهم الأعور الدجال ممسوح العين اليسرى كأنها عين أبى يحيى)(3) فعلى هذا فإن تشبيه الدجال بابن الصيد تارة وابن قطن أخرى وبابى يحيى تارة ثالثة ما هو إلا لشبه معين أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إيصاله من اقرب طريق لا أكثر!. ومن القرائن على ذلك هو نصيحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقراءة فواتيح سورة الكهف، إذ ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأنى أشبهه، بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتيح سورة الكهف)(4) وفى رواية أخرى لمن أدرك الدجال (أن من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، أعطى نورا من حيث

ص:354

-
- 1- (1) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام - الشيخ على الكوراني العاملى: ج 2، ص 13.
 - 2- (2) المحبّر - محمد بن حبيب البغدادي - ص 99
 - 3- (3) المستدرک - الحاكم النيسابورى - ج 1 - ص 330-331 / معجم أحاديث الإمام المهدي - الكوراني - ج 2 - ص 32
 - 4- (4) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام - الشيخ على الكوراني العاملى - ج 2 - ص 13

يقرأها إلى مكة، وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى، وفضل ثلاثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح. وعوفى من الداء، والديبيلة، وذات الجنب، والبرص والجذام، وفتنة الدجال. (1) ونقل العلامة الحلي عن بعض كتب القوم عن أمير المؤمنين عليه السلام (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل بلية فإن خرج الدجال عصم منه) (2)

وقال الشافعي (وبلغنا أن من قرأ سورة الكهف وقى فتنة الدجال) (3)

والظاهر أن هذه الأحاديث المرشدة لمواجهة الدجال بسورة الكهف أو فواتيحها تضم مفاتيح الفهم الصحيح لماهية الدجال لمن تأمل!.

يقول تعالى في فواتيح سورة الكهف:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) فَيَمَّا لِيُذَيَّرَ بِأَسَأَ شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُسِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أُجْرًا حَسَنًا (2) مَا كَثِيرٌ فِيهِ آيَاتٌ (3) وَيُذَيَّرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا

ص: 355

1- (1) إعانة الطالبين - البكري الدمياطى - ج 2 - ص 103

2- (2) منتهى المطلب (ط. ق) - العلامة الحلي - ج 1 - ص 338

3- (3) كتاب الأم - الإمام الشافعي - ج 1 - ص 239

وكما ترى فالآيات مُنذرة بالعقاب لمن ينحرف، ومبشرة بالثواب للعاملين الصالحات، ومؤكدة على أن ما موجود على الأرض من منافع هو زينة للأرض، وهدفها ابتلاء الإنسان، وان مصير هذه الزينة إلى الزوال والفاء، لكونها وُجدت ليُختبر الإنسان وليست هدفاً لذاتها! وهذا له ارتباط وثيق بفهمنا للدجال، بل الدجال لا يُفهم مصداقه إلا مع تدبر هذه الآيات القرآنية. إذ أن سياق الآيات القرآنية يدل على ما سيقع من افتتان في زمن الدجال. فقد جاء في صفات الدجال روايات ظاهرها متناقض لمن أراد أن يفهمها فهماً ظاهراً كما كانوا يفعلون، لكننا لو وضعنا ثوابت لفهمنا للدجال مقيّدة بالضوابط العلميّة الثابتة لكانت الصفات العامة للدجال الواردة في السّنة مكّملة لما ورد في الآيات لذا جرى الربط بين فواتيح سورة الكهف والدجال لمن أراد العصمة من الفتنة فقد جاء في مسند احمد بن حنبل عن المغيرة بن شعبة (ما سأل رسول الله صلى الله عليه - وآله - وسلم عن الدجال أحد أكثر مما سألته وانه قال لى ما يضرك منه قال: قلت إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال: هو أهون على الله من ذاك) (2) هنا نرى إنكار النبي صلى الله عليه وآله لما يقوله الناس ويدعون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قاله، وقد روى بعض الرواة هذه الصفات عن النبي صلى الله عليه وآله

ص: 356

1- (1) القرآن الكريم - سورة الكهف - الآيات من 1 الى 8

2- (2) مسند احمد - الإمام احمد بن حنبل - ج 4 - ص 252

وسلم في روايات عديدة، وهذا يؤكد أن النبي لم يقل إن معه جبل خبز ونهر ماء بل أن النبي شبه ما مع الدجال بجبل خبز ونهر ماء، وقد نقل السيوطي(1) حديثاً أدقّ منه نقلاً إذ روى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله (ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال، ما حدث به نبي قومه: إنه أعور، وإنه يجيء معه تمثال الجنة والنار، فالتى يقول إنها الجنة هي النار، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه) فهو يقول هنا (تمثال الجنة والنار) ولم يقل (معه جنة ونار) وبينهما فرق في الدلالة، فلولا دلالة التشبيه لم نستدل على المراد الحقيقي لروايات النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله وسلم، فالدجال خَلَقَ (أو فِكر له تطبيقات مادية) يكذب ويموّه على الناس معتقداتهم، وهو الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من العقائد الفاسدة، والتي تحاول أن تسود محل الرسالة السماوية المقدسة، روى الحاكم النيسابوري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وإنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم الأعور الدجال ممسوح العين اليسرى كأنها عين أبي يحيى)(2) وكأن الرواية ناظرة إلى ثلاثين دعوى ضلالة على امتداد الزمان منذ بدىء الخليقة إلى ظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه) لأنه هو من سيقضى عليه أو المسيح عيسى بن مريم كما بالروايات.

ومن خطورة الدجال ورد عن النبي صلى الله عليه وآله (ما بين خلق

ص:357

1- (1) الجامع الصغير - جلال الدين السيوطي - ج 1 - ص 437

2- (2) المستدرک - الحاكم النيسابوري - ج 1 - ص 330-331

آدم عليه السلام إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال(1)

فوصفه بأنه (أمر) وهو لفظ دقيق لكونه ليس مخلوقاً مشخّصاً بل هو مزيج من نظريات تلخصها كلمتهم البائسة في الغرب (تسوق لكى تتسوق) والتسوق لنفسه بلا حاجة مرتبط بحب الدنيا وحب إشباع نهمة التملك جاء في الحديث (منهومان لا يشبعان طالب دنيا وطالب علم، فمن اقتصر من الدنيا على ما أحل الله له سلم، ومن تناولها من غير حلها هلك، إلا أن يتوب أو يراجع، ومن أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا، ومن أراد به الدنيا فهي حظه)(2).

فالتمويه والتدجيل يكون بأن ينظر للدنيا وما فيها من زينة على أنها الغاية من عيش الإنسان لذا سيكون حب الدنيا المحك لمعرفة المؤمن من غيره

يقول تعالى في فواتيح سورة الكهف:

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) (3).

فتعبيره تعالى عما في الأرض بأنه (زينة لها) وربط ذلك بقول إبليس قال رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر: 39) فالله جعله

ص: 358

1- (1) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام - الشيخ على الكوراني العاملي - ج 2 - ص 16

2- (2) الكافي - الشيخ الكليني - ج 1 - ص 46

3- (3) القرآن الكريم - سورة الكهف - الآيات من 1 إلى 8

زينة غير باقية وعمل إبليس هو أقناع الناس وإغوائهم بتزيين هذه الزينة في أعين الناس فيقنعهم بأنها هي الغاية من وجودهم فيعبتون من الدنيا عبثاً فيقعون في حبال الدنيا وهي أول المعصية إذ ورد عن النبي صلى الله عليه وآله (إن أول ما عُصِيَ الله به ست، حب الدنيا، وحب الرياضة، وحب الطعام، وحب النساء، وحب النوم، وحب الراحة)(1)

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام (مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز، كلما ازدادت من القز على نفسها لفا كان أبعد لها من الخروج حتى تموت)(2).

وقال تعالى:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (هود: 15).

وقال تعالى:

وَمَا أوتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (القصص: 60).

فترى أن زينة الدنيا وردت في القرآن في قبال ما عند الله وهو الباقي والخالد بينما تزول هذه الزينة فمن سخر نفسه لهذه الزينة يذهب معها ومن خلّد عمله للأخرة خلّد معه عند الله، يقول تعالى:

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ

ص: 359

1- (1) المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج 1 - ص 295

2- (2) لكافي - الشيخ الكليني - ج 2 - ص 316

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل: 96).

لذا جاء الحث على بغض الدنيا سئل على بن الحسين السَّجَّاد عليه السلام (أى الأعمال أفضل عند الله عز وجل؟ فقال: ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله (صلى الله عليه وآله) أفضل من بغض الدنيا، وإن لذلك لشعبا كثيرة وللمعاصي شعبا، فأول ما عصى الله به الكبر وهي معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، والحرص وهي معصية آدم وحواء حين قال الله عز وجل لهما: "كلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" فأخذوا ما لا حاجة بهما إليه فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة وذلك أن أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه، ثم الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب النساء وحب الدنيا وحب الرئاسة وحب الراحة وحب الكلام وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن فى حب الدنيا، فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والدنيا دنياء: ان: دنيا بلاغ ودنيا ملعونة(1).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام (ما ذئبان ضاريان فى غنم قد فارقه رعاؤها، أحدهما فى أولها والآخر فى آخرها بأفسد فيها من حب المال والشرف فى دين المسلم.) (2)

ص: 360

1- (1) الكافى - الشيخ الكلينى - ج 2 - ص 130-131

2- (2) الكافى - الشيخ الكلينى - ج 2 - ص 130-131

فأتباع الدجال كل من أخلد الى الدنيا مهما كانت عقيدته فتراه يلهث وراء خبزه وماء كما ورد في الأخبار (يخرج الدجال عدو الله ومعه جنود من اليهود وأصناف الناس، معه جنة ونار ورجال يقتلهم ثم يحييهم، ومعه جبل من ثريد ونهر من ماء)⁽¹⁾

وما توفره الدنيا لأبنائها من ملذات آتية تمثل الجنة في الدنيا ولكنها في الآخرة نار على صاحبها والعكس صحيح لذا جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله (فناره جنة وجنته نار)⁽²⁾ لكون الدجال وهو كل الفكر المادى من يوم بدء الخليقة الى يوم يُقتل على يد الإمام عجل الله فرجه يبدع فى تقديم نتاجاته المادية الصرفة وبعين عوراء لا مجال فيها للآخرة يقدم هذه النتاجات بصور تخلق الأبواب حتى يحتنك ذرية آدم فهو فى الحقيقة سلاح إبليس الرئيس إذ يقول:

رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِيَّتَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر: 39).

لذا فقراءة فواتيح سورة الكهف والتأمل بمآل هذه الدنيا الفانية وكونها ستصبح صعيداً جُرُزاً (الكهف: 8) قال الطبرسى (صعيد: ظهر الأرض. وقال الزجاج: الصعيد الطريق الذى لا نبات به. والجرز: الأرض التى لا تنبت كأنها تأكل النبات أكلا، يقال: أرض جرز، وأرضون أجزاز. وقال سيويه: يقال جرز الأرض فهى مجروزة وجرز هما الجراز والنعم، ويقال

ص: 361

1- (1) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام - الشيخ على الكوراني العاملى: ج 1، ص 321.

2- (2) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام - الشيخ على الكوراني العاملى - ج 2 - ص 9

فما على الأرض من الزينة مآله الذهب ولاب قاء له وتبقى تبعات اللهاث وراءه من حلّه وغير حلّه: يقول تعالى:

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا
(الكهف: 45).

ولو جئنا للفظ المتحرك في بداية سورة الكهف وهو في قوله تعالى:

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) الكهف

فلفظ زينة هو محور الكلام في الآية فما على الأرض زينة والذي جعل الزينة على الأرض هو الله جل وعلا وهه الزينة سيجعلها الله جل وعلا صعيدا جززا!

وبين جنبات هاته الكلمات تبرز مباحث الدجال الحديثية والقرآنية وحرية الإغراء عنده

فالدجال ويتبع وسيلة الإغراء بالتزيين لجلب قلوب الناس اليه ومن ثم ردهم عن طريق الله الى الشيطان والله وضع الزينة ليلبوا الناس ايهم احسن عملا لكن الشيطان:

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) الحجر

ص: 362

والطريقة التي يتبعها فى الإغواء هى:

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) الاعراف.

فهو يزين لهم ما فى الارض ويغويهم بذلك فيسوس لأكابريهم ليخترعوا الطرق التى بها يعيش الانسان لكى يعيش ويتسوق لكى يتسوق! وهى من مبادئ الرأسمالية اليوم. فههدف الحياة فى البلدان العلمانية هى المتعة ولا يمكن ان تكون هناك متعة بلا تزيين للأرض وهذا التزيين لهذه المتعة وكيف تكون كان قد تعهد الشيطان بإيجادها والشيطان هو مبدا الدجال (كائنا ما كان هذا الدجال) وبالنتيجة فكل من يتبع الدجال يحارب المبادئ الالهية التى حملها الانبياء، لذا فلو قرأه فواتيح سورة الكهف على الدجال وهى قوله تعالى:

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) سورة الكهف

فههدف الشيطان ايجاد الزينة لكى يزينها فى عيون الناس ويحاول الايحاء بانها هى الهدف من الحياة ولكن سورة الكهف تخاطب اولى العقول بان ما على الارض من زينة هى للختبار والابتلاء لا للعب منها بل ان المنافسة تكون بالعمل الحسن الصالح لكون العمل يبقى عند الله ويصير الى جنة لا تبيد او نار مستعرة ولكون ما على الارض سيصبح حطاما وذلك قول الله الذى لا يخلف الميعاد.

ص:363

النبى موسى عليه السلام فى القرآن عبور موسى عليه السلام والكشف الأثرى 13

موسى عليه السلام بين القصص وطه والنمل 13

بنو إسرائيل وموسى عليه السلام 23

هل كان موسى عليه السلام أرتاً أو الثغاً؟! 29

(اليوم الآخر) و (الآخرة) و (القيامة) فى القرآن 42

(الذين كفروا) و (الكافرون) و (الكافرون حقا) فى القرآن 49

مفهوم (الكتاب) فى القرآن 56

مثلث (الذين آمنوا) و (المؤمنون) و (المؤمنون حقا) فى القرآن 77

(المتقون) فى القرآن 88

المتنازعون فى سورة الكهف والبعد العقائدى 92

(المجرمون) فى القرآن الكرىم 112

أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ 117

المحراب فى القرآن 134

معانى استعمال (نظر وبصر) ومشتقاتهما فى القرآن 147

(الإنسان والبشر) فى القرآن الكرىم 155

متى يُنْفَخُ فى الصور؟! 164

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فى القرآن 173

(الوفاة) و (الموت) و (القتل) فى القرآن 183

جَنَّتِ الدُّنْيَا فى عصر الإمام المهدى (عجل الله تعالى فرجه الشريف) 187

تأملات فى سورة الروم 209

مؤمن آل فرعون 209

(مرج البحرين يلتقيان)! 221

نوح وقومه فى القرآن 226

يأجوج ومأجوج 231

كائنات ما بعد الظهور 231

رحلة ذى القرنين والفضاء الخارجى 231

يأجوج ومأجوج فى القرآن 231

يأجوج ومأجوج فى المأثور 231

صفات أقوام يأجوج ومأجوج 231

ص: 366

(الذين لا يعلمون) في القرآن 231

ما كان سؤال المنافقين؟! 235

(النزع) في القرآن 247

تقدير الكلام في آيات القرآن... بين الوهم والحقيقة 253

كلاً.. في القرآن 275

النفاق ومرض القلب 281

مصطلحان متباينان قرآنيًا 281

وانشقَّ القمر! 299

زوال الدويلة الصهيونية 313

على يد الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف 313

على من تنزل السكينة؟ 332

فواتيح سورة الكهف 347

عصمة من الدجال 347

ص: 367

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩